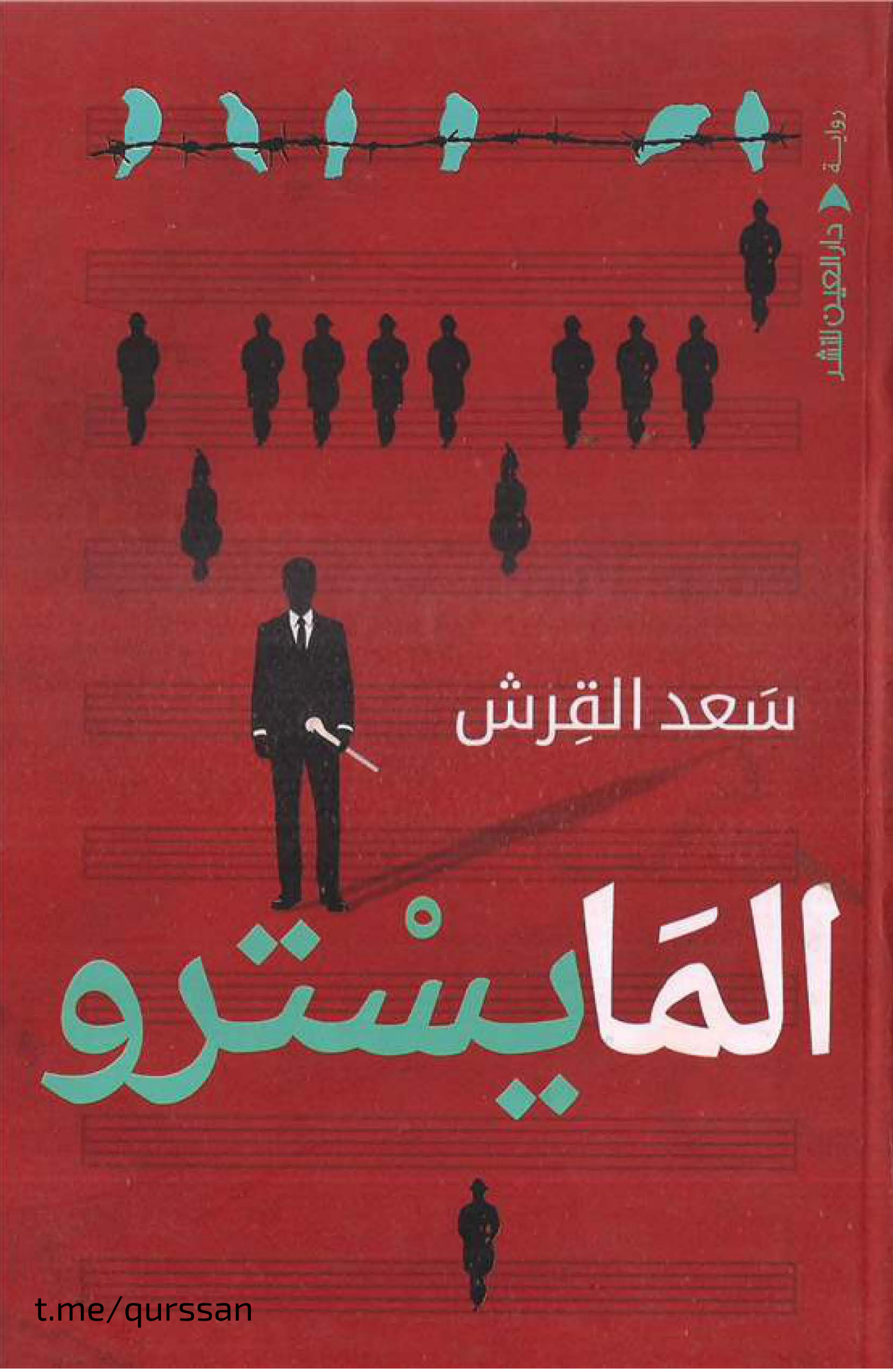

t.me/qurssan

المايسترو

(رواية)

سعد القرش

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٤٤٨/ ٢٠١٩

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 565 - 0

t.me/qurssan

المايسترو

رواية

سعد القرش

دار العين للنشر

t.me/qurssan

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

القرش، سعد

المايسترو: رواية/ سعد القرش.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٠ ٥٦٥ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٣٤٤٨/ ٢٠١٩

t.me/qurssan

إلى

د. سماء يحيى د. سميّة عزام

شـذى يحيـى مريـم نعـوم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

«ولعـل روحـي تمـضي قدما، وتسـير هنا وهنـاك وفي كل موضـع يبعث السرور. ولعل «اسـمي» ينـادى، وعسى أن يوجد على سطح مائدة القرابين.. عسى أن تقدّم إليّ القرابين في حضوري، مثلمـا تقدّم إلى أتباع حورس. لعله قد أعدّ لي مقعد في زورق الشـمس في كل يوم يبـزغ فيه الإله، وعسى أن أُستقبل في حضرة أوزير في أرض الانتصار، أرض العدل والحق».

«ترنيمة إلى «رع» عندما يشرق»
من كتاب «الخروج إلى النهار»، الشهير بكتاب الموتى

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

بانتصاف الليل، يخرجون من العشب. يتشقق الأسفلت، ويتوارى سواده أمام سحابة اخضرار. يتناسخون سراعا، وتستعجل الأصابع إطلاق البارود، وفي الوجوه ألسنة من لهب، وتمدّهم الصحارى بحشود من الممسوسين غضبا، يهتفون ويلوّحون بأيديهم ويهددون. فكيف تصل السيارة إلى هنا، والسبل مرصوفة بالوعيد، وقد زال عنه يقين الشفق، حين أتوا مع الغروب فرادى.

تلك عشيّة غارقة في لون ذهبي يكسو الأفق ويمتد إلى الشاطئ. يوشك المركب أن يتحرك، ولا يكفّ عن الاهتزاز. يتراقص في محله، وهو مشدود إلى الممشى بالقرب من الشاطئ، ترفعه موجة وتحطه أخرى.

t.me/qurssan

ولا تبالي به سفن بعيدة متهادية في السديم، ويخوت راسية مصحوبة بأضواء وصخب وموسيقى.

قارب وحيد فقير، صنعه شاب هندي لم يرَ بلاده، ولا يشعر بالحاجة إلى ذلك. جمع بقايا أخشاب، طوال سنوات لا يعرف لها عددا، وفكّر في صنع عربة يضع فيها الصغار، ويلاعبهم في الحديقة، أو يبني غرفة في أقصى القصر، في أطراف لم تطأها قدما السيد، ربما لم ترها عيناه من نافذة السيارة أو الشرفة. غرفة خشبية للعبادة أو الخلوة من دون عبادة، بصحبة قطط وحيوانات لا يعرف "أنيل" اسمها. ثم فوجئ السيد وأسرته، بعد الرجوع من رحلة لم يغيبوا فيها طويلا، بقارب ينهض من الرمال والعشب. سخروا من "أنيل" وتركوه، وقال السيد لأبيه "ماني" إن ابنه أصابته لوثة الهند. لم يفهم الأب ما هي لوثة الهند، ولكنه هزّ رأسه موافقا:

- فعلا يا سيدي، هذه أعراض لوثة الهند.

- أعدْه إلى هناك، ليعالج بين أهله.

طأطأ رأسه، وأجاب بامتنان للسيد الذي دلّه على طريق للشفاء:

- شكرا يا سيدي، معك حق. هناك يشفى وسط أهلي، هو لا يعرفهم ولا يعرفون ملامحه، وكلما سافرت إليهم سألوني عن اسمه.

ضحك السيد متسائلا:

t.me/qurssan

- أي ملامح؟ كلكم نسخ من قالب قديم، كيف تميزكم نساؤكم في الليل؟

ولم يبالِ بصمت الرجل، وأتبع ساخرا:

- ما يفرق، والله، مع أهلك أنهم لم يروه. ستضاف نسخة هندية جديدة إلى نسخ هناك في مثل سنه.

تأكد للأب أن السيد جاد، فتوسل إليه أن يترك "أنيل"، وتعهد بأن يعيد إليه عقله، ولو حطم رأسه بألواح القارب. ولم ينتظر إجابة، وانحنى يلتقط عصا، وقبض عليها جيدا، ثم لوح في الهواء، في إشارة إلى أن هذه أداة رادعة للولد، تكفي لعقابه وإلزامه حدود الأدب، فلا يشوه حديقة القصر بما لم يؤمر به.

انحنى وقدم للسيد اقتراحا بديلا لإعادة "أنيل" إلى الهند، أن يفسخ ألواح القارب، ويكسر قلبه فلا ينسى أن يكبح عقله عن أي اجتهاد يؤدي إلى مثل هذه الأباطيل، وأن يضرب رأسه بأحد الألواح؛ لكي يتحسس الجرح كلما أوعز إليه الشيطان بالضلالات، فلا يفكر في إعادة بناء القارب وإزعاج السيد وأسرته بدق المسامير، وتسوية جوانب القارب؛ فيثير الغبار بنثار الخشب.

وتجهم ابن السيد، الصبي الذي كان يحلو له أن يراقب "أنيل" ويساعده أحيانا، ويركب القارب، ويدبدب في جوفه ويضحك. غضب السيد الصغير،

t.me/qurssan

وقال لأبيه إن أحدا لم يسمع صوتا لدق مسامير. وبنظرة خاطفة، تأمل "ماني" قارب ابنه، وتذكّر أمرا، وقال للسيد الكبير بصوت خفيض:

- إذا سمح لي سيدي بإيضاح، فالقارب يخلو من أي مسمار.

ولم يهتم السيد الصبي، وأمسك يد "أنيل"، وأخذه نحو القارب، وسأله:

- كيف صنعت القارب بلا مسامير يا أنيل؟

اطمأن الشاب قليلا لسماع اسمه منطوقا، ولو بلسان صبي كان يقلد أباه مناديا أنيل: "يا عبد". أحس بحروف اسمه غضة لم تنضج، وأجاب:

- كما يصنع الناس القوارب يا سيدي.

أسعد السيد هذا الاحترام الذي يوليه أنيل لابنه فيخاطبه بالسيد. ثم وخز ماني ابنه ببوز العصا، وآلمته ولم يجرؤ على جذبها من يد أبيه في حضرة السيد.، وخشي أن ينحّي الطرف المدبب عن بطنه، واكتفى بالتراجع خطوة، وانحنى يحتضن الألم بكفه.

- إن لم تفكّ هذا الشيء، ومن غير ضجة، سأدق مسمارا في يدك. كيف ساهيت السيد وصنعت قاربا في حديقة القصر من دون استئذان؟

- كنت أتسلى، وأسرّي عن سيدي.

وأشار إلى الصبي وأتبع:

t.me/qurssan

- دلني سيدي على ألواح مهملة، وبقايا غراء وحبال.

ابتسم الصبي، وأغمض أنيل عينيه؛ لكي يتقي شرّا يتوقعه من عيني السيد ولسانه. لو أنه ضربه أو سبّ أباه لاحتمل الإهانة، ولكنه يتجاهله، يقلب بصره بين القارب والحديقة، وينظر إلى أبيه الهندي المسكين، ولا يقول شيئا، ويخلو وجهه من غضب أو دهشة. اختلط على أنيل ما إذا كان السيد قد أمر بتحطيم القارب، أو استاء من صنعه. وأحس بنهاية أيامه وأيام أبيه في القصر وفي البلد كله إذا تصاعد الغضب في نفس السيد. وساد صمت قطعته إشارة استهانة من إبهام السيد، بانصراف الأب، فلم يسأل هل ينتظر في الخارج، أم يستعد للذهاب إلى القصر الآخر، قصر الصحراء الذي استغرق عمله فيه أكثر من شهر تاركا ابنه أنيل يخطط ويفكر، ثم ينفذ ما يلقي الشيطان في نفسه من وساوس شجعته على تشييد قارب ملعون، فيصيب السيد بالوجوم، ويهمس السيد في أذن ابنه الصبي فيغادرهم، وتضيق الحديقة بأنيل وأبيه المترقّب في حضرة السيد.

- هل نصحك أحد بصنع قارب في قصري؟

أراد أن يقول "هو قاربك يا سيدي"، وخاف أن يثور ويظن سوءا بأن أنيل يسخر منه؛ فأي قارب هذا الذي ينسبه إليه؟ وكان يراه، حين جاءوا إلى هذا القصر المطل على الخليج، يتفقد بخوتا، ويسمع كلاما عن شراء واحد منها، ليربض على الشاطئ، ثم انشغل السيد بالسفر وقصر

t.me/qurssan

الصحراء. ولا يصح العبث معه بقول "قاربك". همّ أبوه أن يعيد نكزه، فرفع السيد سبابته:

- لم آمرك بضربه يا ماني، ولا بالكلام معه.

سكت ماني؛ فالسيد الذي تركه قبل قليل يلوم أنيل ويضربه لم يلتفت إلى الشاب. وقال بحسم:

- ألم تسمع سؤالي؟

فهم أنيل أن السؤال التحذيري لا يحتمل الانشغال عنه بالتفكير في ما يغضب السيد أو يرضيه. فالمهم أن يتكلم، فتكلم:

- يشهد الله أنني لم أسرق، وإنما كنت ألهو مع سيدي....

لم يكمل نطق الجملة. توقف لسانه عن الكلام وشفتاه مفتوحتان، يكاد يسقط منهما حرف، حروف كلمة "الصغير" صفة للسيد الصبي. ارتبك وخشي أن تحل لعنة السيد الكبير عليه وعلى أبيه، إذا ظن كلمة "الصغير" تنتقص من قدر ابنه، هو الآخر سيد هذا القصر بمن فيه من عمال وعبيد وهنود. أدرك أنيل خطأه، فاستدرك وهو يشير إلى مستوى طول قامة الصبي ابن السيد:

- كنت أسلّي سيدي، وكان فرحا باللعب.

أراد أنيل أن يقول للسيد إنه رآه، مرة واحدة على الأقل. وكان قد لمح

t.me/qurssan

السيد بطرف عينه، فغض البصر؛ فلا يجوز أن يرفع قامته، ويمدّ بصره إلى السطح. لو تلاقت الأعين فهي المرة الأخيرة. هل كانت المرة التي لمحه فيها يلهو بالأخشاب والغراء من الشرفة، أم من نافذة السيارة؟ يتذكر أنه ترك ما في يديه، وقفز إلى البوابة لاستقبال السيد غير المبالي خلف الزجاج القاتم، وأمر السائق بالتوقف، من المؤكد أنه أمره؛ فلا يتوقف السائق بين بوابة القصر والباب الداخلي إلا بأمر واضح، وإن يسمعه أنيل. استعرض السيد بعينيه أرجاء الحديقة، ورأى ألواحا مرصوصة، وبعضها يرتكن مائلا، ولم يقل شيئا. وفي مساء ذلك اليوم تلقى سخرية عابرة من ضيف، سيد آخر لا يعرف أنيل اسمه، لم يكن الضيف قد أكمل كأسه الأخيرة، وكادت تسقط من يده، وتلقاها أنيل، وأحنى رأسه احتراما، ولم يشكره الضيف على حسن التصرف وسرعته. ثم هزّ رأسه المثقل بالشراب، وقال للسيد:

- أريد الاسترحاء هنا، والبقاء حتى يكتمل هذا القارب؛ فأرجع به إلى قصري.

وانفجر ضاحكا. وكظم السيد غيظه، وعانده الابتسام. ولولا ما للضيف من حق، لأعلن انتهاء الحفل، وصرفه مباشرة؛ فلا يليق إلا الطرد بضيف لا يراعي إلقاء طرفة أمام خدم يسمعون تذكيره للسيد بجده صائد اللؤلؤ، وأنه كان يحتكم في قارب متواضع مثل هذا الذي لا يزال مشروع قارب، وقد ورثه الأب، ثم تخلص منه. ضرب الضيف كفّا بأخرى:

t.me/qurssan

- لو احتفظ به أبوك، لجعلناه نواة متحف لأدوات الصيد، لكنه فرط في ثروته، وليته دفنه في حديقة القصر ليعثر عليه أحفاد الأحفاد فحما أو أثرا يقدّره الخواجات.

أشار السيد إشارة يفهمها الخدم، وسحب الضيف إلى الحمام فغسل وجهه، وكانت القهوة قد أعدت على عجل، ونصح الضيف بتناولها حتى يفيق، ويكف عن استخفاف في غير مكانه ولا وقته. مرت اللحظات بطيئة، والسيد يستعجل انصراف صاحبه، لكي ينتقم من أنيل، ومن أبيه الذي يحذره دائما أن يغضب أسياد البلد، وأولهم سيد القصر، وقد حدثه عن صديقه البنغالي "مونيرول" الذي اختفى منذ سنين، وكان صغيرا، أحمق لا يعرف مقام السادة، وعبث بسيارة بابها مفتوح فأعطبه، وبدلا من تلقي لوم أو سباب، امتدت يدٌ تداعب شعره الناعم، ويقترب صاحبها من الصبي "مونيرول". كان وحده، والجسد السمين يلتصق به فيشعر الصبي بدفئه ولهاثه، ولا يستريح لذلك ولا يبدي نفورا، ولا يضيق بأصابع يدٍ سمينة تعبث بشعر رأسه، ثم تهبط كثيرا بثقل يزيد على درجة التلامس إلى التحسس والمداعبة، وليس للصبي خبرة تحمله على سلوك محدد، فيندهش ولا يتبرم، ويطمع صاحب اليد التي انسحبت، واخلت مكانها لما خيل للصبي أنه فوق الاحتمال، والرعشة تمتد من اليدين إلى وتد صغير ينمو ويتصلب ويقسو، والوجه يتعرق. هنا لم يتردد الصبي في أن يدفع الرجل، ويسقطه. كسا وجهه التراب، هو نفسه التراب الذي ووري فيه الصبي "مونيرول"،

t.me/qurssan

ثم اختفى أبوه، ولم تُجدِ توسلات رفاقه البنغاليين لدى الخواجات عبدة الصليب، حين كانوا يحتلون هذه البلاد. أنصت الخواجات إلى الشكوى باهتمام ظاهر، ومنحوا الوعود بالتحقيق، ولم يشاءوا أن يغضبوا سيدا في العشيرة، ليصير الصبي "مونيرول" وأبوه طيفا في خيال ماني.

لا يزول الطيف ولا يشيخ، وقد هرم ماني وكبر ابنه أنيل، ويكاد يودي بنفسه إلى ذلك المصير، ولكنه سيموت سدى، أما مونيرول وأبوه فذهبا فداء لغيرهم ممن وعوا الدرس، فأحنوا الرؤوس، وتفادوا أن ينظروا إلى الأمام إلا خطوة واحدة تعصمهم من السقوط، نظرة محسوبة لا ترى ما لا تصح رؤيته. فكيف يأتي صبي آخر، بعد سنين لا يعرف لها ماني عددا، ويغيّر معالم الحديقة، ويصنع قاربا يجعل من سيده أضحوكة؟ ولم تقتصر السخرية عليه، بل امتدت إلى جده صائد اللؤلؤ، صاحب القارب، وإلى أبيه الذي ضيع الثروة الخشبية. كل هذا بسبب قارب لعين دعا الضيف إلى تذكيره بتاريخ لا يود أن يتذكره، ويرفض أن يستعرضه أمامه صديق مخمور، ولو من باب الفكاهة.

- لولا أن لي مع أبيك عشرة خمسين سنة، لكان القارب قبرا لكما. أبوك بريء، أعرف أنه لا ذنب له. كان هناك، غاب عن القصر وأنت مشغول بسخف أغرى سخيفا باستخفاف دمه وقول أشياء سخيفة. أنت السبب.

رد الشاب بمذلة:

t.me/qurssan

- حالا يا سيدي، لو أردت أن أحرقه فيتفحم، أو أفكّ ألواحه وأحملها إلى الصحراء، أدفنها وأتخلص منها هناك، أو أشعل فيها النار.

- أبوك ماني. هل تعرف معنى "ماني"؟

- أعرف يا سيدي أنه أبي، هذا معنى الاسم الذي هو أبي.

- "ماني" كما عرفت من زمن يعني الجوهرة. أما أنت فهندي مزيّف، لم تعش في بلادك، ولا تعرف عنها أي شيء. ولدت هنا، وهنا دللك أبوك، فنشأت طريّا، ولولا العشرة مع أبيك لاستحققت القتل.

لم ينتظر السيد اعتذارا، وأشار إلى البوابة البعيدة، الخلفية:

- من هناك تعرف الطريق، اخرج ولا تريني وجهك. خذ قاربك إلى الجحيم وتسوّل لك أي سيد يكفلك. وأبوك باق هنا، سنه أكبر من البحث عن سيد آخر، وهو مسؤول عنك، وإذا بلغني أنك ارتكبت خطأ، فستراني مرة أخرى، وأخيرة. الآن ودّع أباك، فلن تقابله بعد اليوم.

t.me/qurssan

2

ليس لأنيل في هذه البلاد صديق إلا رجل من التبت، اسمه "تسو". ينحدر من هضبة لم يرها، ولكنه لا يتعلق إلا ببلده، ولا يبدأ كلاما مع أنيل أو ينهيه إلا بالتأكيد على اقتراب العودة إلى التبت، أرض الميعاد، ولا يشير إليها باعتبارها دولة، وإنما "الأرض المقدسة"، الهضبة التي حملها الإله ورفعها سقفا للعالم، وجعل "لاسا" مدينة مقدسة تحرم على الغرباء، ولا يسمح لغير المواطنين بدخولها.

هنا يقيم "تسو"، ولا يتذكر منذ متى؟ لم ينس أن الحظ الحسن قاده إلى أناس طيبين، أورثوا أولادهم السماحة، ونسى آخر مرة ناداه أحد أبنائهم "يا ولد"، فنهره أبوه. وبعدها أسندت إليه مهام الإشراف على الخدم

t.me/qurssan

والعمال في البيت، وصار أقرب إلى حارس أمين على الممتلكات.

يأسى "تسو" على أنه ليس رجل دين، فاته ذلك، فلا يكف عن التعويض بالقراءة والتفكّر والتأمل، وبمضيّ السنين تخفف من أعباء العمل، ولا تغادره أحلام العودة إلى التبت، ومعها حلم روحيّ برسمه "لاما". ويظن الزمن التبتي توقف منذ يوم الغزو والتهجير، ومن هذه الزاوية فلم تتقدم به السن، ويحرص على إعداد نفسه للمنصب الروحي في هذا العمر المتأخر. ويعتز بتزامن مولده مع يوم مغادرة الدالاي لاما لبلده، وإكراهه على اللجوء إلى الهند، هربا من الاحتلال الصيني. وسرعان ما ينقلب الاعتزاز إلى ذكرى شؤم تحمّل نفسه عبء نحس ليس مسؤولا عنه.

لا يعرف تسو عن بلاده إلا ما سمعه عنها، ما ظل أبوه ينقشه في ذاكرته، وهو ينمو في الهند بين قرناء من التبت والهند معا. ودائما يحكي تسو لأنيل تفاصيل ويحدثه عن معالم في الهند يعجب لها الشاب، ويتساءل كيف لأبيه لا يخبره بشأنها، فيفرح تسو ويزهو بأن له أهمية في إثارة فضول شاب هندي، ولم يحدث أن تخطى هذا الزهو بالمعرفة حدود ابتسامة عاقلة، وفي مرات نادرة يتحول إلى ضحكة من القلب، صافية لا تبالي بالكوابح والشعور بالذنب، وقادرة كذلك على إزالة آثار سنين لم يعشها، فيبدو أكبر من سنه، ولا يستجيب لجسور يمدها إليه أنيل، ليعبر فوقها إلى حياة لن تتكرر، فيغضب تسو مما يراه استهانة بعقيدته:

- يا أخي أنيل عيب عليك أن تنكر تكرار الحياة، لا تزال صغيرا،

t.me/qurssan

ويوما سأدعوك إلى زيارة بلادي بعد العودة، وسوف تعلم وترى حيواتي السابقة، نسخا تثبت لك أن هذه الروح، روحي، سبق لها أن حلّت في أجساد، وسوف تمضي بعدي في التجدد، حين أصير عجوزا وأهرم، ويبلى جسدي ويعجز عن حمل ثقل روح ورثتها، وسوف أورّثها.

لا يفهم الشاب كثيرا، فيهوّن تسو عليه الأمر:

- لا تزال صغيرا، حتى أبوك لا يؤمن بكثير مما أكلمه عنه. كلاكما لا يعرف عن الهند قدر ما أعرف وأحب.

- ولكني لا أحزن على عودة أبي إلى الهند. هو يحلم بمغادرة نهائية، ولعلي أموت هنا من دون الحاجة إلى لقاء أهل أبي هناك.

يطلق تسو زفرة أسى:

- ألم أقل إنك صغير؟ لك ولأبيك بلد تستطيعان العودة إليه في أي وقت، ولكنني إذا أردت فلن يكون إلا إلى الهند. أرضنا المقدسة محرّمة علينا، هناك تنين دمر الآلاف من الأديرة، وقتل مليونا من الأبرياء، سحقهم في الاجتياح، وقذف الناجين إلى المنافي، والعالم يعطينا ظهره، لأننا أمة محبة للسلام، تحرّم العنف، وتهتدي بوصايا منبع الحكمة الدالاي لاما.

يهزّ الشاب كتفيه إنكارا:

- هذا ليس عدلا، من حق أي كائن أن يدافع عن نفسه من دون تفكير، هذا حق الحياة.

t.me/qurssan

- هذا شرط الحياة يا بني، ولكن حارس عهد إلهنا المقدس يحرّم علينا القتال.

فيسأله الشاب:

- يحرّم القتال، ويحل قتلكم؟!

- اخرس يا ولد، منذ متى يناقش الآلهة؟

t.me/qurssan

3

يقف أنيل على رأس القارب، ينتظر القادمين. البعض لا تتعدى معرفته به بضعة أسابيع، علاقات ظنها عابرة، وسرعان ما عوض عمقها عن دروس لا يكف تسو عن إلقائها عليه، وأنيل ضائق الصدر بكل ما ومن له علاقة بالتعاليم والشرائع والتشريعات، وإن ضمن له القرب من تسو ألا يرحّل من بلاد لا ترعى حرمة لغريب، ولا تمد مظلة رحمتها إلى كل أهلها ممن لم يغادروها ولا يعرفون بلادا غيرها، إذ يمنع البعض من نيل جنسيتها، أو يحمل جنسية منقوصة. ورحمة الله شملت الفتى يوم ظن ألا ملجأ له إلا تسو، إذ ساعده في حمل القارب من البوابة الخلفية للقصر إلى المياه، تحت حماية تظللها الفكاهة من "نوّاف" الذي لا يعرف هل هو مواطن أم منقوص المواطنة؟ ويوشك أن يتزوج، ويؤجل الشروع في ذلك، تحسبا

t.me/qurssan

لمصائر أولاده، ويقول إن أباه لم يفكر في مصيره ومصائر إخوته حين شرع في إنجاب ذرية لا يتوقع حصولهم على حقوق تتساوى مع ما يناله أصدقاء أبيه من المواطنين.

أمّن "نواف" جرارا يقوده مصري، شق في الرمال خطا من القصر إلى المياه، وندم أنيل على نسيان توثيق هذا الطريق بزرعه بأشجار صحراوية، أو بوضع علامات إرشادية، وكانت الريح أسرع بالرمال إلى محو بصمات القارب على الرمال. ولم ينس أنيل ما اعتبره سخرية من صديق لنواف، عرض عليه شراء هذه "التحفة الخشبية"؛ لشحنها إلى أمريكا. ولم يجرؤ أنيل على انتقاد الساخر الذي لا يعرف من يكون، واستبدل بذلك صبّ الغضب على أمريكا:

- الله يلعن أمريكا، حتى القارب تستكثره علينا؟

رد الرجل:

- لكل شيء في أمريكا ثمن، سعر وقيمة:

وأكمل وهو يومئ برأسه إلى القارب:

- حتى المخلّفات!

كظم أنيل غيظه؛ فكل سلوك أو كلام في هذه البلاد محسوب، وبأقل وشاية يذهب إلى السجن، أو إلى المطار بلا عودة.

t.me/qurssan

قال نواف:

- أمريكا أمّ الدنيا.

تساءل أنيل:

- لو أن أمريكا أم الدنيا، إيش تكون مصر؟

ونظر إلى سائق الجرار المصري الذي لا يسمعهم، ويشغله تخليص القارب، وتحريره من الجرار بعد إنهاء المهمة. وكان صديق لنواف قد وصل، وتابع في صمت السجال الأمريكي المصري بين شاب هندي وآخر خليجي منقوص الهوية الرسمية. وانتبه نواف إلى حضور صديقه الذي سمع سؤال "إيش تكون مصر؟"، ثم هزّ كتفيه يدعو الصديق إلى الرد، فقال:

- مصر أم الدنيا قبل أن يكون للدنيا أب أو أم.

ابتسم أنيل لصديق نواف:

- الآن يتأكد لي أنك مصري، أعرفكم، تدّعون النسيان والتجاهل، وفي لحظة تفاجئون من أمامكم بأن الكهرباء لمست عصبا عاريا في كبريائكم. هكذا أعرف أصدقاء أبي، هم وغيرهم أيضا، يظنون الدنيا تبدأ بمصر ولا تنتهي إلا بها، إيش تكون مصر؟

صفق الصديق لبلاغة أنيل، وتمنى عليه لو صنع من الأخشاب مسرحا

t.me/qurssan

يؤدي عليه مشاهد مرتجلة، في عروض فردية، ولديه من الخبرة والمعرفة بالطبائع والثقافات المختلفة ما يسمح له بتقديم تنويعات درامية فكاهية.
وأجاب نواف:

- مصر أم الدنيا. "مصطفى" يداعبك يا أنيل، وهو لا يتنازل عن الإيمان بما يقول، مع أنه أمريكي حديث التأمرك.

علق مصطفى:

- محدث أمْركة؟ من كان يظن قبل ثلاثمئة سنة أن رعاة البقر سيقودون العالم، وتصبح بلادهم أرض الأحلام، الفاكهة المحرّمة، يلعنها الجميع ويشتهونها.

وانتبه إلى كلامه وسارع إلى التصويب:

- ليست بلادهم بالطبع إلا اعتمادا على شرعية الإنجيل والبارود.

تلهى تسو عن صمته:

- عشت في أمريكا يا سيد؟

أوضح نواف:

- سنوات قليلة أتاحت له الحصول على جنسيتها. وحين تمنحها فهي تتولى حماية مواطنيها، ولا تتخلى عمن يحملون جواز سفرها، حتى لو لم يبادلوها حبا بحب فهي تلتزم بمدّ مظلة الرعاية إليهم أينما يكونوا.

t.me/qurssan

ضحك مصطفى:

- تلتزم نحو المواطنين لا الرعية!

علق نواف بأسى:

- لا الرعية ولا "البدون".

وكان سائق الجرار قد ذهب بعيدا، فدعاهم مصطفى إلى غداء، احتفالا بنجاح عملية النقل، ووصول القارب سالما إلى المياه. وأحس بارتياح نحو انيل وتسو، ولم يقبلا الدعوة إلا بعد أن أومأ إليهما نواف أن مصطفى صديق. تأمله تسو وقال:

- لي هنا زمن، ولم أعرف يا سيدي أن لك صديقا أمريكيا.

فطمأنه مصطفى:

- ذهبت إلى أمريكا بعد أن جاءت أمريكا إليّ، سافرت ورجعت من دون أن تتغير بصمة إصبعي أو فصيلة دمي، ما زاد عليّ إلا "هذا".

وأخرج من جيبه جواز السفر.

تنهد نواف:

- ببساطة تقول "هذا"؟

- نعم يا نواف، "هذا" هو "هذا".

t.me/qurssan

- "هذا" الجواز تتحرك من أجله البوارج، وتشتعل الحروب.

هوّن مصطفى من الأمر:

- ليس إلى هذا الحد، أمريكا مهنة أكثر منها جنسية، هكذا قالت لي "لورا"، ونبهتني إلى أن الأمريكيين ليسوا جميعا أمريكيين، فيهم بشر مثلنا.

t.me/qurssan

4

يطمئن أنيل إلى أن ما في القارب من المياه يكفي السهرة، ويختبر المجذافين، ويثق أن مصطفى سيحرص على تأمين أطعمة خفيفة ونبيذ يفضله على ما سواه. يلمح طيف ابتسامة على وجه تسو، فيعرف أن مصطفى وصل إلى الشاطئ، يتأمل كعادته المخلوقات والخلق واليخوت الراسية والبعيدة، وهو يهزّ رأسه، ولا تتخلى يسراه عن حقيبته الصغيرة، وفي اليمنى عصا ماريشالية بيضاء تنتهي برأس أفعى.

من بطن القارب يراه أنيل عملاقا، إلها رأسه في السحاب، وقدماه ثابتتان في أول الممشى، ويحرمه الشفق من ظل ينطرح من الشاطئ إلى القارب، ويطول ممتدا إلى أن ينتهي في نقطة بعيدة في عمق الخليج. لو جاء

t.me/qurssan

مصطفى مع آخر ضوء للشمس، لاقترن ظله بالغناء، ويعرف تسو وأنيل من العربية كلمات تعينهما على التعامل السريع، وحين ينصتان إلى غناء مصطفى يشعران بأن في العربية جمالا غامضا. هل يلمح تسو أثرا لدمعة، أم أن الغبار أصاب عينيْ مصطفى، وهو ينهي في أول الممشى أغنية "كل ده كان ليه؟". وبوصوله إلى القارب، يحيي الشابين، ويواصل الغناء، ويعلو صوته بأغنية "مضناك"، ويقول إن "لورا" تحبها كثيرا وتحفظها، وتراها أفضل أغاني الغزل بكل اللغات، في كل العصور، وتستعيد أبيات:

بيني في الحب وبينك ما ... لا يقدر واشٍ يفسده
ما بال العاذل يفتح لي ... باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجنّ به ... فأقول وأوشك أعبده

وكانت تقترب من مصطفى، وتقول إن بعده عنها يصيبها بالجنون، وإنها لا تحب هذا الضعف، ولم تتخيل يوما أن تنزلق إليه، ويصير مصير قلبها مرهونا بمزاج شخص آخر وقلبه. ثم تسترد ثقتها بنفسها وتؤكد "أنا ضعيفة معك، ولكني قوية بك"، فيطمئنها مصطفى بأن ضعفها قوة، وفاء لمشاعرها في صدقها الجارح، ويرفع صوت محمد عبد الوهاب:

"مولاي وروحي في يده".

فتمدّ لورا يدها وتغلق الصوت، وتتعلق بمصطفى، وتهمس في أذنه عاتبة ومحذرة:

t.me/qurssan

- روحي في يدك، وحياتك ما تضيّعها، وإلا أنت حرّ في زعل عبد الوهاب.

وتعجب لنفسها أن يحملها شيء من دفع الملل عبر الإنترنت إلى هذا المصير، إلى مصر، إلى مصري صارحها في ما بعد بأنه كان يلهو، ولم يتوسم في أن يكون لحرفيْ "Hi" سحر يفتح له أبواب السماوات فيعبر الأطلسي بعد أن يفاجأ بردّها العربي بأربعة حروف "أهلا"، وتخبره لورا أنها أستاذة في قسم درسات الشرق الأوسط بجامعة ميشيجان، وأنها تجيد القراءة والتحدث بالعربية الفصحى. وفي المحادثة الأولى لم يجد شيئا يقوله، فاقترح عليها زيارة مصر، ولم تجد داعيا للسفر إلى أي بلد عربي. تذكّر مصطفى أنه محام، واستفز مهاراته في المجادلات، وكتب إليها:

- لا أدعوك إلى زيارة العالم العربي، وإنما قلت "مصر".

- وهل مصر إلا بلد عربي؟

سخر مصطفى في نفسه من باحثة تردد عليه محفوظاتها، وتكتب إليه كلاما فصيحا خارجا من القاموس، باردا فاقد الطزاجة. وبدلا من الإيضاح اثر أن يسألها:

- ذكّريني، هل أنت إنجليزية، وبلادك هي بريطانيا العظمى؟

- إنجليزية؟ لست إنجليزية، ولا أتصور أن ذاكرتك ضعيفة إلى هذه الدرجة. اصعد إلى أعلى في أول المحادثة، لكي تجد أنني درسْت وأقيم وأدرّس في ميشيجان.

t.me/qurssan

- عفوا، أنت أمريكية، وهذا لا يمنع أن تكون بلادك هي بريطانيا.

- أمرك غريب، هل تجعلني لغتي الأولى الأصلية الإنجليزية مواطنة إنجليزية، وتحول بلدي إلى تابع للجغرافيا البريطانية؟ تقول جادا أو ساخرا: بريطانيا العظمى، فما شأني ببريطانيا عظمى كانت أم صغرى؟!

- أنت أجبت، أغنيتني عن محاولة إقناعك بأن لغتي العربية لا تعني بالضرورة أنني مواطن عربي، وأن بلادي عربية، مصر مصرية.

- مصر مصرية، هذه بداية معقولة، وعليك البحث عن الجذور والروافد والتفاعلات، وكلها تنفي فكرة النقاء العرقي. أمريكا أمريكية، هذا إيجاز فلا أحد أمريكيا خالصا إلا البؤساء الذين حملوا صفة "الهنود الحمر"، وهم ليسوا هنودا أو حمرا، ولا أظنهم يسعدهم أن ننسبهم الآن إلى أمريكا كمواطنين كاملي الأهلية، فهم هنا قبل أن يكتشف الرجل الأبيض بلادهم، ويمارس جرائم الإبادة الجماعية، ويزوّر حقيقة تستند إلى مركزيته الأوروبية، ويستبيح الآخرين.

تفكّر مصطفى في كلامها، وكاد يأسف على مصادفة أوقعته في قاعة محاضرات افتراضية، تستعرض فيها أستاذة أمريكية مهاراتها في استعادة المعلومات، وتعرف متى تدافع عن رأي، ومتى تدعوه بذكاء إلى الشك في ما رسخ في يقينه. ثم تذكّر، مرة أخرى، أنه محام عاطل تقريبا، بإرادته وتعففه عن قبول قضايا يثق بأن أصحابها مدانون، ولا يرضيه أن يستخدم مهاراته في تبرئتهم، وينطلق في ذلك من قدرة الشيطان أحيانا على ابتداع حجج

t.me/qurssan

موق قدرات الملائكة على الإقناع، ولا يريد أن يكون محاميا للشيطان.
م يتحمس للدفاع عن أرملة كادت تسجن؛ لعجزها عن سداد أقساط
اجر موبيليا ساومها على جسدها، بإسقاط بقية الديون. وتولى مصطفى
دبير المبلغ كله، من دون انتظار حلول مواعيد سداد الأقساط، وتسلّم من
التاجر إيصالات الأمانة، ثم فاجأه حضورها، وكان على وشك الفراغ من
العداء في مكتب صغير ملحق بالبيت.

- الإيصالات على المكتب، تحت الكتاب، احرقيها أو احتفظي بها.

لا تعرف المرأة من هو شايلوك، ولم يكن مصطفى مستعدا للشرح، رغبة
ا الخروج، واللحاق بأصدقاء لمشاهدة مباراة في كرة القدم بالقهوة.

- الإيصالات عندك في أمان يا أستاذ، ربنا يقدرني وأسدد قيمة كل
سط أول كل شهر، وتسلمني إيصاله.

أكبر فيها كبرياءها. وللمرة الأولى تأملها، فإذا هي شابة، في مثل سنه
ربيا، ولكن هموم الديون المصاحبة لتجهيز ابنتها العروس أثقلت جسدها
ضعف سنها أو يزيد، ولا ينقصها إلا أن تضحك من قلبها؛ فيتهشم العمر
المضاف ظلما، وتتفرط الأيام والشهور تحت قدميها وتدوسها، وتضحك
من جديد فتصير أكثر نضارة. وتطلب الأمان قبل أن تقترح عليه أمرا.

لمصطفى علاقات عابرة، بعضها يترك في الروح بصمة، جرحا غائرا لا
يميل إلى علاجه بمشروع جرح جديد، ويفصل تماما بين عمله وسلوكه،

t.me/qurssan

فالمكتب في بيت الأسرة القريب من الأهرام، ملحق بالبيت، ولكنه يرفض مقابلة موكلين في البيت، ولو كانوا جيرانا أو أولي قربى، ما يتعلق بالشغل مكانه المكتب الذي هو جزء من البيت يتصل به وينفصل عنه. وهذه المرأة بالذات لم تعرف طريق المكتب، وكانت مع أمه في البيت، وألقى التحية ومضى، فنهضت أمه تحدّثه عن مشكلتها، وطمعها في إيجاد حل، وفاجأته بتوكيل رسمي يحمل اسمه، فغضب:

- توكيل باسمي يا أمّ؟ هل جاءت هنا قبل اليوم؟

- من يومين، ونصحتها بتجهيز التوكيل.

على بعد خطوات كانت المرأة تتابع النقاش، ولا تخطئ رؤية حنق يكسو وجه الابن الذي تلبسته شخصية المحامي، وترك أمه وذهب:

- أي كلام في الشغل مكانه المكتب.

ضاقت المرأة بتعنته، ورأت في صرامة سلوكه مع أمه قسوة لا لزوم لها، يستكثر حتى أن يمدّ يده ويتناول التوكيل، ويستكبر أن ينظر إليها. ولم تتفاءل به؛ فأي فرق بين محام يخلو قلبه من الرحمة بأرملة وتاجر لا يراعي حرمة اليتامى، ويريدها أن تفتدي نفسها من السجن بجسدها؟

استعجل مصطفى الخروج، وتردد في منحها الأمان؛ تحسبا لمفاجاة يكون الوفاء بها خارج رغبته أو أكبر من قدرته؛ على الاحتمال. أعادت الطلب، وفي عينيها انكسار، وبعض العمر الذي سقط يصعد من جديد،

t.me/qurssan

ويلتثم على وجهها، فقال:

- لك الأمان.

- نفسي أرقص، أرقص لك، أنا فرحانة والنبي ما تكسفني وما تخاف، ارقص بس.

- ترقصي؟!

- من أيام المرحوم ما رقصت، ولا حتى في فرح بنتي. فرحتي كبيرة لما عرفت أن ربنا نجاني من السجن بسببك، والنبي خلّيني أرقص.

- ترقصي!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

5

يخلو وصول نواف من درجة البهجة المصاحبة لحضور مصطفى، ولكن أ.ل وتسو يحبانه، ويشعران في وجوده بالأمان؛ فهو من أهل البلد، وهذا ؛اف لحمايتهما من مضايقات يخشيان حدوثها بعيدا عن قانون لا ينام.

يجذب نواف الغترة عن شعر سارح ناعم يغطي عنقه، ويتركه حرّا ٨٠ يضمه على هيئة ذيل حصان، ويحلو له هزّ رأسه فينفرط شعره ويغطي أذنيه. ويفاجئهم بطعام في لفافات محكمة تحتفظ بسخونتها، وزجاجات ..ا. ينصح مصطفى بألا يفرط في احتسائه، فيعترض:

لا يستحب أن يبيت النبيذ، أن يبقى منه شيء للصباح. من يفعل ..ا زاهد في نعمة الله؛ فالنبيذ بعد فتح الزجاجة حرام أن يُنبذ.

t.me/qurssan

ينظر تسو إلى خبز وجبن وزيتون في لفافة أتى بها مصطفى، ويشير إلى لفافات نواف:

- هذه نعمة الله.

يردد تسو "نعمة الله"، وينظر إلى النبيذ، وإلى لفافات نواف، ويكرر "نعمة الله". ثم يعيد النظر إلى زجاجة مصطفى ولفافة الخبز والجبن والزيتون، ويتساءل:

- أهذه نعمة الله؟ ربكم أكرم من هذا التقشف.

فيضحك مصطفى:

- لا يستويان عند الله.

ويهتز القارب من القهقهات، ويلومه نواف:

- مالك أنت بالله يا تسو؟ أنت كافر والحمد لله.

لا يُغضب الرجل وصفُه بالكفر، وإنما لانطواء لهجة الاتهام على ازدراء وخطأ. في لحظة مساس بالعصب العاري للعقيدة، أو الاستهانة والاستخفاف ببلاده وأهله، لا يراعي شيئا، ولا يبالي بأحد. تيار الغضب، حين يسري تلقائيا، يضيء مصباحا أو يشعل حريقا. ويسعفه لسانه:

- لو أن الأمر هو الكفر فنحن نتساوى، كلانا كافر بإله الآخر.

t.me/qurssan

يعجب نواف أن يتهمه أحد بالكفر، ليس كفرا بالله، وإنما الكفر في سموه كلمة لا يحتملها. ثم يفكر أن الكافر بالكفر هو المؤمن الحق:

- وسوف يقضي الله، يوم القيامة، في محكمة العدل بحكمه.

ولا يأبه تسو للقيامة ومحكمتها:

- إذا كنت لا أؤمن بإلهك، فهل أخاف قضاءه في يوم تسميه "القيامة"، أو أعمل حسابا لنار تقولون إن "وقودها الناس والحجارة"؟ كيف يتساوى اشتعال الناس، بأجسادهم الضعيفة، مع حجارة تنضجها النار؟

لأن عقولهم مثلك قُدّت من الصخر، فهي والحجارة سواء.

بصمت تسو، ويخلو وجهه من أي تعبير، ويُفقد حياده زهوا أراد نواف أن يجنيه من الانتصار المعنوي عليه، فيسأله وهو يشير إلى رأسه:

- جيد أن تقتنع بوجود صخرة هنا، حجارة لا عقل.

ينتهي مصطفى من كأسه الأولى، ويهمس إلى نواف:

- تسو لا يجادلك، ارحمه يا أخي، وتوقف عن هذا الانقضاض. هل يسوؤك أنه يتلقى ضرباتك ولا يشكو؟ تريده أن يعاند لتجد مسوّغا للمزيد من الإيذاء؟

يرد تسو:

t.me/qurssan

- كيف يرحمني إذا كان إلهه يتلذذ بتعذيب العصاة في نار يخلدون فيها؟ هل تؤمن يا سيد مصطفى بأن "الرحمن الرحيم" يقسو إلى هذا الحد؟

يفكر نواف في مفارقة يلقيها الرجل. ويقدّر مصطفى أنه صادق لا يستهدف التشكيك في عقيدة، أو النيل من دينه، ولا يريد لاسترخاء أحدثه النبيذ أن يزيله أي توتر، ويبتسم إلى تسو:

- منعت عنك نواف، وعليك أن ترحمني!

ويتبع:

- إلا إذا كان إلهك غير رحيم بالعباد.

- ومن غير إلهي رحيم بالعباد والعصاة؟ كل ذي روح يجرّم إيذاؤه.

ويلتقط فضلات سقطت من طير عابر لا يراه، ويقربها من وجهه، ثم يلقيها في الماء، ويقول إنها روح أتت من روح الطير، وتذهب إلى روح الأسماك في المياه، وإن كل ذي روح يستحق القداسة، ومن يدري أن تكون روحه قد اختمرت يوما في جسد طير أو حيوان.

- لا أستبعد أن تكون هذه الفضلات رسالة من بلادي، هي آثار طير تغذّى هناك على روح، وأتى ليلقيها هنا عليّ، فأطمئن إلى العودة قريبا إلى الأرض المقدسة التي يحرم فيها الصيد وإيذاء الأرواح.

يتذكر نواف أنه شاهد شيئا من ذلك في فيلم "سبع سنوات في التبت"،

t.me/qurssan

فيضيق صدر تسو بذكر عنوان الفيلم، ويراه من آثار الحرب النفسية بين أمريكا والصين، وحين تتصالحان وتتفق المصالح فلن تنتج أمريكا مثل هذا الفيلم، وقد تحجبه حتى عن البث الإكتروني، وتمحوه تماما من ذاكرتها، وتحتفظ به في الأرشيف فلا تتيحه إلا لباحث. ثم يصمت فجأة ويقول:

- هذا المنع أفضل من وجود فيلم يسخر منا، ويصورنا أدنى من الهنود الحمر.

- الهنود الحمر؟

ينطقها مصطفى مستنكرا، ويفكر أن العالم منذ نشأته يخلو من العدل، وأن الضحايا لا يستفيدون ولا ينفعهم ميراثهم من الظلم، ولا يتعظون. وإنما يتفننون في إيقاع الظلم بضحايا آخرين سيقوى عودهم يوما ويظلمون غيرهم، ولن تتوقف الدائرة. ثم يرفع إصبعه منبها:

- لو سمعتك "لورا" لغضبت مرتين، فأنت تهين من حملوا ظلما اسم "الهنود الحمر"، وتعتبرهم أقل شأنا. ثم إنها تحب هذا الفيلم، وتراه من أفضل أدوار براد بيت.

ويفاجئه:

- هل تعرف أن لورا، بعد أن شاهدت الفيلم، شرعت في الإعداد لزيارة التبت؟ ولا تزال تحلم بهذه الزيارة.

t.me/qurssan

ويضيف:

- كما رغبت أيضا في زيارة مكة.

- يمكن للسيدة أن تزور مكة أو عكا، أما الأرض المقدسة فلن ترحب بأمريكيين. أهلي لن يستطيعوا منعها، ولكنهم سيرفضون مقابلتها. كل أمريكي شريك في خذلان بلادي.

ينصت مصطفى، ويضع الكأس ويردد في نفسه: "مكة أو عكا؟"، هذا الرجل يسخر، هو ليس مجرد عامل مسكين، ولكنه باحث له قضية، يحمل بلاده حتى في هذا القارب، وسط أصدقاء يريدون قضاء سهرة استرخاء في حضور النبيذ. هذا مشروع ثائر، واسمه يليق باسم ثائر: "تسو".

يتأمله مرة أخرى، يراه هابطا من طائرة بصحبة قائدها إلى جموع تنتظره وتهتف باسمه، وتحمله على الأعناق، من المطار إلى القصر. لن يكون أقل شأنا من الخميني يوم عاد مصحوبا بحفاوة جوية فرنسية. ثم يتوقف عن التفكير منشغلا بسؤال عبثي:

- هل في التبت مطار أو قصر للرئاسة؟

ويتجنب توجيه السؤال إلى تسو، تفاديا لسماع محاضرة ليس هذا وقتها أو مكانها. ويبتسم إذ يطل عليه وجه لورا التي مثلت له تحديا يستفزه، ويدفعه إلى القراءة والبحث، وكان يكفي أن تلقي كلمة في محاوراتهما، قبل حضورها إلى مصر، فيسجل الكلمة في ورقة، لكي يبحث عنها في وقت

t.me/qurssan

لاحق، ولم يستفسر كثيرا عن أشياء، فينتقص السؤال والجهل بثقافته من جولته.

- تنقصكم الثقة، يدهشني استعلاء صادق هدايت بثقافته ولغته وتراثه، ولديكم ما هو أفضل وأكثر أهمية من "الشاهنامه".

كاد يقول لها إنه محام، وليس باحثا في تاريخ الآداب، ولا يعرف من يكون هذا الكاتب المسمى "هدايت". وقدّر من رسم الاسم أنه إيراني أو تركي. وقرأ بقية جملة لورا: "الشاهنامه" ومال إلى أنها فارسية، وأن هدايت إيراني، وأراد إنهاء المحادثة بإيضاح موجز:

- لا أحيط علما بآداب اللغة الإيرانية.

رسمت ضحكة على الشاشة، وأتبعتها بإيضاح أنه لا توجد لغة إيرانية، وإنما فارسية تُكتب بحروف عربية. وأنهى المحادثة؛ لشعوره بالحرج، إلى أن يقرأ شيئا يستطيع به الصمود أمام أمريكية تبدو أكثر منه وعيا بثقافته.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

6

لا يريد مصطفى لهذه الليلة أن تمرّ في صخب النقاش، ومرارات تطفح من لسان تسو في غير وقتها، ويخشى أن تصيب عدواها أنيل أيضا، وإن كان هذا الأخير لم يطرد من بلاده، ولم يحدثه أحد عن أي تنين فتح فمه وابتلع بلد مجاورا يقولون إنه سقف العالم، ويستطيع العودة متى شاء، ولكنه لا يعرف في الهند أحدا، إلا أسماء بضعة أفراد من العائلة، ولا شيء يشدّه إلى الهند أكثر من مشاهد ترقص فيها بهجة الألوان في أفلام هندية يحرص على مشاهدتها، ولا تتوقف هنا عروضها لجمهور هندي يزيد عدده على أبناء البلد.

يلقي مصطفى أمامه كلمة، ليختبر مدى وعيه بها:

t.me/qurssan

- في مصر نعرف الهند بأنها بلاد العجائب، ونبهتني لورا إلى أن "كاما سوترا" من أجمل هدايا الهند إلى العالم.

ينشرح صدر أنيل لكون الهند بلاد العجائب، ويبدو غير مهتم بالكاما سوترا، ولا يعي ماذا تكون. ويسأل مصطفى:

- ولكن عجائب الدنيا، كما يقولون، تبدأ بالأهرام.

ذكر الأهرام يضع نواف داخل رحلته إلى مصر. أوقعه حظه في امرأة شقراء في عمق الهرم الأكبر، كانت تسبقه بخطوات في الممر المفضي إلى غرفة الملك. لمست بيدها التابوت الحجري، وهي تلهث، وكان نواف يستريح من رحلة الصعود إلى هذه الأعجوبة. وحول التابوت دار بضعة أفراد. وأعجبته المرأة، وأحب أن يختبر لغته الإنجليزية بالتحدث إليها، آملا ألا تكون الإنجليزية لغتها الأولى، بانتمائها إلى بريطانيا أو بلاد خضعت ذات يوم للتاج البريطاني.

- لو أن الملك في تابوته الآن لأقلقه هؤلاء. كل يسأل الآخر: كيف نُحتت غرفة الدفن في عمق الهرم؟ وكيف وصل التابوت إلى هنا والممر لا يتسع إلا لشخص واحد يمشي منحنيا؟

أربكتها مفاجأة اقتحامه لها، فلم يبدأ بإلقاء التحية، وليس بينهما معرفة سابقة، فكيف يظن نفسه فكها ويتطوع بنقل ما يقوله زائرو الغرفة من دون أن توجه إليه سؤالا؟ ولعلها لم تنتبه إلى أنه كان خلفها في الممر.

t.me/qurssan

، فهم أنها سائحة مشغولة بالحضارات القديمة وآثارها، وكان آخرون قد ملغوا الغرفة التي ضاقت بالصخب، وتوقفت المرأة عن الكلام، وبدا له أنها تترنح فحاول أن يسندها، فرفعت يدها بإشارة سريعة إلى أنها بخير. مالت كفها المرفوعة، المانعة، دون أن يلمس كتفها، وشكرته وقالت وهي تهم بالنزول:

- بعض الألغاز تحلها أحيانا مصادفات، والخيال الجامح كثيرا ما يقود العلم، ويلهم العلماء.

استراح لتواصُل الحوار، وهي لمحت ذلك في عينيه، وقالت:

- أعتقد أنني يجب أن أغادر.

تبعها في الهبوط. لم ينس كفها المرفوعة في غرفة الملك، فلم يلحّ بكلام أو يضغط بسؤال؛ لإجبارها على إجابة ما، وهما يقتربان من قهوة خارج حرم الأهرام، وتطل على وجه "أبو الهول". وكان في القهوة بضعة سياح، بقي ملامحهم بالانتماء إلى دول مختلفة، وليس بينهم سائح وحيد مثل هذه المرأة التي قبلت صحبة نواف الوحيد مثلها. وظل ضوء آخر النهار يلقي إلى المكان بآخرين، يهبطون من هضبة الأهرام، ولا يبالون بمباراة لكرة القدم ينتبه إليها القهوجي وحده، بلمحات ذكية خاطفة كلما انتهى من تلبية طلب لضيف.

طلب نواف مشروبا دافئا، وألح على المرأة حتى قبلت الدعوة على

t.me/qurssan

زجاجة ماء. وأمام إصراره على أن الماء ليس من قائمة الضيافة، ابتسمت وطلبت قهوة. وأبلغ القهوجي، ففاجأته امرأة كانت وحيدة أيضا، ولم يكن قد لمحها، وتكاد ملامحها تختفي تحت قبعة كبيرة ونظارة سوداء. اقتربت واستأذنت في الانضمام إليهما، فأومأ نواف إلى الشقراء التي ابتسمت من جديد، وهذا أسعده. وقالت بحياد:

- ولم لا؟

أفهمته المرأة أنها التقطت لهجته وهو يكلم القهوجي، وفرحت بوجود خليجي مثلها، وأتى الرجل بمشروبها من طاولتها إلى الطاولة الجديدة. ثم اعتذرت إلى المرأة الأجنبية أن الكلام مع نواف شغلها عن الترحيب بصديقته، وخلا وجه نواف من أي تعبير، ونفى أنها صديقته، فمعرفته بها لا تزيد على ساعة، من غرفة الملك خوفو إلى القهوة، ولا يعرف اسمها أو جنسيتها.

يضع نواف الكأس على حافة القارب، ويقول إن المرأة بدأت تحية الأجنبية بحرفيْ "Hi"، ويبتسم مصطفى ويعجب لحرفين شقّا له طريقا في السحاب والمحيط إلى الضفة الأخرى، ويقول إن لورا تمنت أن تعبر الضفة الأخرى للخليج، إلى الشرق الإيراني الذي جذب أعلامه من المتصوفة كارين أرمسترونج إلى إعادة النظر في مسلّمات غربية، وشرعت في البحث في التاريخ الإسلامي، ونشرت كتابها "محمد.. نبي لزماننا"، وإن ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ظلت مشروعا يشغل لورا، وتصرفها

t.me/qurssan

عنه مشاريع طارئة أقل أهمية، ثم تعود إليه، ولا تلبث أن تنشغل عن الترجمة.

لم يأبه مصطفى للصفة التي أتبعتها لورا للخليج، ولا يتذكر هل قالت "الخليج" وكفى؟ أو ألحقت به صفة مسّت عصبا عاريا لدى نواف والمرأة العربية حين قالت الشقراء الأجنبية:

- جيد أن يلتقي أهل الخليج الفارسي مصادفة، في قهوة في رحاب الأهرام.

لزم نواف الصمت في غضب عجزت أن تكظمه المرأة:

- لا نعرف مكانا اسمه "الخليج الفارسي"، لعلك تقصدين "الخليج العربي؟".

- مجلة ناشيونال جيوجرافيك دائما تكتب "الخليج الفارسي"، ولا أتابع مصادر عربية باللغة الإنجليزية لأعرف اسمه لديكم.

- اسمه الخليج العربي.

هزت الشقراء كتفيها عجبا لدهشة امرأة كادت تدفع كوب الماء، لولا إسراع نواف إلى الإمساك به:

- ليكن "الخليج العربي"، هل هذا يرضيك؟

هدأت قليلا، وعينا نواف تتراقص بينهما:

t.me/qurssan

- ليست القضية ما يرضيني، وإنما نرفض تزوير الحقائق.

هزت كتفيها، بالطريقة السابقة نفسها، وقالت بهدوء:

- نحن من يصنع الحقائق، ونلحّ عليها فنصدقها ونقنع بها الآخرين. الحقيقة أنه لا توجد حقيقة.

أشارت إلى التلفزيون:

- هذه الشاشة تسحر الناس، يستخدمها في تزييف الوقائع من يملك مهارات التأثير، فيمحو حقائق ويثبت أساطير.

دعتهما إلى الخروج من القهوة، وسبقتهما بخطوات إلى الرصيف. مدّت عنقها ولم ترَ الهرم، وانتبه مصطفى إلى أن عنقها طويل ودقيق يتناسق مع جسدها القادر على القفز من القهوة إلى الرصيف إلى نهر الشارع حيث تقف، وهو والمرأة كلاهما ينظر إلى الآخر، ويتساءل عما تفعل هذه الشقراء أو تريد؟ أشارت بيدها فاقتربا منها، ونظرا معها إلى الأهرام الشاحبة، والشمس تكاد تضيئها في النور الشحيح.

- بعد ساعة يحل الظلام، ومن هنا لن نرى الأهرام؛ لخطأ في المسافة بيننا وبينها أو في كمية الضوء اللازم للرؤية، ولكن الأهرام في الحقيقة موجودة. ويستطيع مهرّج أن يخفيها بألعاب الجرافيك، وهذا لا يختلف عن أفلام أمريكية ودراسات أمريكية وغير أمريكية تدّعي إجبار اليهود على العمل بالسخرة في تشييد الأهرام.

t.me/qurssan

أنصتا إليها، مجاملة بإعجاب من تبلغه معلومة عن قضية لا تشغله، كما لا يشغل الشقراء أن يكون الخليج فارسيا أو عربيا. ثم سألتهما:

- أنتما مسلمان؟

من دون اتفاق، ردا معا:

- الحمد لله.

- آسفة على السؤال، طرحه على أي أحد في بلادي سؤال لا يليق، والبعض يرقى به إلى درجة الجريمة.

ابتسمت العربية، للمرة الأولى، وسألتها:

- وفي مصر تتشجعين على السؤال عن ديننا، ولن يردعك هنا قانون!

ردت جادة:

- قدّمتُ اعتذارا استباقيا، وأردتُ بالسؤال أن أصل إلى أن بناء الأهرام سابق على نصوص الأديان كلها، منذ جدّنا إبراهيم.

نظرت المرأة إلى نواف، وفغرت فمها، فلمح جمال أسنانها وبياضها، وهي تسأل في اندهاش:

- جدنا؟ أنا كإماراتية من حقي الآن أن أسالك عن دينك.

ولكنها لمحت الصليب يتدلى على صدر الشقراء، بعد أن تتبعت سلسلة

t.me/qurssan

تزين العنق إلى مستقره الآمن أعلى النهدين. هزّت المرأة العربية رأسها بارتياح، ورسمت الصليب بسبابتيها دليلا على عدم الحاجة إلى إجابة؛ فالصليب وحده دال على دين صاحبته. وسألتها الشقراء:

- من أين؟

- قلت قبل ثوان إنني إماراتية.

- نعم سمعت، وأسألك عن جنسيتك.

تجاهلتها المرأة، واستفسرت من نواف عن الذكاء المتواضع لصديقته التي فضلت العودة إلى الطاولة، واستمعت إلى الإجابة مرة أخرى:

- أنا إماراتية، من دولة الإمارات العربية المتحدة، في الجزيرة العربية. بلدي يطل على الخليج، وأنت بالطبع تعرفين أنه الخليج العربي.

- أنا من الولايات المتحدة، ولست ولاياتية. أنتمي إلى الولايات المتحدة، ولكني أمريكية الجنسية.

لم تشعر المرأة العربية بالحاجة إلى الهمس، لكي تقول لنواف بالعربية، وهي لا تعرف ما إذا كانت الشقراء تفهمها أم لا:

- صاحبتك مجنونة أو بلهاء.

كاد نواف يقول: ليتها صاحبتي، وليذهب العقل والجنون والولايات المتحدة إلى الجحيم. ولم يجرؤ حتى في سرّه على أن يمتد هذا الجحيم إلى

t.me/qurssan

بلد عربي يطل على خليج لا يمنحه جنسية كاملة. ولم تهتم الشقراء بما قالته المرأة لنواف، وأحسا أنها تفهم العربية الفصحى قليلا، واستوعبت من انفعال المرأة العربية وإيجازها "مجنونة أو بلهاء"، وأوضحت:

- لست بلهاء، أنا الآن أمريكية في ظل الولايات المتحدة، وأجدادي أمريكيون قبل قيام هذا الكيان السياسي المسمى الولايات المتحدة. أنا وأولادي وأحفادي سنظل أمريكيين حتى لو تفككت الولايات إلى عشر دول، أو إلى 52 دولة.

ابتلعت الشقراء ريقها، وظل نواف يحدّق بعنقها، بتأنٍ وهو يحيط وجهه بيديه، ويستند بمرفقيه إلى الطاولة. همّ بأن يعطيها كوب الماء القريب من يدها، وخشي سوء الفهم، وهي أوضحت:

- لم أسمع أحدا في بلادي يقول إنه "ولاياتي".

أوشكت المرأة أن تعي مغزى خطاب الشقراء، ورجحت أن هذه الأمريكية تدبر لها فخّا، فلاذت بالصمت، والأخرى تستطرد بضرب أمثلة على وصف طغيان التأثير الأمريكي في العالم بأنه "أمركة"، وتوجّه مصر في عهد جمال عبد الناصر بأنه "تمصير"، وفي مستعمرات فرنسا لا تزال آثار "الفرنسة"، وفي الشام بقايا "التتريك". وتساءلت:

- هل يمكن أن نقول "الأمْرتة"؟

كان السؤال جادا، ولم تنتظر عنه إجابة، ولمست يد العربية المسترخية

t.me/qurssan

على الطاولة، وقالت:

- لهذا سألتك عن جنسيتك، قبل تأسيس دولة "الإمارات"، وبعد...

فرفعت المرأة يدها، ومدّت أصابعها إلى شفتيْ الأمريكية، ومنعتها أن تكمل، فتراجعت الشقراء، وتفادت لمس الأصابع، وهي تسمع بالإنجليزية من المرأة العربية كلاما موجها إلى نواف:

- أنت ما تصدقني؟ قلت لك: "صاحبتك مجنونة".

t.me/qurssan

7

تختفي الشمس. ويخبو الضوء، ويضحك نواف، ويأسى على فرصة وصال ضائعة، ويلعن امرأة مجهولة هبطت عليها، وعكّرت مزاجه، وأفسدت عليه مشروع صحبة. ينصحه مصطفى بمواصلة السفر إلى أي مكان، لا يهم. ففي السفر فوائد لا تحصى، وهو وحده القادر على تهذيب النفوس. ويوجه الشكر إلى تسو الذي فسر له، قبل بضعة أيام، ما غمض من علاقة غريبة كانت تربط أمه بالأهرام.

لاحظ أبوه اختفاء أمه في بعض الأيام، مع الشروق، ولم يعهد عليها سابق معرفة بأحد خارج حدود القرية. في ذلك الوقت كانوا يرون الأهرام من نافذة البيت، ولا يحول بينهم وبينها ساتر، ويمتد الخلاء من هضبة

t.me/qurssan

الأهرام إلى القرية. ثم ارتفعت بنايات حجبت رؤية الأهرام إلا من فوق السطح، وتوالى البناء حتى اتصلت القرية بالمدينة، بشارع الأهرام نفسه، ورافق ذلك اختفاءات مريبة بدأت بخلوّ مكان الأم في السرير، والأب يتحسسه ذات صباح فيجده باردا.

سجل الأب في رأسه مواعيد الاختفاءات، في ارتباطها باكتمال القمر أو ميلاده، وكلها مقترن بالشروق. وبتكرار المواعيد، استطاع تحديد الوقت الذي يمكّنه من ضبطها والتخلص منها عن بينة؛ فلا يستطيع أن يتهمها من دون دليل، وتمنعه كبرياؤه أن يسألها فيكون للسؤال طابع الغيرة وقلة الثقة بالنفس، وربما زوال الثقة بينهما أيضا.

أيقظ مصطفى ولم يقل له شيئا، والصبي متأفف ولا يجرؤ على الاعتراض، ولا يعرف أي مكان يقصدان. ليس هذا موعد الشغل في الغيط القريب، أو الذهاب إلى أي مكان. ومع الشروق قبض على يد ابنه، بانفعال أوجع أصابع مصطفى غير القادر على الشكوى أو تحرير يده، كما يجبن عن سؤال أبيه إلى أين يذهبان؟

لم ينظر الصبي إلى الطريق، ولا كان راغبا في رؤية شيء أو أحد. وكانت الأهرام تدنو، ظهرت أولا قمة الهرم الكبير، وبالاقتراب انزاح الأفق عما دون القمة، والأم فوق صخرة تقعد القرفصاء، وذراعاها تحيطان بركبتيها، وعلى الذراعين المتشابكتين تسند ذقنها، وبصرها شاخص إلى الأهرام، والخلاء صامت إلا من عصافير أيقظها الصبح. وهما على مقربة من الأم

t.me/qurssan

..ظران وينتظران، وهي لا تتململ، وجسدها ثابت في هيئته، ولا يتاح لأي منهما أن يراها من الأمام، ليعرف هل تغمض عينيها، أم تحدّق ورأسها ..اسخ يتعامد على الذراعين؟ ثم اقتربا، وانحنى أبوه، وربّت على رأسها، ..لمسات حانية، ونفسه يدفئ شعرها تحت الطرحة السوداء. وهبطت يداه إلى كتفيها فارتخت ذراعاها، وهبط أكثر فالتقط كفيها، وبإشارة من عينيه نهضت معه. وعاد الثلاثة في صمت إلى البيت.

يعلق تسو وهو ينصت إلى الواقعة:

- لأمك نسخة سابقة مرتبطة بهذا المكان، لها هناك ذكرى لم تكتمل، ولا ..سعفها روحها الآن باستعادتها، لكنه الحنين الغامض. تحتاج إلى تدريب ..وحي لكي تتواصل مع فجر الروح، مع طفولة لم تنضج أو تكتمل.

يقدّر مصطفى أن أمه ربما كانت زوجة لأحد بناة الأهرام، من العاملين أو صغار الموظفين، أو أمّا لشاب بلغها خبر موته بعد أيام من غيابه عنها، وتسعى الآن إلى التماس روحه، لعله يبعث وتعثر عليه، فتروي عطشها إليه وتطمئن روحها ولا تحزن.

يشعر مصطفى بالأسى، ويعجز عن الابتسام، وهو يتأمل تسو:

- الله يلعنك يا تسو، أشقيتنا بعقيدتك.

- عقيدتي؟ جيد أن تعترف بعقيدتي، وإلى وقت قريب كان البعض يرانا بلهاء. فكرة البعض عنا أننا بدائيون نؤمن بأن في صدر كل إنسان

t.me/qurssan

قلبين أحدهما يدله على الخير والثاني يزيّن له الشر، وكان في بلادي مهرة في الطب والتشريح.

يسأله نواف:

- صلِّ على النبي، أي طب وأي تشريح؟

ويكمل ساخرا:

- إلا إذا كنت تقصد تشريح الميت إلى شرائح تطعمونها الطير. كم أنتم قساة القلوب، ليت لكل منكم قلبين؛ فيكون أحدهما أكثر رحمة من الآخر!

يردّ تسو بثقة:

- لا نذبح حيوانا، ولا نقتله ولو جارحا. كل الأرواح مقدسة، وما نأكله من لحوم لحيوانات تعثرت ودقّت أعناقها في الصخور، طبيعة بلادي صخرية يصعب فيها حفر قبر لميت، ولهذا نكرم الموتى بإطعامهم للطيور.

- يقطع الرجل أباه أو ابنه، ويلقمه للطير؟ أي آدمية في هذا السلوك؟ حتى الضواري لا تفعل هذا!

يحزن تسو على ما يشعر به نواف ومصطفى من ألم. يغمض عينيه فيرى أباه "تيشي" هناك، بالقرب من لاسا، لا يبكي على جدّه الذي أدركه الموت. يؤمن "تيشي" بأن روح أبيه قادمة منذ الأزل، ترتدي أجسادا ثم تفارقها،

t.me/qurssan

حين يعجز القميص عن احتواء فتوّة الروح، فتبحث عن رداء جديد يحتمل عنفوانها. وروح الأب فارقت بسلام، غادرت جسده الذي ما كان إلا صدَفة انتسبت مؤقتا حرمة الروح الخالدة، وآن التعامل مع هذه الصدَفة بحياد. لم يكن تسو قد ولد لما وقف أبوه "تيشي" أمام جسد جده، لم يبك عليه، وذهبوا به إلى حيث تقطع الجثث، لا صراخ ولا حزن على المتوفى؛ فروحه خالدة، صعدت وستجد مستقرا في حياة أخرى. ربما تراقب ما يجري للجسد الآن، في ساحة الجثث المحاطة بالصخور والمظللة بالطيور الجارحة، وعلى أطراف الصخور المدببة تنتظر طيور أخرى، وتنظر إلى جثة الجد الموضوعة على مصطبة حجرية، وقد نزعوا عنه ثوبه، وأحكم المسؤول الكبير قبضته على سكين، وبها شق الجثة طوليا، وأحدث شقوقا عرضية. وتولى مساعدوه تقطيع الأطراف، وفصل الرأس وتقسيم الجسد إلى شرائح، والطيور تتابع في صمت مشاهد تعودت عليها، وتترقب الانتهاء ليبدأ دورها في التهام الوليمة. ينتهي القصاب من نزع القلب، فيضرب كبير الطيور بجناحيه، ويهبط وحده من أعلى الصخرة، بثقة واطمئنان، لا ينقض بل يخطو من دون إبطاء أو هرولة، ويتسلم القلب من يد الرجل، إيذانا بافتتاح المائدة. وتنظر الطيور ولا يجرؤ أي منها على الاقتراب؛ التزاما بنظام تراتبي صارم، فالقلب للزعيم، ويليه نائب يتسلم الكبد ويعلو به إلى الصخرة، وينهشه في هدوء، ويليهما قادة صغار يتقاسمون الكلى والأمعاء، ثم ينزل القطيع لتناول جسد رجل يستقر في حواصل الطير، في قسمة متعارف عليها، ولا يجري بشأنها نزاع، ولو أحس طائر بالجوع، لعدم كفاية نصيبه، لعاد

t.me/qurssan

ونقر العين، أو بحث عن بقايا اللحم. ولا يبقى إلا العظام التي تقطع إلى أحجام وشرائح صغيرة، تُحشى بها ثقوب مصطبة التشريح، وتدقّ بالمطارق حتى تنحشر في الفراغات، ومن نثار العظام يتطاير مسحوق يحلو للطير أن تطعمه، تلتقطه بالْتذاذ كأنها تتنشقه.

لا يبالي أنيل، ويحبس نواف ومصطفى الأنفاس، عجبا لأمر هؤلاء الذين ينزعون قلوب آبائهم ويهدونها إلى طير مدرب على تلقي هذه العطايا. يطلق نواف تنهيدة عميقة، ويلعن تسو وأباه تيشي ومعهما الجد الذي مارس هذه الوحشية مع أسلافه.

- حرق الجثث عند أهل أنيل أكثر إكراما للميت، ورحمة به وبأهله من مجزرة غير آدمية يطول زمن طقوسها.

- سمعت الرواية من أبي وعجبت، فنصحني بالرد على من يستنكر هذا بأن حرمة الأحياء، من المغلوبين على أمرهم العاجزين عن نيل حقهم في العودة، أكثر أهمية وقداسة مما يسمى "حرمة الموتى".

- فلتحرقوا جثثكم بجاز.

- أي جاز يا سيد نواف! لعلك لم تسمعني وتعرف أن بلادي صخرية لا تسمح بتشييد القبور، وفقيرة في الأخشاب والجاز. هل نستورد من الهند أو من عدونا التنين أخشابا لحرق جثة لا سلطان لأحد على روحها؟

يتفكر مصطفى في الكلام، ويرتشف من الكأس جرعة، ويقدم إلى تسو

t.me/qurssan

كأسا على سبيل الاقتناع والترضية، وينظر إلى نواف:

- لدى أهل هذا الملعون منطق غريب، لكنه منطق جدير بالاحترام. أهله ليسوا وحوشا أو قساة القلوب. هم واقعيون وعقلاء، وأحرص على نظافة البيئة لو تأملنا هذه الإجراءات بموضوعية.

ويقبض كتفيْ تسو، ويسأله جادا ومازحا:

- من أين تعلمت الحكمة، وأنت مولود في المنفى، وتعيش في منفى أخر، وستحرم من جثتك طيور التبت؟

ولا يقتنع نواف بسلوك إطعام الطير، ويرفض أن يتصور ما يرويه تسو. ولا يوافق مصطفى على أن في "انتهاك" الجثث منطقا إنسانيا:

- لولا أنهم خارج الزمن لمنعوا بالقوة من هذا الإجرام.

ولا يحتمل تسو الإهانة، وينسى أن نواف من أهل البلد، ولا يبالي بنتيجة انفعاله، ويردّ وهو يحاول كبح غضبه:

- أنتم المسلمين تغسلون الجثث، وتطيبون أكفانها، وتعطونها إلى الديدان. نحن نعطيها إلى الطير، نطعم بها أرواحا طليقة، فمن منا الأفضل؟

يستلقي نواف على ظهره، والقارب مستقر. يقلّب وجهه في السماء، باحثا عن طائر فوق الخليج، حتى يجده، صغيرا بعيدا، فيعتدل ويجلس ساخرا من تسو:

t.me/qurssan

- لا أستبعد أن يكون هذا الطائر مهاجرا من التبت، يبحث عن أبناء عمومته، عن أمثالك المنتشرين في المنافي. وإذا اعتصرته فربما تجد أثرا من نبضات قلب جدك.

- لماذا، يا سيد نواف، تستهين بعقيدتي؟ لي هنا عمر طويل، وكنت محظوظا بطيبة سادتي، وحريتي في العبادة، وأنقذتني القراءة كلما وجدت فراغا، لكي يطمئن قلبي. والآن كبرت ويتحقق لي الفراغ والاطمئنان.

ينتهي تسو من كلامه وينصت. ثم يتردد في قول شيء، فيشجعه مصطفى بإيماءة تمنحه الأمان:

- سمعت شيخا مسلما في التلفزيون يروي حديثا عن النخلة، ويقول إنها عمّة الناس. وأحببت ذلك.

يقهقه نواف:

- عمّة الناس، فمن عمهم؟

ولا يتجاوب مصطفى مع سؤال نواف الهازئ، ويتذكر لورا. يحنّ إليها، ويسبها في سره مداعبا، ففي محاوراتهما قبل اللقاء كانت تذكر أشياء لو سكت عنها لاتهمته بالجهل والعجز عن مجاراتها. ومن حيث لا يدري ولا تدري، أجبرته على القراءة، والبحث عن إشاراتها ومنها أنسنة الجماد، وأنه يشعر بالبشر، وتفضيل الناس واحة على أخرى، ومحبتهم لجبل أو شاطئ دون غيره، كما أن في الكون مخلوقات شمسية، تتغذى على الضوء

t.me/qurssan

والمياه، لا تخلو من الروح، للشجر والزرع روح. وقبل زحف البنايات وابتلاع أرضهم القريبة من الأهرام كان أبوه يصحبه إلى الغيط، ويؤكد له أن الزرع يشعر بصاحبه، ويحبه ويريده أن يعتني به، ويتعهده بالري والسماد، والأهم من هذا كله ألا يغيب عنه، ولو بالمرور من أول الأرض إلى آخرها، ويتنفسه ويحفّ به.

ويحيله كلام تسو عن النخلة إلى حديث حفظه، منذ قاله شيخ مرّ على أبيه، وحفن ما استطاع من البلح، وظنه آنذاك يخترع حديثا.

يرتشف مصطفى من الكأس، ويطلب إلى أنيل أن يقدم أخرى لنواف:

- تسو محرّض، يعيدني إلى براءة الصبا، ويذكرني بحديث رواه رجل لأبي، أن الرسول قال بحضور الإمام علي: "أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران".

يغمض مصطفى عينيه. لا يعنيه أن الحديث صحيح أو موضوع. آمن بالحديث وصدقه، بعد أن عبر به إلى قلب لورا، وجعل علاقته بها أكثر قوة؛ فلا أحب إلى لورا من مريم بنت عمران.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

8

يشملهم الصمت في الغسق. تمضي الدقائق، ويطمئن أنيل على القارب الجاهز، ولا يعرف متى يتحركون أو إلى أين؟ لم يبلغوه بأي شيء، باستثناء موعد اللقاء، وقضاء سهرة في القارب. واستعد نواف بشراب وطعام يزيد على حاجتهم، وأتى مصطفى بالقليل؛ فحقيبته أكثر أهمية من أي شيء، ولا يفارقه في أي مشوار، ولو من غرفته بالفندق إلى حمام السباحة.

من دون اتفاق، تتهدل أيديهم، تسترخي الأبدان فيلجأ البعض إلى الفعود، وتتأهب الأعين وتتناوش الأفكار، وهم صامتون يتابعون كشافات تسلط أنوارها إلى المياه في نصف دائرة وتَرُّها اليخت الأول. أضواء قوية مفاجئة، تحيل المياه إلى ما هو أكثر نصاعة من الفضة، ولا تصل إلى القارب

t.me/qurssan

والمشى. ومن بعيد، من بطن الخليج الأعمى، يقترب برشاقة السهم يخت صغير إذا ما قورن باليخت المُنير، ويشقّ المياه، ويصنع جدارين من الموج، ويدخل دائرة النور، وعليه ثلاثة أحدهم قائده، والثاني بصحبة امرأة يطير ثوبها في النسيم طيرانا أقرب إلى تعمّد خلعه، ويميل إليها الرجل ولا يحاول حماية الثوب من الريح. ويدور اليخت الصغير مقتربا من الممشى، ويسمع مصطفى لهجة مصرية للمرأة ولهجة خليجية للرجل، ويضطرب تسو وأنيل، ولا يطمئنهما وجود القارب في العتمة، ثم يعود اليخت الصغير وقد فتح في جدار اليخت الكبير باب يرتفع، تدريجيا، إلى أعلى من قامة الرجل الواقف بجوار امرأة صالح النسيم ثوبها، وينساب اليخت إلى بطن اليخت الكبير، منزلقا إليه ومسبوقا بأضواء، ومتبوعا بهبوط باب المرآب المائي بالهدوء نفسه. وتختفي أنوار الكشافات.

يضحك نواف، فينفك الصمت المتصل، ويسأله مصطفى عما إذا كان مفعول النبيذ بدأ في السريان؟

ويجيب نواف:

- هل ما شاهدناه، قبل قليل، خيالات مخمورين؟

يصحح مصطفى:

- لم تخلق الخمر القادرة على حمل أربعة، من جنسيات وأعمار مختلفة، على هذا "الإجماع".

t.me/qurssan

- قل لي: أين عدل الله؟

يبتسم مصطفى، وهو يحمل إحدى زجاجات النبيذ:

- ألا يكفيك أن نقتسمها دليلا على العدل؟

ويتبع:

- اشرب يا نواف النبيذ، الليلة لا تحتمل النكد.

تنبسط ملامح وجهه:

- أشرب النبيذ الليلة من أجلك، لديّ ما هو ألذ وأقوى. في الويسكي شفاء للعقول من أرق التفكير.

- أهذا ما يبسطك؟

- كنت أفكر في حقيبتك، صندوق أسود لا تريد كشف محتوياته.

- أنا دائم الترحال، مكتوب على الجبين، أو في اللوح المحفوظ، ولا حيلة لي معه. تعودت ألا أخرج من البيت إلا بحقيبة فيها "إسعافات أولية": جلباب أو بيجامة، حذاء خفيف، شبشب حمام، فوطة، عدّة حلاقة، معجون أسنان وفرشاة.

- عدة حلاقة؟ هل تدخل تحديا مع الزمن، في مواجهة لحيتك التي تخاف أن تنبت بسرعة، وتحتاج إلى حلاقة بعد مشوار قصير؟

t.me/qurssan

- اطمئن، تركتها اليوم في غرفتي بالفندق، ولكن بقية الأغراض معي.

- وهذه العصا الملعونة! بها أنت ماريشال بنظارات الجنرالات، ولا ينقصه إلا الكاب لكي يقوم بانقلاب!

يصحح تسو:

- عصا المايسترو.

فيزيح نواف بيده شعره عن جبينه، ويتأمل قامة مصطفى وهو يقف على مقدمة المركب، يوسّع ما بين قدميه، فيراه هرما من الزّرقة يتجسد في مثلث الساقين، وصولا إلى الشاطئ، والعصا في يده، رشيقة مثل جسده النحيل. ويوافق تسو على رأيه:

- فاتني هذا يا تسو، مصطفى مايسترو بحق، حتى من دون هذه العصا.

تبدو قامة مصطفى الليلة أطول، تليق بأحد محترفي كمال الأجسام أو ألعاب القوى، فتية ومتناسقة، يعلوها رأس يميزه جبين عريض، وشعر يحتفظ بغزارته، وتنقصه نعومة شعر نواف. وبهذا البنيان الجسدي يعتز مصطفى، ويراه هبة إلهية تلقي المهابة في النفوس، وتغري أحيانا بما لم يكن يظن نفسه قادرا على القيام به.

يمسك مصطفى العصا بيمناه، وباليسرى ينزع النظارة السوداء عن عينيه، ويقول لهم إن هاتين أدخلتاه مغامرة كادت تهلكه، بدأت بالتورط

t.me/qurssan

ا، ١.لبة وميل إلى الفضول. ولولا حماية الله، لانتهت المقامرة بالقضاء ا.،، وما عرف أحد له مكان جثة، بما في ذلك الطير المحظوظ بجثث اهالي تسو في التبت.

بالعصا والنظارة قبضت أول ألف دولار دفعة واحدة، وتبعه ألف ، الاف في أيام قليلة. تلك حكاية وحيدة لم ينطق بها لساني لأحد، وخجلت ا. اعترف بها إلى لورا. أخبرتها بكل مغامراتي وخطاياي إلا هذه.

ينوي مصطفى أن يصارح لورا بكل شيء. سوف يلقاها بعد يومين، ، شجع ويقوّي عزيمته، ويطلب إليها الأمان أن تساعده على أن يرفو ا.ا الخدش في روحه.

ثم يقعد المايسترو على حافة المركب، وقدماه في التجويف، ويدق العصا يمينا وشمالا، ومع إيقاع الدق يحرك رأسه، يتطلع إلى الأمام ، اوية، وينصت بأذن واحدة يرى بها الطريق، وما كان هكذا يوم الْتقطه ، جل سمين، وهو ينتظر صديقا أمام بوابة المتجر الكبير. أعطاه الصديق اغراضا خفيفة، ودخل بصحبة أخيه الأعمى لشراء بقية الأغراض. وعلى بعد خطوات ناداه الرجل السمين، فلم ينتبه إليه مصطفى، لانشغاله بحسس نقود في جيبه، والعصا بين قدميه تستند في أعلاها بين فخذيه.

- أنت أعمى.

كلمات بإنجليزية غير أصيلة، حادة الحروف، ألقيت بضجر. هل كانت

t.me/qurssan

سؤالا استفهاميا أم نداء؟ لم ينتبه مصطفى، ولكن تكرارها حمله على الظن بأنه مقصود بالنداء، وقرأ في طريقة النطق استعلاء لا يخفيه العبد الأرقى درجة، فأعرض في صمت عن هذا العبد، وصعّر خدّه بميل طفيف، فاستقبل المنادي السمين أذن مصطفى الذي لم ينظر إليه، وتأكد للرجل أن مصطفى أعمى.

- سمعتني؟

أوشك أن يقول "نعم سمعتك، وما أنا أعمى"، واحتمى من شمس تتحدى الواجهة الزجاجية للمتجر بالنظارة السوداء. ومن الغيظ طرق بالعصا، ومال بوجهه قليلا إلى الداخل، يتقصى خروج صديقه وأخيه الكفيف. فاستعجل السمين الرد بسؤال آخر، باللغة العربية هذه المرة:

- أعمى وأصمّ؟

سأل مصطفى نفسه: "أصم؟"، وتذكّر حرص لورا على العربية الفصحى. وابتسم لحظ يدفع إلى طريقه بمدمنين على أفلام الكارتون، إذ انتظر أن يكون السؤال: "أعمى وأطرش؟". ثم رد بتثاقل:

- سمعتك.

- اخلع النظارات.

ظنه مسؤولا في الشرطة، وأغاظته لهجة الأمر، فاستعان عليها بنفس عميق قلب عينيه فبدا للآخر بياضهما، ولم ينظر مصطفى نحوه، ويده

t.me/qurssan

لمسك النظارة، والأخرى تقبض على العصا.

- تمام، إلبسها وتعال يا أعمى.

ما عاد بقدرة مصطفى أن يتراجع، هو الآن أعمى مأمور باتباع رجل سمين إلى حيث تقف سيارة سوداء لا أثر عليها للغبار، في بلد يتصارع فيه الجاز والغبار.

فتح الباب الخلفي، وكاد يدفعه إلى الدخول:

- اركب.

في ما بعد تذكر مصطفى تلك اللحظة، وتساءل: هل قال الرجل "اركب"، أم "ادخل"؟ لكن الذي يعيه جيدا أنه نطق كلمة واحدة غير متبوعة بنداء "يا أعمى".

طرق مصطفى بالعصا، برفق حتى لمست الإطار الخلفي، وساعده الرجل واستدار وقعد على يساره، والسائق يدل رأسه وصدغه الأيمن على أنه آسيوي، ولا يمد عينيه في المرآة للنظر إلى المقعد الخلفي. ولمحه مصطفى بنظرة خاطفة، تحسبا لانكشاف أمره. ولكي يريح نفسه لجأ إلى إغماض عينيه في أغلب الفترات، فلم يعرف الطريق من المتجر إلى البوابة.

كان السائق شابا حليق الذقن، يرتدي زيّا أنيقا يشبه أزياء سائقي الباشوات والأثرياء في الأفلام المصرية القديمة. وربط مصطفى بين هيئة

t.me/qurssan

السائق وصلاحيته لقيادة السيارة وركوب هذا الفظ على يساره. ثم استسلم لهواء السيارة المسكر في برودته، منذ تصنع الارتباك في الركوب، وألقى بنفسه في المقعد الخلفي الذي غاص به قليلا. وأحاطه عطر حمله على الظن بأنه سوف يفترع مخنثا. وفكرة مصطفى عن هؤلاء أنهم أذكياء، حذرون، يدفعهم الخزي أحيانا إلى الانطواء، ويدافعون عن ميولهم بافتعال الجدية، وفي لحظات الأمان يتحدثون بنعومة، بصوت طريّ يتعمدون فيه مطّ الحروف وكسوتها بالقطيفة إن استطاعوا. ولكن هذا الصارم على اليسار لم يحاول حتى لمس يد مصطفى، ولم يسترق نظرة إلى ما بين فخذيه، وصوته أجش، فأيقن مصطفى أنه الفريسة، صيد لهذا الرجل. ونظر إلى السائق الشاب وهمس لنفسه: ألا يكفيه هذا السائق؟ أم أنه لا يخلط بين العمل والرغبة؟

لم تتوقف السيارة أمام البوابة انتظارا لأن تفتح، وقد أبطأ السائق وهو يقترب، وفتحت تلقائيا بالانشقاق من المنتصف، ودخلت في الجدار ذات اليمين وذات الشمال، وليس أمامها أو خلفها حرس. لم يحاول رفع بصره، فيكون صيدا لكاميرات في الزوايا، أو حارس في برج مراقبة لا يتاح لأعمى أن يحدد موقعه. ثم لمح مسطحا مائيا، أكبر من أن يكون حمام سباحة، ومن المستحيل أن يكون سرابا في هذه الحدائق. ولا يدري بالضبط هل مرّ ببنايات من البوابة إلى حيث وقفت السيارة نهائيا؟ وأي نوع من الأشجار كان يصطف؟ ولكن زقزقات العصافير لم تنقطع، واعتبر ذلك تحية له.

t.me/qurssan

وظل حذرا ينصت إلى العصافير ولا يحاول الرصد، فيكتشف هذا الغليظ كذبه، ويدفع الثمن حياته.

لم ينس مصطفى حظه من اختلاس النظرات بالاحتيال، فأدار رأسه إلى اليمين وإلى الشمال، تحت ستار إدراك روائح الزهور وتتبعها بأنفه، فيستطيل الأنف ويطلق صوتا يترصد به رائحة زهرة، وكيف تختلف رائحتها عن غيرها، ويسأل الرجل: شجرة برتقال؟ وبعد مسافة يمدّ أنفه ويسأله: شجرة كمثرى؟ ولا يأبه له الرجل، فيعبس وجه مصطفى، ويقول إنه سمع طنين النحل، وهذه إجابة كافية.

فتحت خادمة باب السيارة، وانحنت بالتحية. فهم مصطفى أنها لا تعي بعماه، أو أنها تؤدي طقس الانحناء لأي ضيف. وكان عليه أن يهبط، وتجاهل يدها الممدودة، ولم يستجب لها بالتحرك الرتيب إلا حين طلبت أن تساعده في النزول. استراح لنجاحه في الاختبار الأول، وكاد يمنحها يده، فتذكر أنه أعمى يرى بأذنيه، وهي لم تطلب يده في البداية، أو تخبره بأن يدها معلقة في الباب، حيث تلتقى رائحة العطر في السيارة وعطر خادمة تساعده على تجاوز بضع خطوات.

ثم أوصلته إلى خادمة أخرى تقود سيارة صغيرة رأى مثلها في مدينة الملاهي، وتسع شخصين خلف السائق. صعدت وأمسكت يده، وأرشدته إلى موضع قدمه، وتحركت لتصل إلى ممر ينتهي بباب، ويليه بهو في نهايته غرفة تشغل أحد أركانها شاشة تلفزيون تذيع مباراة في المصارعة الحرة،

t.me/qurssan

وأحد جدارانها تكسوه مكتبة يسهل بنظرة أن يلمح محتوياتها من عناوين قليلة، كل منها يضم بضعة مجلدات تنتظم في تسلسل، وليس فيها كتاب نافر. مكتبة تبدو لوحة بالألوان المائية، ليس فيها كتاب وضع بالخطأ في غير محله، أو نتوء لكعب مجلد. وتعلو المكتبة صورة الطفل الباكي بإطار ذهبي سميك، وفي الجدارين الآخرين أثاث مكسو بالقطيفة. ولما اتخذ مكانا حددته الخادمة أحس بالمقعد يتخلص من انتفاخه وينفث هواءه المكتنز، ويتكيف مع ظهره ومقعدته، فشعر بالرغبة في النوم، ثم نسي النوم والجوع، ولم يسترح لهذه الإراحة للمقعدة، وظنها تهيئة لما يليها.

- أي شراب تفضله مع الغداء؟

لم يرد. التزم باتجاه ثابت لوجهه، وفي زاوية الرؤية هذه لا يرى المبصر صاحبة الصوت، وعطرها يأتيه بزاوية مائلة، ولمح ساقيها المكشوفتين، وحيّره أنها لم تستشره في الغداء، أو تسأله عما إذا كان جائعا؟ وأي طعام يريد؟

أعادت السؤال بإنجليزية مفهومة، ليست أكثر تفصيلا:

- ماذا تريد أن تشرب يا سيد؟

التفت بأذنه إلى مصدر الصوت، ولم يكن في الغرفة سواه:

- تسألينني؟

t.me/qurssan

- نعم.

افتعل البراءة، وسأل:

- مشروب حلال؟ أم آخذ راحتي وأطلب ما لذّ وطاب؟

لم تفهم، وأجابت بعمومية:

- كل ما تشتهيه يا سيد.

- هكذا ظننت، وأنتم عند حسن الظن، أريد نبيذا أحمر.

ذهبت وجاءت خادمة أخرى، لا تتمتع بفخذ ملفوفة مثل زميلتها. دفعت مائدة محمولة على عربة صغيرة بأربع عجلات لا تصدر صفيرا. وكشفت الأغطية عن طعام تتصاعد منه أبخرة. وفي إحدى الزوايا تجويف لجسد زجاجة نبيذ فتحت مباشرة قبل انطلاق العربة من المطبخ إلى مقعد اتخذ شكل الظهر والمقعدة، وتبعث فوهة الزجاجة بخارا ناعما. تحركت يده فوق أطباق الشواء، تلتمس زجاجة لا يعرف الأعمى مكانها، فأخذت الخادمة يدا إلى الزجاجة، ويدا إلى كوب ساعدته للمرة الأولى على ملئه، فصار الكوب كأسا تولى مصطفى أمرها، ليشرب ما يشاء من الكؤوس. وتعمد ألا يأكل إلا من الطبق الذي أمامه، ودفع طبقا فوقع ولم يسمع صوتا، وانحنى يبحث عنه بيده، وسأل:

- هل انكسر؟

t.me/qurssan

تناولته الخادمة، وأزالت آثار الطعام:

- لا عليك يا سيد.

في كل خطوة يثق بنجاحه في الاختبار، ويحذر عينا في مكان ما ترصده، أو كاميرا تسجل حركاته، منذ حددوا له مقعدا، وكان يتجه إلى مقعد آخر يتيح له رؤية زوايا أكثر اتساعا.

كل ما أقلقه أن يكون ذبيحة يجهزونها لصاحب الصوت المنفّر، شريكه في المقعد الخلفي. كان يمكنه ألا يستجيب للدعوة، قبل الوصول إلى السيارة، وأن يخرج منها ويعلن أنه مبصر، ولكنه طمع في خوض تجربة لا تكلفه رجولته، ولم يتسرب إليه الشكوك إلا في الطريق، والرجل يتصرف بخشونة وجدية، وفي صوته ثقة مخيفة لا تتفق مع دلال يحظى به منذ بلغ القصر، وتسلمه خادمة إلى أخرى، وهذه الأخيرة تتناول يديه، وتقوده إلى بداية ممر لا يعرف نهايته، وعلى يمينه غرف مغلقة، وتبلغه أن يحصي عشرين خطوة، وبعدها سيجد بابا مفتوحا يدخله، ويخطو إلى اليمين سبع خطوات تنتهي بمقعد. ولم يكن في الغرفة إلا ذلك المقعد، بجوار سرير مرتب، يفوح من شراشفه العطر.

اطمأن في المقعد، وهو يسند رأسه إلى يديه، ويلوم نفسه على سوء الظن برجل السيارة، ويحسب الدعوة خاصة بامرأة، وهذا عطرها وحده دليل عليها. ولم يبال بالباب الموارب وهو يُدفع بهدوء، ويكاد يراقص العطر

t.me/qurssan

بحركته المحسوبة، وتلي موجات العطر خطوات لقدمين في حذاء أبيض يعلوه مئزر. الحذاء لا يحدد هوية القدمين، فهو مسقوف يغطي الأصابع. همّ مصطفى برفع رأسه، وانتبه إلى أنه أعمى، وأتاه صوت مترفق:

- كأسك، نسيت بقية النبيذ هناك.

- شكرا.

صنع بالإبهام والسبابة نصف دائرة، ومدها إلى الأمام. وكان الداخل قد صار رجلا بانفراج المئزر عن ساقين لا تكونان لامرأة، وقعد على طرف السرير، ثم مدّ يده بالكأس إلى يسار مصطفى الذي لا يزال يصنع نصف دائرة، في الأمام، لحمل الكأس.

- أتعبتك الرحلة إلى هنا.

- إطلاقا.

- تجرب أي مشروب غير النبيذ؟

- كما ترى يا سيد.

- كما ترى أنت.

ابتسم مصطفى وقال:

- ليتني كنت أرى.

t.me/qurssan

وأحس بأن الرجل أعجبته سرعة البديهة، وخفة ظل غير مصطنعة، وفاجأه بسؤال:

- هل ترى الأحلام بالألوان؟

- بعض الأحلام ملون، ما كنت أراه قبل العمى ملونا يحتفظ في الحلم بألوانه القديمة. أرى النبيذ أحمر، وقيل لي بعد العمى إن هناك نوعا أبيض، لا أراه في الحلم، جربته مرة ولم أحبه، واستحق هذا النوع من النبيذ أن أنبذه.

استراح الرجل لطلاقة لسان مصطفى، وابتسم قائلا:

- أنت أول من يتخذ قرار نبذ النبيذ. نبذ النبيذ فكرة جديدة.

رد مصطفى:

- إلا الأحمر، لا يكون النبيذ إلا أحمر.

- يعجبني أسلوبك، علينا أن نسترخي. هنا يفيد الويسكي، ما رأيك؟

جاراه بما يشبه الحماسة، وخطف إليه نظرة تقدر سنه بما فوق الستين ببضع سنين:

- يفيد يا سيد.

صب كأسا، ودعاه إلى تناولها. ما يثق فيه مصطفى أن الرجل ليس

t.me/qurssan

ساحرا، وأن أحدا لم يدخل الغرفة بعده، فمن أين جاء بالويسكي وصبه وسمع تدفقه في الكأس، وجلب أقراص الثلج من الجردل؟ هل كان للمائدة الصغيرة أمام مقعده دور أول، أم كان هذا كله موجودا ولم يره؛ لإتقانه دور الأعمى؟

- كأسك.

مدّ يده ولم يجد الرجل حاجة إلى اختبار جديد، ووضع الكأس في نصف الدائرة، فأحكمها بالإبهام والسبابة.

سأله الرجل، وهو يهم بالتخفف من المئزر، إذا كان يريد خلع النظارة، فلم يجزع مصطفى ولم يفاجئه السؤال، وخلا وجهه من الخوف، وقال بلهجة الواثق إن هذا لن يروق الرجل:

- عين البصير لا تسر الناظرين.

خشي مصطفى الخذلان، ألا يسعفه جسده. كل شيء حوله يطمئنه إلا روحه الغريبة، والرجل يتعرى ويتلوى جسده الخالي من الشعر، ويخاطب مصطفى "سيدي"، ويقبل قدميه صاعدا بالربلتين والفخذين، متوسلا بصوت خاضع، ومصطفى لا يصدق نفسه، ولا يحتاج إلى النظر لما بين فخذيه ليتأكد له أن جسده شيطان يتمرد عليه، وينفصل عنه مستجيبا للغواية، والرجل يشهق ويناديه "سيدي"، ويأخذه إلى مكامن النشوة، ويصدر ما يشبه الفحيح، وينمو له ما للرجال، فيرتعب مصطفى الذي

t.me/qurssan

يفاجأ به يقفز من الباب، ولا يسمع وقع قدميه، ولكن بابا آخر بالقرب يفتح بعنف، وينصت إلى تطاحن وحشرجات، والرجل نفسه، بصوته الذي عرفه، يصرخ "يا كلبة، يا كلبة"، وامرأة تردّ إليه السباب بالمثل "يا كلب"، ويتبادلان كلاما فاحشا ثم يصمتان. ولا يرجع الرجل إلى مصطفى، إلى أن يلتقيا في المرة التالية، ويسلك مصطفى الطريق من المتجر بصحبة صاحب الصوت الأجش، ثم يتخذ مقعده المجاور للسرير، ويطعن الرجل فينبت له ما للرجال، ويجري إلى حيث يسب امرأة وتسبه.

إلا هذه المرة التي اختل فيها تسلسل التفاصيل، بعد أسبوعين. مضت الخطوات كلها وفق ما يجري دائما، من المتجر إلى المقعد المجاور للسرير، إلا الصوت الذي كان لامرأة خلاسية. لمحها وتجاهل معرفته بأنها دخلت الغرفة يسبقها العطر. أعجبته قدماها الصغيرتان، وهي تخطو حافية، ولا تهتم بإغلاق الباب وراءها، وسمع مصطفى الصوت الذي هو لامرأة:

- يحلو الشراب مع سيجارة.

قدمت إليه علبة فضية مفتوحة تبرز منها سيجارة، ومن مقعده احتفظ مصطفى بظهره منتصبا، ولم يهم بالتقاط السيجارة بأصابعه، أو الانحناء ليتلقفها بشفتيه، فاعتذرت إليه المرأة اعتذارا لا يستطيع أن يكذبه أو يحمله على أنه اختبار لصدق العمى:

- آسفة.

t.me/qurssan

فسأل مصطفى:

- هل معنا اليوم أحد يا سيد؟

أجابه الصوت الذي هو لامرأة اعتذرت إليه باقتضاب:

- لا أحد معنا، السيد في سفر ولن يعود قبل الغروب. جرّب السيجارة.

انحنى وأصابعه تسبق شفتيه. وكانت قد عادت إلى الباب، فبدا جسدها ضئيلا لا يسد فراغه، وعجب أن تكون زوجته، ولم يتأكد له هذا الظن؛ فملامحها أصغر منه بكثير. اعتدل في المقعد عائد إليه بيد خالية، وأسند ظهره. واقتربت وجثت أمامه، وأشعلت السيجارة، ونفخت في وجهه الدخان، ووضعتها في شفتيه، وأشعله هذا الاقتحام، وللمرة الأولى يشعر أنه في الموضع الصحيح ولا يجفل، وهي تغمر وجهها في حجره، فيرغب في احتضان رأسها، وينتظر أن تدعوه إلى فعل شيء، كما أن السيجارة لا تزال بين شفتيه. همّ بإحاطة رأسها بيديه، ولم يكن مهتاجا في حضرة من يراها طفلة تستحق الشفقة، وهو يحسم أمره ويلمس شعرها، برهافة من الرأس حتى نهايته عند ردفيها، ويجمعه في يده ويشمه، ثم يتركه يسترسل أسود ناعما يغطي ظهرها، وتهبط يداه قليلا بموازاة أذنيها، ويقبض كتفيها، وينحني فيسند ذقنه إلى رأسها، تلامسه برفق، فتحرك المرأة رأسها، ويرفع عنها ذقنه، فتعلو المرأة بقامتها بالمقدار نفسه، وترتخي يداه عند الكتفين، فترجوه أن يظل هكذا قابضا عليها ويحتضن كتفيها. ثم ترفع رأسها، وتتناول

t.me/qurssan

السيجارة وتطفئها بيد مرتعشة، ويكاد يلمح دمعة تطل وتستعصي على السقوط، ولا يتحرى الأمر، وإنما يسألها وهو يمسك كفيها:

- أنت بخير يا سيدتي؟

قبضت يديه، وسرى إليه حنانها، وتنفست بعمق قبل أن تجيب:

- لي هنا عمر، ما شاء الله من السنين، ما سألني أحد إذا كنت بخير. الآن أنا بخير، وأنت اليوم سيدي.

- العفو يا سيدتي.

- مقيم هنا من زمان؟

- لا، زائر. لي هنا صديق وجّه إليّ دعوة.

فتبدّل صوتها، درجة وشعورا، وقالت باطمئنان:

- ربنا يتقبل.

ارتبك فلا يعرف من هذه المرأة؟ وما علاقتها بالرجل؟ وماذا تريد منه؟ الآن لا يجرؤ على قول شيء، يخشى أن يخطئ في حضرة من يصدق قولها "ربنا يتقبل". ويعرف أن انكشاف حكاية بصره يعني موته، وأن معرفة أي أحد في القصر بغياب السيد اليوم هو نهاية المغامرة. وتذكر أنه في المرات السابقة لم يلمح أحدا يدخل الممر المفضي إلى الحجرات. وللحظة ظن فخا قد نصب له؛ لاختبار وفائه لرجل يحتاج إليه؛ لكي يقفز كالمجنون إلى امرأة،

t.me/qurssan

فيتطاحنان ويسبها وتسبه. ولا يدري هل هذه المرأة هي مَن تقاسم الرجل السباب؟ أم أنها الآن أداة لامتحانه، تمهيدا للتخلص منه.

أنصت إلى صبّ شراب، وتلته مناداة عذبة لا محل فيها للأمر:

- كأسك.

- نبيذ؟

- نعم نبيذ.

سمع ضحكتها:

- أحمر، أعلم أنك تفضله.

- ولكن السيد...

- اخرس يا كلب. قلت إنه غائب، الآن لا سيد إلا أنت وأنا، ألا يرضيك؟

كيف يكون سيدا وهو يسمع سبابا يتوقع، لو ردّ عليه، أن يليه إطلاق الرصاص؟ انكمش في المقعد، واهتزت الكأس، وتبلّل البنطلون. قالت إن السيد مسافر، ولا يحق لأحد في القصر أن يعرف أو يسأل، كلٌّ ينجز مهمة محددة، ولا يتسامرون. كلمة واحدة ينطقها أحدهم، ولو خالية من الأسرار، تنهي وجوده أو تكلفه حياته، هكذا صاروا آلات بشرية من الصمّ البكْم العمْي.

t.me/qurssan

جففت البنطلون بفوطة صغيرة على طرف المائدة، وتعمدت أن تميل إليه، وتشم رائحته. ولمح سلسلة ذهبية تتدلى من عنقها، وتنساب إلى المجرى بين النهدين، وتستقر في نهايتها قلادة في هيئة قلب تتوسطه ثلاث كلمات "وتمت نعمة ربك"، ويفوح من القلادة الذهبية عطر آخر يدعوه إلى أن يتشمم حروفا ظنها صنعت من ذهب معطر بذاته. ثم جرؤ على رفع يديه إلى كتفيها، وقبل أن يجذبها إليه، همت هي بذلك، فأعفته من الحرج والخوف.

- أنت هكذا دائما؟ بهذا الجمال يا سيدتي!

فابتعدت عنه بمسافة، واعتدلت فتأملته، وتعجبت:

- كيف عرفت؟ هل تراني؟

تصنّع التماسك، واجتهد في إعداد ردّ سريع، وهدأت نفسه لقولها:

- ليتك تراني.

- لا أحتاج إلى رؤيتك بعينيّ، كل حواسي تشعر بك، ولا تكذبني في أنك جميلة، ولهذا سألتك.

- لا تسألني.

- لا أسأل، وإنما أجيب: أنت جميلة يا سيدتي.

احتضنته باندفاع من ترغب في أن يحتضنها، وارتعشت في صدره، وكاد

t.me/qurssan

بشعر بأنات قلبها كأنها على وشك البكاء، وهمست وأذنها على قلبه:

- من زمن، لم أسمع أنني جميلة، لم يقلها لي غزلا أو مجاملة.

أخذت نفسها من صدره، وحدقت بوجهه:

- تغازلني أم تجاملني؟

- لا هذا ولا ذاك. أنا أنطق بالحق.

رفعت يديها إلى وجهه، إلى النظارة، ورآها وتحسب للأمر من دون أن يبدي انزعاجا، واستحلفته أن يخلع النظارة، فقال:

- لا أريد أن تتأذي يا سيدتي.

قلب عينيه ولم يزعجها بياضهما، وقبلت جبينه، وأتته بما يشبه نظارات السباحة، وساعدته في إحكامها من خلف رأسه، وشعر بالملمس الحريري على عينيه، ولكنها معتمة تحول دون رغبته في استراق النظر إلى جسدها. وضحك وقال إنهم في الطائرة وزعوا مثلها على من تضايقه الإضاءة، فشكرهم وحمد الله على نعمة العمى. وضحكت أيضا وسألته:

- قلت قبل قليل إنني جميلة؟

- نعم يا سيدتي.

- قلها مرة أخرى، قلها كثيرا، أريد أن أغسل أذنيّ من الصمت، من الصمم، من ندائي في لحظات اليأس العاجز "يا كلبة، يا كلبة".

t.me/qurssan

تهدج صوتها:

- قلها يا أمير، قل إنني جميلة.

صمتت ثم سألته:

- ما اسمك يا سيدي؟

- مصطفى، مصطفى يا سيدتي.

- أنت فعلا مصطفى، أنت أميري.

احتضنت رأسه، وقبلت عينيه، ونزلت إلى صدره، وهبطت أكثر؛ فعظم في يديها وتد الذكورة. وسدت له يدها، ثم توسدته، وبكت:

- يقول لي "يا كلبة"، أنا كلبة يا مصطفى؟

أشفق عليها من جديد، وفكر أن عزاءها ليس أقل من سلوك مجنون يخرس لسانها، ويحشو فمها بما هو أكثر لذة من الشكوى. ناوشها بما يبدو مداعبة لإلهائها عن تذكر الألم، واستجابت للمجون فتشجع، وكان اللهاث، في ذروته، إلْتذاذا لا تألما. كانا لا يزالان واقفين، فنهضا إلى السرير، ونادته "سيدي"، ثم صرخت نافية أنها كلبة، واستحلفته أن يُسمعها أنها جميلة، وأن يقسم على أنه صادق.

ودّ في تلك اللحظات لو يرفع الغمامة الحريرية عن عينيه، يشتهي رؤية كتلة بشرية تشتعل وتهتز، وتتحول إلى لهب لاهج بالشهوة، يضيء ولا

t.me/qurssan

يحترق. لا يكفيه ولوج مغارة دون رؤيتها، يشتهي تلمّس الكهف بأكثر من أصابعه، والأعضاء كلها آلات تعزف بتناغم لحنا لا تستوعبه الآذان وحدها، ويتمنى أن يراه، في العلوّ والطعن وهو سيد لسيدة يتأكد له صدقها، وقد تمتعت بالسكينة، واكتسى وجهها رضا، ومسّ مصطفى شيء من ضياء وجهها، وهي تقول:

- لأول مرة أشعر بأنني قريبة من الله، وأحبه.

عجب لامرأة ساذجة تهذي، ولا تعي ما تقول. وصرفه عن التفكير في جملتها الأخيرة قولها:

- ما أنت أعمى يا سيدي.

- يقولون في مصر إن العمى هو عمى البصيرة لا البصر.

ألقت رأسها إلى صدره، ولم تخجل من إبداء ضعفها، فبكت ولم تحاول هذه المرة إخفاء دموعها، حتى أخذها النعاس. وظل يقظا، يريد أن يتسلل هاربا، ويرفع رأسها لينسلّ من تحتها فلا يوقظها، وهو يعرف طريق الخروج. في نهاية الممر الذي لا تقربه خادمة، سيجد من تنتظره، وتصحبه إلى الباب، وتتولى أيدٍ أخذه إلى البوابة. ولكنه، على الرغم من نعاسها، لم ينس أنه أعمى، وبحث عن النظارة بيد تتحسس السرير، وهي ابتسمت، وقالت له إن النظارة ليست على السرير، فلماذا يبحث عنها هنا؟

فاجأته يقظتها، وسؤالها:

t.me/qurssan

- هل أنا حقا جميلة؟ أم كان وصفك صوت جسدك؟

أجاب بما فعله، قبل قليل، في لحظات نومها، إذ قرأت يداه جسدها كله، تشممت أصابعه رائحتها، وحفظت التضاريس. فأسعدها الوصف، وأغمض عينيها، وتنفست بعمق، وقالت إنها حلمت بهذا، ظنته حلما، وترغب في أن يعيد التنفس، وقد ذهبت السكرة والعنفوان، فتلقاها يداه، ويميلها إلى الوسادة، ثم يبعد الوسادة فيستقيم جسدها ورأسها في نسق واحد، وتقرأ أصابعه تفاصيل الخريطة، ويدعو الله أن يديم عليها نعمته. تسكن وترفع رأسها تتوسد حجره، وتقول:

- لو مت حالا سأكون راضية عن الله، وهو راض عني، لا تتهمني بالخرف، أرجوك.

صمت، فأتبعت:

- لما اعترفت لك حالا بقربي من الله، لاحظت امتعاضك.

- أنا...

- لا تستكثر على إنسان شعوره، احتفظ بمصطفى الرحيم.

أنصت خجلا. ثم لاحظ تبدل صوتها وملامحها إلى القسوة، وتحدي مطاردين في الطريق. قالت إنها كانت تقود السيارة، وتتخفى في هيئة الرجال، فلا يبدو من القناع إلا عيناها. وأوقفها ثلاثة تطل من أعينهم شراسة الفوز

t.me/qurssan

بالصيد، وحاولوا فتح باب السيارة عنوة، وعبر الزجاج المغلق التقطت كلمات متناثرة أرشدتها إلى هواهم، ففتحت الباب بثقة، وباليد الأخرى نزعت اللثام، فانسدل شعرها طويلا ناعما، وأصابتهم بخيبة رجاء، وبصق أحدهم في الأرض:

- امرأة، روحي الله يكسفك.

شدته الحكاية، وأخذت المرأة يده إلى شعرها، ليمشطه بأصابعه، ويكرر الدعاء لها، ويضع يده الأخرى على القلادة. وكادت تشك في أن يكون قد تمكن من قراءة كلماتها، بتحسس الحروف. وتمتم بكلمات لا تسمعها، ثم ساعدته في ارتداء ثيابه، وناولته النظارة، وأعطته حقيبة صغيرة، وأوصته بألا يفتحها إلا بعد وصوله إلى بيت صديقه. ثم شبّت على قدميها، وقبلت جبينه:

- هذه أول مرة، لم أفعها في حياتي، فاهم؟ لا تسئ بي الظن، أرجوك يا مصطفى.

مال إليها وقبل رأسها، ولم يقل شيئا. ولا يدري كيف خلعت السلسلة، من دون أن يرى يديها تحيطان عنقها. وأهدته القلادة، بعد أن قبّلت كلماتها "وتمت نعمة ربك":

- هدية لك، تحفظك.

t.me/qurssan

لم يجد كلاما، ولم يعرف هل يرفض الهدية، أمْ يشكر المرأة؟ لاذ الصمت، وأنقذه قولها:

- الممر من هنا، أنت تعرف الطريق، ستجد الخادمة في انتظارك.

t.me/qurssan

9

لا ينتبهون إلى الزوال السريع للوقت والضوء الذي أطفأه الغسق، مأخوذين بمغامرة المايسترو، وقلوبهم تخفق كلما تعرض لموقف قد يكشف كذبه ولا يُعالج إلا بقتله، ويتوقعون نهاية أخرى، فيخبرهم بأنه استعجل سفره في اليوم التالي، ولم يسرّ إلى أحد بمصير الأموال، لكي لا يتهم بأنه أول مصري ذهب لكي يغسل ذنوبه غير الموجودة، فعاد مثقلا بالخطايا.

يقول نواف:

- أظهر الشيخ المختبئ في ضميرك، أقصد نهاية مختلفة تحتمل هروب المرأة معك.

t.me/qurssan

- تهرب معي؟ أنت أدرى بهذه البلاد، بفضل الله وحده نجوت من مصير دامٍ.

يغمض نواف عينيه، ويستعيد المشاهد الأخيرة، ويقول وهو يحدث نفسه:

- توقعت من المشهد الأخير نهاية أخرى للمغامرة، في القاهرة مثلا.

- لم يذهب خيالك بعيدا، رأيتها مرة واحدة في القاهرة. كنت بصحبة لورا التي لاحظتْ أن وراء النظرات تاريخا ما، علاقة منعتها كبرياؤها أن تسألني عنها، واكتفيت بتجاهل المرأة. وفي لحظة خاطفة، حررت السلسلة من القميص، وأبرزتُ قلادتها "وتمت نعمة ربك"، وتدلت من يدي، وأحنيت رأسي قليلا، وأغمضتُ عيني ففهمتْ، وأومأتْ بإشارة ذكية، في عرفان صامت، والرجل إلى جوارها لا يعطيني اهتماما ولا يتذكر ملامحي، ولا يعنيه وجودي.

لا يأسى المايسترو على فوات فرصة استعادة الوصال. مضت المرأة ولها في نفسه ذكرى طيبة، وما يحزنه إلى الآن، في هذا الغروب بين رجال يتعرى أمامهم ولا يجمعهم دين أو لغة أو جغرافيا إلا هذا القارب، أنه كان يودّ أن يعيد إليها الهدية، ويشكرها ويطمئنها بثلاث كلمات: "وتمت نعمة ربك" بلقاء لورا التي كادت تنتبه، فمال مصطفى بالمقعد إلى زاوية لا تسمح له برؤية مباشرة للمرأة، وانتهى من العشاء بأسرع من المعتاد، وغادرا المطعم، وعطر القلادة يفوح برائحته الأولى.

t.me/qurssan

يسأله نواف عما يغويه في نساء أكبر منه سنا؟ ويتبع السؤال باعتذار فريب من المزاح:

- أم أن المايسترو لا يسأل عما يفعل؟

- بالعكس، يسأل ويحاسب إذا وجب الحساب. ولكنه قدريّ، لا ينشغل أثناء تجربة بمراقبة نفسه، ولا يخطط لما يكسبه غدا، أو ما يخسره.

في تجربته المرأة كان مصطفى دون الأربعين ببضع سنوات، وبدت ملامحها حين دخلت الغرفة فوق الأربعين ببضع سنوات. وقبل مغادرته مباشرة، كانت أصغر منه بأكثر من عشر سنوات. ما سرى في الجسدين هزّها وأمطر عمرا من الجفاف والجفاء، وأعادها سيرتها الأولى، صبية تضحك، وتفاجأ بأنها تحب جسدها أكثر من شاب يقول لها إنها تحظى بجسد فاتن، وكان صادقا غير مضطر للمجاملة وهو يودعها. وحين رآها في القاهرة كانت في سن متوسطة، أقل من عمرها وهو يلمحها لحظة اللقاء، وأكبر قليلا من سن غادرها فيها مصحوبا ببركة القلادة، "وتمت نعمة ربك" الذي وهبه لورا بعقل راجح يجعلها جميلة الجميلات، ومن دون أن تدري حفزته على الشغف بالمعرفة، وألهمته فضيلة القلق، فما أن ينتهي حديثهما حتى يكون قد سجل كلمة أو جملة، ثم يبدأ بحثه عن معناها، وسياقها التاريخي، وتأثيرها المنتهي أو المتواصل في تفاعله. وما كان معقولا أن يكون أقل من لورا إلماما بثقافته العربية وما حولها من ثقافات شرقية، وليس عذرا له أنه محام، لكي يتكاسل عن طلب المعرفة.

t.me/qurssan

- كنت مهموما بتحصيل معارف في القانون، ولا علاقة لي بما هو أبعد من دراسة الحقوق. سخرت مني لورا في بداية محادثاتنا، قبل اللقاء المباشر، وهي تشير ذات ليلة إلى كتاب "القانون" لابن سينا، وقلت: لم أعثر عليه في المراجع القانونية، فقالت إنه كتاب في الطب.

يتأمله أنيل، ويتخلى عن صمته، ويوجهه بسؤال محيّر:

- أحرجتك لأنها امرأة فكيف تكون أوعى منك؟ أمْ لأنها أمريكية فكيف تتفوق على مصري؟

لا يبحث المايسترو عن إجابة، وإنما يفكر في السؤال نفسه، فيلاحقه أنيل بآخر:

- هل أحرجتك لأنها، من غير قصد، كشفت جهلك بتراثك؟

تغيظه كلمة "الجهل"، ويأسف على مصادفة لا يذكر بداياتها أوقعته مع هؤلاء الوافدين، ويكاد يضبط نفسه يمارس الاستعلاء، وهو أيضا زائر عابر، ضيف قادم لمهمة بدعوة من صديق، سائح ينفق من أمواله، ولا يخضع لرحمة كفيل، ثم ينتهي به الأمر موصوما بالجهل من شاب هندي لا يعرف الكاما سوترا.

ويغنيه نواف:

- الجهل كلمة ثقيلة يا أنيل، لم تشرب نبيذا كافيا يجعلك تقول هذا السخف.

t.me/qurssan

يجزى الشاب، ويعمد المايسترو إلى تخليصه من حياء التجاوز، فيقول إن لورا حين عرفت حبه للنبيذ أرسلت إليه صورة إحدى صفحات كتاب "الحيوان" للجاحظ، عنوانها "أثر النبيذ في عمر الإنسان"، إذ أحصوا عشرين فتى من قريش، وعشرين فتى من ثقيف، متجاورين في السكنى، "من الموفرين على النبيذ، والمقصورين على التنادُم"، كما أحصوا مثل هذا العدد لأشباه هؤلاء في السن، ممن لا يذوقون النبيذ، ولا يعرفون شرابا إلا الماء، فوجدوا "بعد مرور دهرٍ عامّة من كان يشرب النبيذ حيا، ومن لا يشربه قد مات عامتهم". أطال النبيذ الأعمار مرتين، طولا بالعمر الطبيعي، وعمقا بالاستمتاع بحياة أكثر ثراء وإشباعا.

يسخر نواف:

- يبدو أن لورا عثرت على تلميذ يستجيب، ويُشبع في نفسها الحاجة إلى القيادة.

يرد المايسترو بحدة غير مألوفة:

- أنت تعلم أن الإنسان عدو ما يجهل، ولعله أيضا عدو من يجهل. لورا ذات منصب أكاديمي مرموق، وفي ميشيجان عرب كثيرون، ولم تكن تبحث عن تابع، وإنما عثرت على ندّ أعاد اكتشاف فضيلة القلق، باتصال أفكار لورا بما كان يجهله في نفسه، فدرس واجتهد ولم يكابر.

يصمت ثم يسأل ويجيب:

t.me/qurssan

- أتعرف بم وصفتني؟ قالت إنني أسرع من عرفتهم شغفا بالمعرفة، وإنني تلميذ تفوق على أستاذته التي تصير في كثير من الأحيان تلميذة، وتستفزني لكي أطرح أفكارا تدفعها إلى إعادة النظر في قضايا كانت من المسلّمات.

يتأمله أنيل بإعجاب هذه المرة:

- أنت محظوظ يا مايسترو، حتى في المخاطرة بحياتك كنت محظوظا، وبلغت شاطئ النجاة، "وتمت نعمة ربك" كما تقول دائما. هل رسمت تخطيطا لحياتك بهذه الدقة؟ كيف تنجح وتسافر وتغامر بحياتك ولا تبالي بالعواقب؟

يشير إلى السماء، ويحمد الله:

- كل بقدر، مقدّر ومكتوب، "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، هذه حقيقة يعرفها نواف، ويؤمن بها.

من الدهشة يصفق نواف، ويلقي زجاجة النبيذ في الماء، ويقول إن نصف زجاجة من النبيذ الأحمر ليس خسارة في السمك:

- حيرتنا يا مايسترو، لا نعرف هل أنت شيخ أمْ داعر؟ قديس أمْ إبليس؟

- لا قديس ولا إبليس. حتى إبليس نفسه، إذا افترضنا أنه مخلوق غير أسطوري، فهو كائن مأساوي، ذاهب إلى مصير قدّر له أن ينتهي إليه.

t.me/qurssan

. هنني لورا إلى ما ذكره القرآن عن نبل إبليس، وحرصه على ألا تراق على الأرض دماء، ولهذا رفض السجود لمخلوق توقعت الملائكة أن يفسد في الأرض، ويسفك الدماء.

- أنت توافق إبليس في رفضه السجود لآدم؟

- لا موافقتي تفيده، ولا رفضي لمنطقه يضره. حتى الله في علاه لم ينقض معطق إبليس في رفض السجود لآدم، ولم يدحض الحجة حين جادله إبليس.

لا يعنى أنيل وتسو بهذا الكلام. ويبدي نواف ضيقا، ويخبط المجذاف في الماء، لعل المياه المالحة تضرب وجه المايسترو؛ فيفيق من التمادي في السفسطة:

- لا تدري لعل الله يرسل من الماء أحد جنوده، حوتا يقلب القارب فنغرق جميعا ويأخذنا بذنبك. هل أصابتك لورا بلوثة لا تفرّق معها بين ما يجوز وما يحرم؟

- قلما نتطرق إلى الأديان والشرائع، وإذا حدث فللعقائد قداسة، لا نناقش العقائد ولا تخضع إلى التجربة والعقل. حين أرسلت إليّ صفحة من كتاب "الحيوان" بحثت عن نسخة ورقية، واقترحت عليها أن تفكر في تأليف كتاب عن المصادفات، وكيف غيّرت مسار التاريخ، تاريخ الأمم والأفراد أيضا، واستشهدت بمثال ذكره الجاحظ في "الحيوان"، وبطله "الدّلال"، ذلك الموسيقيّ المسكين.

t.me/qurssan

يناديهم جميعا للاستماع إلى مأساة شائقة، نتجت عن حرف أسيئت كتابته أو قراءته، ليس حرفا وإنما نقطة تضاف فتميت، وتُهمل فتحيي. وكان ابن عبد الملك بن مروان، الذي يحكم العالم الإسلامي من دمشق، قد أرسل إلى والي المدينة كتابا جاء فيه "أخْصِ مَن قِبَلك من المخنثين"، فقرأها الوالي "أخْصِ"، أو قرأها له من أراد الانتقام من المخنثين، فأمر بإخصائهم، ومنهم "الدّلال"، وكان من أمهر المغنين، "ظريفا جميلا حسن البيان، من أحضر الناس جوابا وأحجهم" كما قال الأصفهاني في كتاب "الأغاني". وكان "الدّلال" نجم زمانه، يعشق النساء والغلمان، مقبلا على الملذات عاشقا للحياة، ولا يؤذي أحدا. ولعل قارئ الكتاب كان عنّينا فحقد عليه، وتعمّد قتله بحرمانه من متعة الفحولة. وأعلن "الدّلال" هزيمته، وقال بعد إخصائه، وتشويه هويته الجنسية: "الآن تم الخنث"، فأي قسوة في امتلاخ خصيتيْ إنسان!

لا يجزع نواف. يرتدّ إلى تاريخه البدوي، ويقول إن "الدّلال"، وأي مخنث، يستحق هذا العقاب.

- في مجتمع إسلامي يجب ألا يسمح لهؤلاء بإشاعة الفاحشة.

يحتدّ المايسترو:

- انتظرتك أنت بالذات، لأنك من ضحايا الظلم التاريخي، أن تتكلم بالعدل، وألا تدافع عن جريمة الإخصاء.

t.me/qurssan

- لا يليق بالرجل أن يشيع الخنوثة، ويخضع بالقول، ولين الكلام؛ "فبطمع الذي في قلبه مرض".

- الفقهاء لم يجرّموا الخنوثة، هذه طبيعة أكره عليها أصحابها، فالْتبست هويتهم الجنسية. وفي العالم المتحضر يُسمح بالعبور الجنسي لمن يشتبه بهويته.

يقول المايسترو إن الحسم الجنسي بحد السيف ونقائه غير قائم، ويقص حكاية استعجال "يونيا"، لما أرادت للجنس البشري سرعة إعمار الأرض، ولم تنتظر أن يتوالدوا من أب واحد وأمّ واحدة، فقامت بتسوية كل عضو بشري منفردا، ونضج عدد كبير من رؤوس الرجال ومثله القلوب والأكباد والأذرع والسيقان. كما سوّت عددا مماثلا من أعضاء النساء، واستدعاها ديونيسوس إله الخمر، فذهبت مع غيرها من الآلهة، وطعموا وشربوا وطربوا. ثم عادت إلى الأعضاء والخمر تدير رأسها، ولم تستطع أن تميز أعضاء الرجال من أعضاء النساء، ولم تنتبه وهي تضع قلب امرأة في جسد رجل، ورأس رجل لجسد امرأة. ثم نفخت الروح في الأعضاء، فنهضت أول جماعة من البشر، ومن ذلك الالتباس الأزلي يحنّ العضو أحيانا إلى أصله، فتجد في الرجال من يرقّ قلبه الذي هو في الأصل قلب امرأة، كما لا يخلو سلوك البعض من النساء من غلظة وخشونة؛ وفاء من قلب الرجل الذي زرع بالخطأ في جسد امرأة.

- ومن دون رغبة، توارث البشر تلك الطباع، وليس لأحد خيار في

t.me/qurssan

ما أكره عليه. فهل نقتله حين يستعيد وعيه، ويقرر ويختار؟

يصمت نواف، ويتساءل المايسترو:

- هل وثّق أي مصدر تاريخي أن أحدا من عموم الناس اشتكى من أذى "الدّلال"؟

يأسفون على مصير "الدّلال" البائس، ولا يولون الضحايا الآخرين شفقة؛ لأنهم مجرد أرقام، ولو حفظ التاريخ اسما لأي منهم لحظي بترحّم تناله روح "الدّلال". إلا تسو الذي يؤكد أن الأمر ربما لم يكن خطأ في قراءة حرف، ولو كان كذلك لأمكن إصلاحه عقب تنفيذ الإخصاء في أول رجل، ووصول الخبر إلى الخليفة، وكان سيسارع إلى تصحيح التصحيف، فلا تدرك الكارثة آخرين من المرجح أنهم لم يخضعوا للإخصاء في اليوم نفسه.

يستهينون بفكرة إصلاح الخطأ؛ فما يستأصل من الجسد يفنى، وتبرق عينا تسو بالشجن والتحدي:

- لو كانوا في الأرض المقدسة لخضعوا لجراحة تعيد إليهم رجولتهم.

يتبادلون نظرات الإنكار، ويتناول نواف الزجاجة، ويدعو تسو إلى مدّ كأسه التي لم تفرغ بعد، ويطلب إليه أن يكف عن التخاريف:

- ابتلينا الليلة بمن يفتي في حكمة الله ويمتدح إبليس، وبمن يفتي في الطب. رحمتك يا رب.

t.me/qurssan

10

في العتمة تصعد أضواء من داخل اليخوت ومن سطوحها، وتسيح في أذان العشاء، ولا تكفي لإنارة أفق هذا الخليج الأقصى. تظل أنوار اليخوت سهاما تذوب ولا تصل. وهناك أيضا أضواء تنبعث من بنايات بعيدة تستطيل وترشق في السماء، أمْ أن السحاب يهبط ويحيطها ويسندها، فيمنع ميلانها، وتصمد لرياح أول الليل.

يحزن تسو لسخريتهم من فكرة علاج الإخصاء، إذا وقع إنسان عن طريق الخطأ ضحية له، وحسنت النية أصلا في العلاج. فيسأله نواف:

- ما لكم أنتم بالطب والجراحة؟ أنتم بشر طيبون، ضحايا يحلمون بعودة لا تبدو قريبة، فاستمرأوا رهبنة لا يجدون غيرها عزاء.

t.me/qurssan

يردّ تسو في تأدّب:

- رهباننا ليسوا بلهاء هاربين من الحياة أو كارهين لها. لا يكبتون أشواقهم ليتفانوا في عبادة رجل يقولون إنه صلب قبل أكثر من ألفيْ عام.

يبتسم المايسترو:

- لو أن لورا هنا الآن لغضبت من هذا الافتراء؛ فلا أحب إليها من السيدة مريم إلا ابنها المسيح.

ويتبع:

- كانت لورا ستتهمك بعبادة الدالاي لاما، ممثل الله في الأرض، صاحب القداسة الدينية والدنيوية.

- نحن نحبه بالفعل، ولنا عقيدتنا التي لا تسيء إليكم أو إلى السيدة لورا. من عقائدنا أن الجحيم، على سبيل المثال، ساحة باردة لا دفء فيها. والجنة هي الحر العزيز، وندعو للآخرين بأن تدفئ قلوبهم روح بوذا. وأما جحيمكم فهي نار نتمنى أن ننعم بدفئها.

ينصت المايسترو، ويمسك كفيْه ويحييه، موجها كلامه إلى نواف:

- هذا البوذي تسو يقول الحكمة، ينطق بالحق. وكل إنسان تبعا لعقيدته على حق، ومن المهم أن يؤمن بأن الآخرين أيضا على حق.

t.me/qurssan

فيسأله نواف، وهو معرض عنهم ينظر إلى الماء، ولا ينتظر إجابة:

- بما في ذلك الإيمان بالقدرة على إعادة الرجولة إلى خصيّ انتزعوا خصيتيْه؟

فيغمض تسو عينيه، ويعطي ظهره لليابسة، ووجهه إلى مياه الخليج، نحو بلاده في الشرق البعيد، في أقصى الأرض وأسماها وأقدسها كما يعتقد ويؤكد. ويحكي ما وقع ذات يوم لشاب، والأدق ما وقع من ذلك الشاب، وكان يناهز العشرين، واستبشر بشمس ضنينة، فخرج لبعض شأنه، تدعوه فتوته إلى الاستمتاع بالصيد، والعثور على حيوان هوى فصرعته الصخور، فلا تلومه نفسه على الرجوع به إلى البيت. مثل هذه الحيلة القدرية ستار نفسي يعفي الناس من وطأة الشعور بذنب الْتهام ذي روح، وإن ظلوا يأملون في شفائه، ثم يصلون لروحه، قبل الإقدام بخجل على أكله، ويحضرون راهبا يصلي بهم على جسد الحيوان الصريع، آملين أن تنزل روحه على هيئة أفضل في حياته التالية، وتحلّ في جسد فتيّ في نسخة جديدة ستشملها صلوات الرهبان؛ لحمايتها من إصابات متوقعة في الرحلات الطويلة.

كان يوما عاصفا، اشتدت فيه ريح نقية، عجب لها الشاب المزهو بنفسه، وقد نوى اختبار رجولته، كما قال في ما بعد، والانتشاء بحليب فاجأه يوما كما فاجأه هذا العصف الثلجي، وكاد يلقيه في هاوية، لولا احتماؤه بفجوة بين صخرتين. ولما هدأت العاصفة فتح عينيه على بياض

t.me/qurssan

رحب، كل في الخلاء أبيض يكسوه الثلج، وقد انكسر معظم ما تجمد في بداية هبوب الريح، فهذه أذن حيوان لم تعد إلا تجويفا ثلجيا يتدحرج، ثم يلتصق بكتلة ثلج تجتذب ندفا وتصير كومة بيضاء، وهذا ذيل حيوان آخر ينزلق في موجات ثعبانية، ولا توقفه إلا صخرة ثلجية.

التجويف حمى الشاب من تراكُم الثلج الذي يحفظ الجسد ويسلب الروح، ولكنه لم يكن وفيا بحفظ الجسد كله، ففي هدوء العاصفة استطاع الفتى انتزاع قدميه، ونفض الثلج عن يديه، ونسي تجربة نشوة الرجولة، وزهد في الحلم بالعودة بحيوان ولو صغيرا، وأسرع إلى البيت، فرحا بالنجاة من عاصفة تواجهه من جديد في نوبات، وهو يتحداها بقوة الرغبة في الحياة، ويهزّ يديه وقدميه بعنف فيسقط عن أطرافه الثلج، ويستعجل الهروب من حصار الريح، ثم يفاجئه هجوم مقذوفات ثلجية تغربل جسده، وتكبر تدريجيا وتلتصق، وتصير غطاء يكسوه، ولا يشعر بأطرافه؛ فلا يفكر إلا في الرجوع فائزا بحياته، سالما لا ينقصه طرف أو إصبع. ويحاول أن يقبض كفيه، وهما كتلتان تجمدتا، كل منهما رأس مسمار ثلجي، لا يبرز منه إصبع ولا يتخلله فراغ.

بهاتين القبضتين طرق الباب فانفتح، وكان أبواه ينتظران في قلق عليه، ويحتميان من الريح بالباب. أزاحت الأم الثلج برفق عن وجهه؛ خشية أن يسقط الأنف، فما أسهل أن ينكسر عضو بارز متجمد.

أعاد إليه الدفء تفاصيل الكفين والقدمين، كلما بلغ الدفء طرفا نبتت

t.me/qurssan

فيه الأصابع، وجرت فيها الدماء وتحركت. ونزع ثوبه، فلم يجد مخلوقه الذي شهد الخلاء تجربة الزهو برجولته. صرخ الفتى صراخا يتخطى درجة الألم، لا يعنيه الألم، ويذهله انبثاق الدم من موضع الشيء المختفي. ولم يكن الاختفاء انكماشا داخل الجسد يمكن أن يدفأ فيستطيل. زعق الفتى بكل ما يملك من عزم الحياة، وأعلن أن شيئه انقطم، ولم يمتلخ من جذره، بل انكسر من سطح الجسد، وبقي جذره يتفجر منه الدم، ويخضب الساقين. رأى الفتى، من قبل، شجرة ترشح دموعا على فراق ساقها المغادرة، وقد انكسرت بجنون الريح أو قسوة البشر، ولم يكن في الخلاء بشر قساة أو طيبون، فلا شك أنها الريح.

كتموا الدم الغزير، واستدعوا راهبا جراحا، عرف من الفتى كيف مضت رحلته، وآخر مرة داعب شيئه من تحت الثياب، والعنقود أسفله في انكماش وقاه من مصير الشيء الفقيد. وحمله أبوه، وأقعده فوق حمار وساقاه في اتجاه واحد، وبين فخذيه خرق ثبّتها الراهب بإحكام جراح، وأدفأوا الفتى بأسمال وهو يرتجف من البرد واليأس، ولكن الأمل يوقظ ذاكرته، فتحتد ويتذكر مسار العودة التي صارت طريق الذهاب إلى تلك الفجوة بين الصخرتين. وبعينيْ صقر تحرى الراهب مواضع أقدام يمحوها دفء أذاب الثلوج، ولا بد أيضا أن يذيب ثلجا جمّد عضو الفتى، وسهّل كسره بيده، في انفعاله وهو ينفض الثلج عن جسده. وقبل خطوات من الصخرتين عثر الجراح عليه دافئا نابضا، مصبوغا جذره بدم لم يتخثر، ورأسه يكسوه

t.me/qurssan

بياض ثلجي خفيف. فوضعه ملفوفا في إناء ثلجي، ورجعوا مسرعين.

تمكن الجراح من تثبيت الوتد الرخو، والفتى هو يتألم ألما لا يقل عما يشعر به أبواه. ثم وعد بالمرور عليه كل صباح للاطمئنان على عودة الدماء إلى التدفق فيه. وبمضيّ الأيام لاحظوا تراجع الجزع، وارتسام التفاؤل، والابتسامة تنتقل عدواها من الفتى إلى رجل اتخذ صفة الراهب لا الجراح، وإلى قلب أب اطمأن على ابنه، وسمح لنفسه بالتلصص عليه أحيانا؛ ليتأكد له ضخّ الدم إلى عضو صار قادرا على الانتصاب الجزئي، ثم كفّ عن التجسس، مكتفيا بما يراه على وجه ابنه من السكينة والثقة.

يصدق المايسترو رواية تسو، ولا يرفضها أنيل الأكثر انفعالا وتأثرا بما يسمع. إلا أن نواف يتحسس جبهة تسو، ويظن به خبلا، ولعل الخمر أدارت رأسه أكثر من اللازم نحو بلاده البعيدة، وجعلته رهيفا يمتدح رهبانا ساذجين، ويمنحهم امتيازا يليق بجراحين محترفين في مختبرات متطورة. ويصف الحكاية كلها بأنها تخاريف وأمانيّ يعزي بها تسو نفسه، وتسو يقسم بروح بوذا أنه صادق. ولا يعتقد نواف ببوذا أو الدالاي لاما، ويرهن تصديقه لما يعتبره لغوا بالبحث عن شهود، والاطلاع على أدلة تثبت الواقعة، فيصيح تسو بفخر:

- دليل؟

- نعم دليل، ومن دونه لا يوجد شاب، ولا عضو مفقود، ولا عضو

t.me/qurssan

رجع بكامل حيويته أو نصف حيوته. تخاريف.

يضرب تسو صدره:

- أنا الدليل.

- رأيت الشاب، أو عثرت على عضوه بصحبة الراهب الذي تقول إنه جراح؟

- لا رأيت ولا عثرت. ذلك الشاب "تيشي"، كان أبي!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

11

يصمتون غير مصدقين، ولا يستطيعون تكذيب تسو. يحار ويود لو يعترضون، ليسعى إلى إقناعهم. ويرتخي المجذافان في يديْ أنيل، ويشك تسو أنهم سمعوه، فيعيد كلامه الأخير، بجملة موجزة قاطعة:

- أنا ابن ذلك الشاب، ابن "تيشي" الذي فقد عضوه، وأعاده إليه جراح راهب في الأرض المقدسة.

يفكر المايسترو في ثقافة التبت وتقاليد أهلها، وعلومهم ومهاراتهم في الجراحة وتحرير الأرواح من قيود الأجساد، وقدرتهم على الاستبصار، والتخاطر عبر طاقات العين الثالثة وغير ذلك من العلوم والفنون والأحوال. ويسأل نفسه: كيف غاب هذا كله عن اهتمام لورا؟ أخبرته باهتداء أجداده

t.me/qurssan

المصريين إلى الجسد الأثيري الذي يمكّن صاحبه، من الإسراء إلى أقصى الأرض، ثم يعود إلى قرينه، إلى جسده البشري الذي ينبض ويحتفظ بحرارته، فيتحد الجسدان، بعد رحلة للجسد الأثيري تستغرق بالزمن الأرضي الشمسي عدة أيام.

- آمن أجدادك بالجسد الأثيري مرشدا للروح في العالم الآخر، ودليلها إلى جسد صاحبها في البعث.

في اليوم التالي، وكان قد بحث وأراد ألا يبدو أمام نفسه أقل معرفة بتاريخ بلاده، كتب إليها:

- أجدادي صنعوا مراكب عبروا بها الأطلسي، وشيدوا في بلاد صار اسمها أمريكا آثارا تشبه آثارهم في وادي النيل. ولم يتركوا لسكان بلادكم فلسفة مكتوبة، وهذا منعكم أن تطوروا العلوم.

رسمت له ابتسامة، وتمنت ألا يبالغ في أمر لا يثبت منه، وأمامه وأمام أمته ما يدعو إلى الفخر، من شواهد مكتوبة لا تبلغها شكوك، منذ فجر الكتابة المسمارية في سومر والهيروغليفية في مصر، والسعي إلى وضع ملامح للضمير البشري في مصر القديمة، وبعد ذلك اجتهاد حمورابي في إرساء القواعد القانونية الضامنة للعدل، وما أعقب ذلك من ربط الأرض بالسماء في مصر، وتجلياتها في طموح أخناتون.

ضجر مصطفى من لورا، وضاق بالشاشة التي تقذفه بمعارف ومعلومات

t.me/qurssan

ليس هذا وقتها. وسألته:

- أين كان العالم حين كانت المرأة في مصر تحكم إمبراطورية تمتد من منابع نهر النيل إلى بلاد الشام؟

لم يسألها من كانت تلك المرأة؟ ادخر ذلك لبحث يستهلك ليله، ولم ينم قبل أن يترك لها رسالة تتضمن إحدى ذرى الحضارة في الشرق، ويجسدها بناء المكتبات والإيمان بالمعرفة، واحترام قيمة التوثيق، بما فيه عقود بيع الأراضي وغيرها من المعاملات في بلاد ما بين النهرين. وفي ظلال الإمبراطورية الأكدية، ثمرة إحدى سبع حضارات بالعراق، عاش المئات من الكتاب والخطاطين. وسألها بصفتها باحثة أكثر منه جدارة بمعرفة الأسباب:

- لماذا لا يوجد نص مسماري في بلاد ما بين النهرين في مديح مهنة الكتابة، والإشادة بالكاتب الذي صنع له المصريون تمثال "الكاتب المصري"، ورفعوه مكانا عليا؟

ونام في الفجر، ثم وجد في الضحى ردا فيه إيضاح لما حظي به العلم في تلك البلاد التي كان فيها الملك يفخر بأنه "عالم". وسألته:

- هل وجدت أوجز وأصدق من قول شاعر سومري: "نحن الشعراء مطرودون من هذا العالم"؟ ولكن مصر أكثر حظا بحجارة صلدة خلدت، كتابة وتصويرا، الآلهة والملوك والفنانين والعشاق والكتّاب والطقوس الدينية والحروب، وحفظت تفاصيل الحياة اليومية من حلب الأبقار إلى حصاد المحاصيل وصناعة الخمور.

t.me/qurssan

قرأ الرسالة، وانتبه إلى أنه أهمل شغله، ولن تغطي كسله تلك الأموال التي عاد بها من مغامرته. وتحسس القلادة، وقربها إلى أنفه يتلمس عطرها الباقي، وقرر ألا يبيعها مهما يكن مضطرا. وتساءل: ومتى تنجز هذه المرأة أشغالها في الجامعة؟ وهو لا يعرف إلا أن اسمها "لورا"، ولم يسألها هل الصورة الثابتة في صفحتها الفيسبوكية تخصها؟ تجاربه مع صديقات وزميلات أن بعضهن يضعن صورة مجهولة أو صورة لإحدى بناتهن، ولا يبالين بفضول السائلين والمتلصصين. وإذا كانت أستاذة بالجامعة، فلم لا تضع صورة جديدة في مناسبة علمية أو عائلية؟ من أدراه أن اسمها لورا؟ أو أنها تقيم في أمريكا وليست جارة أو زميلة من هواة التلصص وطبخ المكائد؟ ولم يستبعد ألا تكون من تتبادل معه النصوص والنقاش امرأة، لعلهم طاقم مدرّب في مؤسسة مهمتها نسج علاقات، وجمع معلومات، تحت ستار يتسم بالجدية.

أيا كان اسمها أو صفتها، فهو ينوي ألا يبيع، أن يشتري وينصت، ويتحفظ في أي قول، وألا يشير إلى شأن شخصي، ويتجاهل أي استفهام عن أي أمر يجعلها تجفل وتبتعد. وصارح نفسه بأنه لا يحتمل ذلك، فهي تشغله بالفعل في النوم والصحو، وابتعادها سيترك فراغا وتصدعات في نفسه. ورأى أن يسألها سؤالا عاما لا مكان فيه لفضول شخصي، عن أحب بحوثها إليها، فقالت إنه دراسة عن جبران خليل جبران، ولن تفيده لأنها بالإنجليزية، وليته ما سألها؛ ففي تلك الليلة استبد به جبران، واستحوذ على الوقت كله، فهو الذي قادها في الصغر، ورسم لها حياتها، وإلى درجة

t.me/qurssan

نبرة حدد مصير العلاقة مع زوجها.

زوجها؟ للمرة الأولى تشير إليه. إشارة تبدو عابرة، ولكن أي امرأة ذكية لا تتكلم إلا بحرص، بدقة وحساسية تزن كل كلمة، وتعلم متى تتكلم، وطبيعة تأثير الكلمة على الطرف الآخر. هل كانت تنتظر سؤالا تلقائيا عن بحوثها، لكي تتخذه جسرا إلى ذكر جبران، ومن فوق الجسر تلقي هذه الكلمة التي دفعت مصطفى إلى التزام الصمت؟

كان يخطط لصيد، ويشيد في خياله صروحا، ويجتهد ليكون في مستوى يجعله أهلا للندية مع امرأة ليست مثل بقية النساء، أنس إليها واعتاد مجادلاتها. وفي لحظة تسدّ عليه الطريق بزوج تخرجه من رأسها إلى الشاشة. ولكن الإشارة لا تفيد حياة زوجها أو موته، ولا تعني أن بينهما تفاعلا أو قطيعة، ربما يقتصر الأمر على صيغة للتعايش، بدليل حضورها الدائم، وإتاحتها في أي وقت، يرسل إليها رسالة فلا تهمل الردّ الفوري، ولو كانت في محاضرة، تجيب باقتضاب وتستأذن في تأجيل الاستفاضة إلى الليل. وأحيانا تتأخر إجابتها أياما عن سؤال بعينه، ويظنها أهملته أو لم تنتبه إليه، ثم تفاجئه بأنها بحثت وانشغلت بالتحرّي. فهي مثال للدقة في أي شيء، حتى أنه تخيلها تُعمل عقلها في ممارسة الحب، فتحصي على زوجها عدد القبلات ومواضعها ومواعيدها، وتناقشه في توقيت بدء المناورات الكلامية الممهدة للحب ومتى تنتهي، تمهيدا لبدء الخطوة التالية. كل كلام وسلوك محسوب، ويخضع لانضباط منهجي.

t.me/qurssan

واصل الصمت، وتكاسل في التفاعل، وأغلق الطرق المؤدية إلى الزوج وإلى جبران نفسه. وتعلل ببطء الشبكة، وانتهت المحادثة.

بعد أيام ذكّرته بقوله إن أجداده لم يتركوا في بلادها فلسفة مكتوبة توثق العلوم، واكتفوا بتشييد أهرام بدائية، فعجز أهل البلاد عن تطوير علوم يجهلون فلسفتها وأسسها النظرية. وقالت إن تلك الأسس اختفت من مصر نفسها، واستولى عليها الإغريق بغزوهم مصر عام 332 قبل الميلاد. وكانت العلوم الفلسفية والهندسية والطبية ذات طبيعة كهنوتية، في نظام صارم للأسرار العليا، وتقتصر على الكهنة والعلماء في المعابد. وبسقوط مصر في قبضة الإسكندر تمت أكبر عملية سطو في التاريخ، جريمة الاستيلاء على حصاد قرون من البحث، ونسبتها إلى لصوص دخلوا المعابد المصرية في هيئة طلاب يدرسون، وخرجوا منها بالمنهوبات. فيثاغورث سرق نظرية المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية، وأرسطو أستاذ الإسكندر أتيح له الاطلاع على كنوز مكتبة الإسكندرية، ونشر معارف واجتهادات قال إنه تلقاها من أفلاطون الذي لم تكن له إحاطة بها، وفي "الجمهورية" المنسوبة إليه فصول من مخطوطات نجع حمادي. كيف يتاح لشخص واحد، في وقت قياسي، هذا الإنتاج الوفير؟

تساءلت لورا، وأجابت: لم يكن هذا اللص إلا أرسطو خلال سنوات صحبته لتلميذه الإسكندر في مصر. وكما جامل أفلاطون، فإنه لم يبخل بكرمه المخادع على سقراط ونسب إليه، من باب التمويه، مقولة "اعرف

t.me/qurssan

نفسك"، وهي نصيحة مصرية منقوشة، على جدار معبد مصري، يوجهها كاهن مصري إلى مريديه المصريين.

- عندي لك سؤال مصطفى.

- أي سؤال؟ أنت من يسأل ومن يجيب!

- لديكم النابغة الذبياني، وكل ثقافة قد يظهر فيها كل عدة أجيال نابغة، فرد واحد ذو ملكات استثنائية. ومن المستحيل وجود عدة نوابغ تفجر مواهبهم فجأة بعد سن الخمسين، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو الذي كان في الثانية والخمسين يوم غزا معابد مصر مع تلميذه الجنرال. ولا يذكر التاريخ اليوناني شيئا عن الشباب المبكر لهؤلاء، أو طبيعة انشغالاتهم الفلسفية، حتى الفلسفة في اليونان لم يكن مرغوبا فيها آنذاك، وتعرض البعض منهم لما تعرضوا له، فتخفّوْا واجتهدوا في السر.

توقفت عن الكتابة، وانتظرت تعليقا، فكتب إليها:

- وأين السؤال؟

رسمت ابتسامة وقلبا، للمرة الأولى تفعل هذا، واعتبرها بادرة طيبة، وقالت إن حماسة الاسترسال أنستها السؤال:

- كيف اصطنع الإسكندر ذلك التراث المنسوب إليهم، إلا إذا كان مشرفا على - أو شريكا في - السطو عليه بحيلة تغطيها القوة المسلحة؟

t.me/qurssan

لم يخفف السأم قلبٌ ترسله إليه، ولا تتبعه بكلمة لطيفة. لعن مصادفة أوقعت هذه المرأة في طريقه، وكره حرفيْ "Hi" اللذيْن فتحا إليها الطريق لتنفجر كل يوم في وجهه بكلام لم يكن يعنيه، ولم يبدأ الاهتمام به إلا لكي يجاريها؛ فلا يفلت من يديه صيد. والآن يودّ الهروب من فريسة يصعب تتبعها وملاحقة قفزاتها الجامحة. وكاد يسب اليونان والفلسفة ومصر القديمة وسومر ويضع أرسطو والإسكندر في ناووس جرانيتي، ويحكم إغلاقه، يرميه فيستقر في قاع البحر. ولكن شيئا غامضا ظل يدعوه إلى الرهان على ما بعد هذا الضجر.

لم يجب عن السؤال، وهي تعلم أنه لا يملك إجابة. وتذكّر طرفة، لعلها حقيقة، قالها له مضيف في طائرة خليجية، ردا على طلبه عصير برتقال. سأله المضيف ماذا تعني هذه الثمرة في اللغة العربية، فقال: "برتقال". فابتسم الشاب مزهوا بانتمائه إلى بلد يحمل اسم هذه الفاكهة، "البرتغال". ورسم مصطفى ابتسامة، ولم يجرؤ على أن يردّ التحية بمثلها، فيضيف قلبا. وانتظر أن تلومه على البخل، ولو بقلب إلكتروني. ولكنها خذلته، ولم تكفّ عن الشغب المعرفي، وسألته:

– تكلمني عن البرتقال والبرتغال؟ ولديكم في العربية، وهي من أحدث اللغات، تراث كتابيّ في الفقه والتاريخ والتصوف والآداب والفلسفة والعلوم السياسية والطبيعية أقدم وأغزر مما يوجد في أي لغة أخرى. هذا الرصيد العربي المخطوط أضعاف ما تحظى به أي لغة. وعلى الرغم من هذا الثراء،

t.me/qurssan

«إنكم تجهلونه وتنكرونه أو تتنكرون له. وتستعلي عليكم ثقافة مجاورة مثل الفارسية التي ليس لها منجز تدويني قبل القرن التاسع الميلادي، ويتباهون عليكم بذكر "الشاهنامه"، وعندكم "ألف ليلة وليلة" أعظم نص قصصي على الإطلاق في كل العصور واللغات.

وافقها، ولم يكن يملك إلا الموافقة، فأتبعت كأنها نسيت شيئا:

- وبالطبع لديكم جبران.. جبراني.

وأرسلت قلبا أحمر. اقتران القلب بالحمرة وبجبران رجف له قلب مصطفى. عجب لتسارُع النبض من الفرح، وكان قد زهد في تطور الكلام إلى ما هو أكثر من الكلام. ورغب في انتهاء المحادثة بهذا القلب، أن يكون ختاما حسنا لا يفسد سعادته به أي كلام.

يستعيد المايسترو تلك اللحظة، ويتوقف عن الكلام، وهم ينصتون إلى صمته، والقارب صامت عن الاهتزاز.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

12

يصب نواف زجاجة نبيذ فوق رأسه، ويهذي بكلام لا يعرف معناه ولا يفكر فيه، ويلعن حظا ربطه ببلاد تبخل عليه بجنسيتها الكاملة، ولا يعرف وطنا غيرها، ولم يغادرها أبوه وأجداده إلا إلى عمق هذا الخليج، للمساعدة في صيد اللؤلؤ. ويعجب لأمر هذا المصري العابث الذي لا يخطط ليومه أو غده، وكيف يحيا على الحافة، وأحيانا على بعد خطوة من الهلاك أو الجنة، وتصادفه أهوال ومباهج، فيعاشر رجلا وامرأته، وينال أجرا مثل أي داعر، وتهديه قلادة ذهبية. ثم يجد في طريقه الافتراضي أمريكية تطوف به التاريخ والجغرافيا، وتثير خياله وعقله، وتدفعه إلى تغيير مسار حياته. أي عدل في هذا العالم؟

t.me/qurssan

يجفف المايسترو النبيذ عن رأس نواف، فيبعد يده ويلوذ بالصمت، ويكادون يسمعون نهنهة أقرب إلى نحيب مكتوم تجلله كبرياء. وبعصاه يشير المايسترو إلى السماء، يرسم دائرة ثم دوائر، ويقول إن في الفضاء أرواحا تهيم، وصرخات استغاثة لضحايا منذ الأزل، وإشارات لا حصر لها ترسلها أجهزة مؤسسات استخباراتية، وأقمار صناعية، وقنوات فضائية، وسفن تجارية وحربية، وطائرات مدنية وعسكرية، ومحطات تقوية لاسلكية، وشركات اتصالات هاتفية، وتواصلا فائقا بين كائنات فوق أرضية، وغير ذلك مما نعلمه أو نجهله. وما لم يكن لدينا جهاز قادر على التقاط الشفرة، فلن نعرف أن هذه الأجواء ملغومة بهذا الزحام من إشارات يسبح كل منها في مداره.

ينهي المايسترو كلامه؛ فلا يخفى عليه توهان نواف في هذا الملكوت المعقّد، وينظر إلى عينيه ويسأله:

- فهمت يا نواف؟

- فهمتك ولكني لا أفهمك. أكاد أشك فيك، إما ساحر وإما كاذب، أو...

لا يعرف كيف يكمل الجملة، فيساعده المايسترو:

- أو قدريّ. أنا قدريّ يترك نفسه للتجربة، ويوقن بأن كل شيء مكتوب، ولا يمنع حذر قدرا.

t.me/qurssan

يعبّ نواف الكأس دفعة واحدة، يدلقها في جوفه معترضا على الكلام، ولعله يصدقه ولكنه يستنكره:

- داعر أمْ شيخ يجيد المناورة، ويقنعنا بصدقه في الحالتين؟

يذهب المايسترو إلى أنيل، ويطلب رفع المجذافين من الماء، ويتعاون معهما تسو. ويستطيل المجذافان بموازاة القارب الذي يهتز ثم يستقر. ولا يعود إلى ترنحه إلا كلما تحرك أحدهم من جهة إلى أخرى:

- أنا هذا القارب، أذهب مع الموجة العليا ولا أقاومها. أنتظر حتى يستقر قاربي، ثم أستجيب للموجة التالية.

- شباكك لا تنتشل إلا النساء!

- أقدار، مصادفات. المرأة التي قالت "لا تسئ بي الظن" صدقتها؛ فلم تكن مضطرة إلى أن تكذب عليّ، أنا الغريب الذي تعلم أنها لن تراه، وأن تدافع أمامي عن نفسها بإيضاح أن أحدا قبلي لم يمسّها. وأصدق لورا المفتونة بجبران حتى كرهتُه، وفي لحظة تمنيت أن أضمه إلى أرسطو والإسكندر، وأتخلص منهم في قاع أعمق من هذا الخليج الضحل.

يغمض المايسترو عينيه، ويتذكر احتفاظه بالقلب الأحمر المجاور لاسم جبران، ولم يشأ أن يكتب شيئا؛ طمعا في أن يبدأ غدا حديثا جديدا، متعللا بهذا القلب، طامعا في أن تمنحه هذه الإشارة القلبية الرمزية ثغرة لترويض هذه المرأة، وإرسال إشارات تحتمل الجد والهزل معا، لإغرائها بشيء آخر

t.me/qurssan

غير البحث. إذا غضبت اصطنع الرصانة، ولو استجابت فيمكنه أن يتهادى إلى حيث تنتهي به اللعبة. ولكنها في الصباح لاحقته بإيضاح قرأه سطره الأول وأصابه بالملل. قالت إنها تركته في الليل، وهي مطمئنة إلى أن أقدم مخطوطة فارسية كتبت في القرن التاسع الميلادي، ثم امتنع عليها النوم، وحملها الأرق إلى البحث عن فجر المنجز التدويني الفارسي، وعلاقته بالحضارة الإسلامية، ولم تصل إلى يقين، وستوافيه بما تعثر عليه.

فأدرك ألا فائدة ترجى من العبث مع امرأة لا وفاء لها إلا لعقلها، وتهمل ما دونه. وكتب إليها رسالة وداع، ثم محاها. ثم كتب أنه سيغيب أياما خارج القاهرة، ولن يتيسر له التواصل معها، ولم يرسل الرسالة. وأخيرا اهتدى إلى رسالة خالية من الكذب، يعترف فيها بأنه منذ البداية كان يعبث، ويستجيب بدافع الفضول والأمل في نيل امرأة لا تزال تستعصي عليه، ولا تترك طريقا مفتوحا للوصول إليها. وأوضح أنه سيهتم في الفترة القادمة بكل ما له صلة بعمله في مجال القانون. واختتم الرسالة بما يشبه الاعتذار والوداع:

- ولا أظن هذا يهمك.

فقرأت الرسالة وأجابت:

- أريد تصويب معلومة كتبتها إليك الليلة الماضية، فأقدم مخطوطة فارسية في العالم لا ترجع إلى القرن التاسع الميلادي، وتاريخها الأقرب إلى

t.me/qurssan

الدقة يدور حول عام 1056 ميلادي (447 هجري)، وعنوانها "الأبنية عن حقائق الأدوية"، ومؤلفها الكيميائي أبو منصور علي الهروي، وهي مكتوبة بخط الشاعر أسدي طوسي، والكتاب محفوظ في المكتبة الوطنية في فيينا.

ضاق بالنقاش الذي ليس نقاشا، وقرر لو استطاع أن يضع أبا منصور الهروي مع جبران وأرسطو والإسكندر، ويسدل عليهم ستارا لا يسمح لأي منهم بالظهور. وأراد أن يوقف استرسالها بأي كلام ينهي حديثا من طرف واحد، فكتب:

- ولكن هذا عنوان كتاب عربي.

- اعتاد الفرس اختيار عناوين باللغة العربية لكتبهم. توقعت ألا تفوتك هذه الملاحظة، أنت لماح مصطفى.

- اسمعي يا لورا. لا أحب أن أسمع من يناديني بدون "يا" النداء.

كان ضائق الصدر، وهي بدأت تهدأ قليلا، فداعبته:

- كيف أسمعك؟ أنا أقرأ حروفك عبر هذا الفضاء، وأراك أيضا. وتوقعت أن تسألني عن "الشاهمانه".

- لم أقرأها.

- هي جماع الشرف الثقافي والتاريخي الفارسي، والبعض من المستشرقين يراها في مستوى "المعلقات" العربية. لا تشغل بالك بأهميتها؛ فعندكم

t.me/qurssan

"ألف ليلة وليلة" فوق مستوى المقارنة "إلى يوم يبعثون"، ورسمت قلبا وابتسامة.

حيّرته المرأة؛ تستشهد بالقرآن في جملة قصيرة تبدؤها بكلمة "جماع"، وتنهيها بقلب وابتسامة. هل آن له أن يطرق الباب، فليجرب:

- أتعبت قلبي!

- سلامة قلبك يا قلبي.

انتشى بمفاجأة زادته ارتباكا. هذه امرأة أخرى تكتب على سجيتها، ولا تخشى أي الْتباسات إيحائية، حتى أنه صمت ولم يجد ردا، وهي صمتت، فظنها ندمت على مناداته "يا قلبي"، وانتظر أن تمحو الرسالة، ولم تفعل، واستمرت في الدردشة:

- أفخر بمعرفتك، لم أتبادل من قبل مثل هذه الأحاديث مع أحد. لا زميل في الجامعة ولا صديق في هذا الفضاء حفزني كما تفعل، ولو بردود أفعالك. تبدو صامتا في بعض الأحيان، ولكنك لست كذلك، ومعك أعيد اكتشاف نفسي، كأني أتأملني في مرآة.

أراد استفزازها:

- للعرب أمثال غريبة، منها رغبة المرأة قليلة الحظ من الجمال في التحقق والنبوغ العقلي.

t.me/qurssan

- ولكنني جميلة، سوف أرسل لك صورة بصحبة ابني يوم تخرجه في الجامعة.

مفاجأة جديدة بعد ذكر زوجها، مصادفة أو قصدا، تشير إلى سنها التقريبي، فوق الأربعين.

- مبروك التخرج.

أعجزته الصورة عن الكلام، حتى التغزل في ملامحها. أن تكون بهذه الدقة والتناسق والرشاقة، والشاب الخريج بجوارها يبدو زميلا، وليس في الصورة رجل، فأين الزوج؟

- أنت؟

- فمن تكون! طبعا أنا وهذا ابني، تخرج وغادر سريعا إلى نيوزيلندا، شغوف بالعلوم مثل أبيه، ولا صبر له على ما شغلني ويشغلني.

- نعم.

- نعم ماذا؟ أحبطتك الصورة فأخرستك عن التعليق عليها بكلمة مجاملة؟

- مثلك لا تحتاج إلى مجاملة، تستغني عن أي كلام سيبدو غير لائق بجمالها.

- لم تخلق امرأة، مهما تكن قدراتها الجسدية والعقلية والروحية فائقة، زاهد في هذه الحاجة.

t.me/qurssan

- لديّ يقين بأنك هذه المرأة، كأنك أمة من النساء.

- أمة من النساء.. تضحكني لغتك مصطفى!

- ويزعجني تجاهل "يا" النداء. وأنا صادق في قول لا مجاملة فيه ولا غزل. أن أقول "أنت أمة من النساء" فهذا تسجيل لحقيقة، تقرير موضوعي عن عقل جميل لي معه تجربة ليست طويلة زمنا، ولكنها عميقة تأثيرا. وجاءت صورتك، التي لا تنتبيهن فيها إلى الكاميرا، لتؤكد مفهوم الجمال والكمال، وتثبت قدرة الله على كل شيء.

سكتت. ثم أخبرته أن هذا الكلام زلزلها. دمعت عيناها وفاجأتها الدموع، وكانت حياتها جافة، وظنت روحها عطبت منذ زمن، وتعجز عن مدّ عينيها بمثل هذه الدموع.

- هذا أوجز غزل أسمعه، نسيت الغزل منذ كان ابني صغيرا. هل لأنني لا أسمح به، أمْ لأني لست مستعدة لاستقباله؟

وأتبعت:

- أنا مضطربة الآن، أصابعي ترتعش، ولا أريد الكتابة، فلنتكلم.

جاء صوتها واضحا، حادّ النبرات، مستقيما ومنضبطا. اعتاد سماع مثله من المستعربين في الفضائيات. قالت إنها أرملة، وقبل الترمّل طلقت، واقتسمت الشقة مع طليقها الذي كان أستاذها ثم زوجها، وبين نصفيْ الشقة عاش ابنهما. وقبل الطلاق الفعلي جرى طلاق نفسي وجسدي لسبع سنوات

t.me/qurssan

.ه بها، فلا كانا زوجين ولا صارا مطلقين.

بدأت تلك السنوات السبع ذات غروب، بشعاع شمس يخترق الستارة، . .طرة طولية تزاحم العتمة، فأحكمت إغلاق الستارة، وانسحب الضوء ال اهن عن قدميْ زوجها، وأحالت الغرفة إلى ليل، وتمددت بجواره تتكلف ال.ماس، وتعطيه ظهرها وتترك بينهما مسافة، وهي مدفوعة بغلبة الشوق، .اك الحنين القديم وفاء لاشتهاءات الجسد. قررت قهر عقلها الرافض الامسة تخشى أن تؤجل حسم الطلاق القانوني. لم يكن شوقا من القلب، .اك ذكرى، فما جرى أن الجسد تمرد، وفي لحظة هزم العقل والإرادة . الكبرياء. كان ساكنا وهي تنتظر أن يتململ، وتتفاءل بحركة قدميه، وتحتك .بها في اقتراب محسوب، وصولا إلى اصطكاك يبدو عفويا للركبتين، وتودّ لو بضاء مصباح لتعرف أنه أيضا يقظ، وتلتقي العيون من غير تخطيط، وينهار الحاجز، ويقترب هو الآخر بالمقدار نفسه أو يزيد، ويعلن قولا أو فعلا أنه يريدها الآن. أمْ أنه زاهد كعادته منذ سنين، زهد استغناء وعجز، أو تعفف عما يراه ترفا بعد إنجاب الولد. دائما بينهما مسافة يتسلل منها البرد إلى روحها، تبدأ من السيقان والأرداف، وتتسع وتعلو إلى الكتفين. منذ سنوات لا تشعر بالدفء؛ لتسلل الهواء في هذه المسافة التي تستعصي على إحكام الأغطية، ويحتمي فيها جسد بجسد. ولا تحاول أن تستدير فتواجهه، ولكنها جرّبت ذلك المساء، في سلوك بدا تلقائيا لنائمة تحلم، وتنطق كلمات تتعمد أن تنثر حروفها فلا تنتظم في جملة مفهومة. وهو راسخ في نوم

t.me/qurssan

مصمت، لا يتراجع نحوها بظهره قليلا، ولا يتظاهر بالحلم ويستدير إليها مستجيبا لكفها التي أزاحت الغطاء، وهبطت برفق على رأسه، والتمست وجهه متجهة إلى عنقه وصدره، ورافق رحلة الكف ما أحس به اقترابا نحوه بصدرها، لم يرصد حركة لكتفيها أو لرأسها للالتصاق به، فتيقن بانتصاب ثديّ لامس ظهره. ولا يستطيع أن يتزحزح إلى الأمام هاربا من همهمات لا يردّ عليها بمثلها. توقعت أن يراعي احتياج جسدها، وأن يبادله بالمثل، يقظة أو ادعاء لحلم، ولو بإبداء حسن النية، تعاطفا واحتضانا إذا كان عاجزا عن إطفاء الشوق. إلا أنه كان يقظا أو لعله استيقظ، وأمسك كفها، بافتعال الحلم أيضا، ورفع ذراعها وأعادها من دون أن يلتفت، وأحكم الغطاء حول جسده، وأسلم وجهه إلى الوسادة.

المذلة كأنها تحدث الآن. أجهشت بالبكاء، واحترم مصطفى ضعفها، وأشفق عليها، وصدقها في اعتراف لم يسبق أن باحت به لأحد. قالت إنها تخجل من ضعفها مرتين.. مع زوجها تلك الليلة، وحين تذكره الآن، فتنكشف هشاشتها أمام رجل غريب يتأكد له قربه، وأنها تنتمي إليه وإن لم تجد تفسيرا مقنعا لما تشعر به.

- ربما كان نائما بالفعل.

صرخت:

- لا، أنا أعرفه كما أعرفني. أجاد تمثيل دور النائم بقدر ما أجدته وأكثر.

t.me/qurssan

ما قهرني أنه على يقين بأنني لست نائمة. كلانا يحفظ شريكه.

- قلبي معك.

- بعدها كرهته.

صمتت ثم استدركت:

- لم أكرهه، ولا أستطيع كراهية أحد. كل ما حدث أنني نفرت منه، ولم أعد أحتمل النظر في وجهه، وامتد النفور إلى كل الرجال، وإذا سمعت مجاملة، ولو عاقلة وصادقة، أشعر بوخزها لجسدي.

قبل أن يتحصن جسدها، استمد المناعة من رجل لا تعرفه في صالون تجميل. في تلك الليلة، ارتدت ثيابها، ولم يغب عنها أن تلمح ما حسبته مراقبة من زوجها بعينه المتحررة من الوسادة. سألها سائق التاكسي: إلى أين؟ فأجابت: أبعد مكان في المدينة، وتمنت لو أنها خالية البال وتتجول على الأقدام أو في سيارة وترى أماكن لا عهد لها بها، إلى أن رأت الصالون فأمرت السائق بالتوقف. كانت تريد أن تُسلم رأسها إلى يدي رجل، ولا تجرؤ على طلب ذلك من سائق التاكسي، ولا تعرف رجلا غير زوجها. ردت على استفسار الرجل طالبة أن يختبر شعرها ويفعل ما يراه أفضل، بتغيير لونه أو تجعيده، واستسلمت للمسات أصابعه مغمضة العينين. أرادت أن يمتد الوقت، وكلما اقترح شيئا حثّته على بديل يلائم لون بشرتها وتفاصيل وجهها. ثم أفاقت من الانبساط، وعلا صوتها وأمرته بإزالة

t.me/qurssan

شعرها. أسقط الحزن ذراعيْ الرجل إلى جواره، وأبدى أسفه وتعاطفه، وأوشك أن يعترض، فقالت بحزم: أريده "آلا جرسون". ولم يخفف هذا كدر الرجل.

صمت طويلا، وهي أحبت أن تسمع صوت مصطفى، ولا تريد شفقة أو عزاء. كل ما تطلبه هو الأنس بقربه. ولكي يتشجع ويتكلم، طلب الأمان، فناله وقال:

- كنت أظنك، قبل سماعك الآن، آلة تفكير، عقلا جبارا يدير ماكينات لا تتوقف عن ربط الأسباب بالنتائج والعلل بالمعلولات، وليس في الصدر قلب ينبض، وإنما موتور يغذي شرائح إلكترونية لا تكف عن العمل.

ضحكت. واستراح لأنها لم تضق بكلامه، ولأنه استطاع أن يغير مزاجها. وسألته:

- قبل الآن، والآن؟

- الآن، هل أطلب أمانا جديدا؟

أضحكها مرة أخرى ضحكة من قلب أنثى تتحرر من وقارها، وتطيع نداء غامضا يحثها على الإقدام. وحفظ مصطفى بصمات الحروف وشفرة الضحكة وهي تقول:

- أنت في حمى الأمان السابق، أمان ممتد المفعول.

t.me/qurssan

فتماسك واستعد لإطلاق الجملة دفعة واحدة:

- أتمنى الآن أن أحضن قلبك، من دون ثياب أو حجاب.

وانقطع الاتصال.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

13

- كانت ليلة حاسمة، تحوّلا مهمّا ومغايرا، منذ مصادفة حرفيْ "Hi".

يقولها المايسترو، ويعجب به أنيل، ويشعر نواف بالغيرة، ويؤكد أن المصريين غلبوا الشوام في حلاوة اللسان، ولم يكن يتوقع أن تكون ضحيته أمريكية تعمل أستاذة بالجامعة، ولكن السحر المصري عابر للمحيطات والصحارى والثقافات. ويضيف أنهم في الخليج كانوا يضيقون بأبطال الأفلام والمسلسلات الدرامية المصرية؛ لانجذاب النساء إليهم، وكن يعتبرن كل مصري نموذجا للشهم الدرامي.

- في الريال المصريين سحر يقلق.. على الأقل كان فيهم ذلك السحر.

يشكره المايسترو على المجاملة، ويتجاهل الغمز في إشارة "على الأقل

t.me/qurssan

كان"، ويلفت نظره لفظ "الريال". دائما يفهم كلام نواف، ولا يستعصي عليه، إلا هذه الكلمة التي فلتت من لسانه، فيسأله عن معنى "الريال"؟ ويوضح أن "الجنيه" وليس "الريال" هو العملة المصرية. فيقول نواف إنه يعني "الرجال"، وإنهم ينطقون هذه الكلمة وغيرها بشكل أكثر دقة من النطق المصري. ويظنه المايسترو يمزح، ويدعوه إلى نطق حرف "الجيم" بالصيغة القاهرية، بدلا من هذه الميوعة:

- الرجال هم الرجال، لا الريال ولا الدينار.

وأمام تمنّع نواف يسأله المايسترو:

- تستطيعون أن تسموا الدجاجة "الدياية"، فماذا تقولون حين تصلكم الرواتب الشهرية؟ هل تهمس موظفة إلى زميلاتها، أو ينادي أحدكم زميلاته وزملاءه: أبشروا وصلت "الأيور"؟

يعجب أنيل وتسو لوجوم نواف، ولا يفهمان شيئا، ولا يريدان المشاركة بالسؤال. ويغضب نواف الذي يحسد المايسترو على جرأته، وعلى حظ سعيد لا يخطئ الوصول إلى بابه، ويبحث عنه في الطريق، ذات عصا، وما أكثر العميان وعصيّهم في هذه البلاد، وقد عميت عنهم جميعا عينا رجل اصطفى المايسترو، واصطحبه ليخوض مغامرة مع رجل وامرأته. وبعد النجاة، عبر فضاء لا نهائي يتلاطم بموهوبين وعقلاء ومرضى ومهووسين ومطاردين ومطلوبين وباحثين عن أحلامهم، يصادف أستاذة أمريكية

t.me/qurssan

ذكية، ويحتال عليها بأناة وحكمة، حتى تنزع عن نفسها وجهها القاسي، وتصبح امرأة، مجرد أنثى.

يتشبع وجه المايسترو بغضب يمنع نواف أن يواصل كلامه. ويترقب ردّ المايسترو الحاسم:

- لورا ليست مجرد امرأة، أي أنثى والسلام. لورا زوجتي.

تتوتر الأجواء فوق القارب، ولا يتحرك لوجود المجذافين أعلاه، وثبات الحضور، كل في مكانه؛ فلا يتحرك أو يتأرجح. ولا يعبر طائر فيقطع غلالة السكوت بتغريدة أو استغاثة من طائر يطارده. ومن بعيد يقترب صخب موسيقى وغناء، ثم يختفي مصحوبا بأضواء تذبل، ثم تنطفئ في نقطة لا ترصدها عيون في رؤوس مخمورة لا تقوى على المجادلة. وأخيرا يقول نواف إن لديه أموالا تزيد على ما يملكه الثلاثة معا: المايسترو وتسو وأنيل، ولم تحقق له السعادة. وكان قد سمع من حكماء العشائر أن الملذة القصوى هي مثلث اللحوم، وأعلاه "إدخال اللحم في اللحم".

يسأله أنيل عن الضلعين الآخرين في المثلث، فينهره تسو:

- هذا يعني أنك فهمت الضلع الأول وهو "إدخال اللحم في اللحم"!

لا يتركهم نواف لتأويلات مثلث اللحوم، وينسبه إلى امرئ القيس في إجابته عن لذائذ الحياة: "أكل اللحم، وركوب اللحم، إدخال اللحم في اللحم". وفي الأول لا امتياز للبشر؛ فالحيوانات أيضا تأكل اللحوم. وفي

t.me/qurssan

الثاني لا امتياز للفتوّة؛ فيستطيع ثري عنّين امتطاء أغلى الخيول، والتباهي باقتنائها. أما الثالث فهو ذروة الملذات، أن يستمتع الرجل بامرأة وتستمتع المرأة برجل. ويبلغ الأغنياء في هذه المتعة حدا ينافسهم فيه العبيد والأجراء والوافدون والفقراء الذين لا يجدون عزاء إلا في افتراع جسد لجسد، استمتاعا أو قهرا عكسيا يغني عما لا يجدونه في الملذات الأخرى.

يشير المايسترو إلى نواف بالعصا موافقا:

- لذة شيوعية، ومنعا للحساسيات يمكن أن تقول: اشتراكية. لكل إنسان فيها حسب قدرته!

يفكر قليلا ويتبع:

- لكن فيها نوعا من الطبقية، فقدرة الفقير الجسدية تحكمها محدودية بدائل لا تؤرق الغني الذي يكون شيوعيا حقا، حسب حاجته، ثم يربك الثراء هذه المعادلات، فيستطيع الغني شراء القدرة بالتغذية الجيدة والأدوية المساعدة.

يغمزه نواف مرة أخرى:

- وشراء الريال إذا لزم الأمر أن يشتريهم.

يتجاهل المايسترو إشارته:

- تقصد الرجال! الذين حدثتنا عنهم قبل قليل رجال، أغنياء وفقراء، كلاهما يبلغ ذروة اللذة في "إدخال اللحم في اللحم".

t.me/qurssan

ينتبه تسو وأنيل إلى ما يخص اللحم، ولم يجد الكلام في الشيوعية وشراء الرجال لديهما صدى. ويكمل نواف شرحه لأضلاع المثلث، عن طبقة "بين بين"، من متوسطي الأهلية، متوسطي الغنى، البدون. هؤلاء لم يجربوا اطمئنان الطبقة العليا، واستبداد الطبقة الدنيا باعتصار المتاح القليل، ويظلون مذبذبين، "لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء".

يبتسم المايسترو. يكاد يوقف نواف؛ لخلطه شأنا دنيويا زائلا، بخطاب قرآني سابق على قوانين الهوية والاعتساف السلطوي والجنسيات المنقوصة. ولا يبالي نواف، ويذهب إلى تجربته الأولى مع النساء، واكتشافه أن ميراث القهر يتجسد في لحظة، وينزع عنه رجولته، ويحمد الله أن هذا كان بعيدا عن الوطن الذي لا يعترف به إلا نصف اعتراف، مؤقتا عند الضرورة، فيكون نصف مواطن. وقد حال البعد دون فضيحته كنصف رجل.

كان الفتى يتسلى بصنع تماثيل من رمال، وبقايا أقمشة، وليف النخيل، وكسر خبز يبلله ويصنع منه عجائن. ثم يركل التماثيل وتتناثر في الصحراء، وفي اليوم التالي يصنع غيرها ويدمرها. أحيانا يلهو بتفكيك الحبال ويعيد تشكيلها، فيصير الأسد خروفا، والجدي زرافة، والسمكة برأس غزال. وجذب انتباه أحدهم، واختبره ورشحه للسفر لتمثيل البلاد في معرض للفنون الفطرية في هولندا.

جهزوا وثائق السفر، ومن دون تخطيط جاءته فرصة تحقيق حلمه بالطيران، بالانعتاق وعدم الرجوع، بارتداء أزياء الخواجات. وفاجأوه بأن العرض

t.me/qurssan

يكتمل بالحفاظ على زيه الوطني، أثناء ساعات الزيارة، وأنه سيقدم تجارب حية للجمهور بصنع تماثيل من مواد خام سابقة التجهيز، أو يقدمها إليه الزائرون. لم يكن في تلك السن واعيا بدرجة كافية ليقول لهم: لو أنه "وطني" لاعترف بي، على الأقل في لحظة يحتاج فيها إليّ، ويختارني لتمثيله. وألهاه الفرح عن التفكير، ونصحه المقرّبون بتجنب أي أسئلة تفسر على وجه آخر، ويعدّونه متمردا، فالتمس الأمان في السكوت. وفي المعرض صاحب فنانين أجانب لا يتفاهم معهم باللسان، وشاركهم في تجارب حية أمام رواد المعرض، وتحاوروا في الفنون، وتبادلوا الأعمال والمهارات، وخاض تجربة لا يستوعبها حين يتذكرها الآن. بعد إغلاق المعرض كان يرتدي الثياب العصرية، وفيها لا يمكن تمييز عربي عن أوروبي إلا باللسان، دائما الجينز الأزرق، وبالليل جاكيت تحت معطف ثقيل، ويسهر مع رفاقه في مطعم أو ملهى، ويتحدث كل بلغته، ويفهمه الآخرون من دون مترجمين.

وبغواية من أحدهم، قرر نواف أن يزوغ عن برنامج الوفد الرسمي، في أحد الأيام، واطمأن على أن معه مالا كافيا، واتجه إلى حيّ الأضواء الحمراء. رحلة قصيرة منحته خبرات ووعيا رجّ بعنف ما تربى عليه، وزلزلت يقينه زلزالا أكبر من قدرته على الاستيعاب، وما كان له أن يفهم أن أرض الله واسعة إلا بالخروج من بلاده، ولو منقوص المواطنة.

أولى الصدمات أن النساء المعروضات في الواجهات، وهن فتنة الدنيا وذروة اكتمال أنثوي يفوق خياله عن جمال النساء، لا يخسف الله بهن وبأمستردام

t.me/qurssan

وبأوروبا كلها الأرض، ولا تتنزل عليهن صاعقة من السماء فتحرقهن. وبتعامل الرواد طوال فترات التجوال، وما يشمله من معاينة وتفحّص، باحترام لا يخدش آدمية نساء الواجهات. للأعين أن تنظر، وللذاكرة تختزن من الصور والتفاصيل والمشاهد ما تشاء، وأما التصوير فمحظور تماما، وهذا طمأن نواف ألا أحد سيفاجئه، يوما بعد العودة، بصورة في هذا الحي الأحمر، وهو يغرس بصره ويرشق جسد امرأة لا تبغي منه إلا المال، ولا تربطه به علاقة سابقة أو لاحقة، لا تحبه ولا تكرهه، ولا تريد أن تراه أو يطاردها بسابق معرفة. هنا محل عمل لهؤلاء، عرض بشري ولك أن تطلب، أو تشاهد ثم تمضي في أمان. لا شأن لك بغيرك، ولا أحد يملك أن يكرهك على شيء لا ترغبه، أو يدّعي الوصاية عليك.

تفكّر نواف في حكمة الله الذي جعل الدنيا، وبيع الملذات وشراءها، أكبر همّ هؤلاء، وأغلبهم من الأجانب. هم مخلصون في أعمالهم، أمناء مع غيرهم لا يكذبونهم، ولا ينكرون ارتياد حي الأضواء الحمراء، فكيف لم يُذهب الله عنهم النعمة، ويحل عليهم غضبه، ويبدل غناهم فقرا؟ لا علاقة لهؤلاء بقانون السماء الذي لا يكف عن مطاردة المستضعفين في الأرض، منقوصي الهوية من أمثاله، في خطب المساجد ومواعظ الواعظين في التلفزيون. هنا لا يأذن هؤلاء بحرب من الله، ولا تستهدفهم لعنته، فليجرب أن يطلب امرأة.

اختار أن تكون عربية، لم يحدد جنسية، ولم يرغب في أكثر من امرأة

t.me/qurssan

تبادله الكلام. قيل له إن هذا طلب نادر، قلما يحدد رجل جنسية لامرأة. فرح في نفسه لعدم وجود امرأة عربية في مثل هذا المكان، وظن مغامرته لن تكتمل، وأسعده ذلك لأنه يخاف العجز لاضطرابه، فلا خبرة له بهذا الحي أو بغيره، ولم ير امرأة عارية إلا هنا، وتمنى لو استشار أحدا فينصحه أو ينهره. ولما اطمأن إلى خروجه سالما؛ لأن طلبه الغريب غير متاح، أخرجوه من هذا التشوش بإبلاغه بإيجاد امرأة يستطيع التحدث معها.

حياها نواف بكلمة واحدة، "مرحبا"، ولم يسمع ردا بالعربية، وخيّل إليه أنهم لم يبلغوها بطبيعة الداخل، وأنها ترد بشكل آلي بما اعتادت أن ترد به على الزبائن.

لم تفلح الأصباغ في محو اللون الخمري لوجه تأمله نواف بدقة، حتى كادت المرأة تشك أن به مكروها، وسألته بإنجليزية موجزة ومفهومة، وقد التقط بعضا من كلماتها في المعرض والسهرات:

- أنت بخير يا سيد؟

رد بالعربية:

- نعم، أنا بخير.

وأتبع:

- وأنت؟

t.me/qurssan

أجابت وهي تخفي عجبها لطيبة قلبه:

- تمام.

ابتسمت وسألته:

- وأنت يا سيد؟

ابتسم وذكّرها بأنه رد عليها، قبل قليل، أنه بخير.

ثم نبهته إلى أن الوقت يمر، وهو يتمهل كأنه في بيته، فلا يسرع إلى نزع ملابس لا يزال يحكمها حوله. ورأت أن تمد يديها لتساعده في خلعها، وأشار بيده:

- قلت لك: أنا بخير.

فأعادت يديها. احتضنتهما وجفلت قليلا من الدهشة، استجابت لصدقه، واسترخت ملامحها غير عابئة به أو بالوقت. ثم نهض وداعب شعرها، وهي تتعجل وتنظر إلى أسفل، ترمي بعينيّ خبيرة نظرة خاطفة إلى ما ينتهي إليه اللقاء. وبحركة بدت عفوية تعدل بها خصلة شعر نافرة، لمست بين فخذيه، ولم تجد ما يبشر بختام يسعده. وسألته بإشفاق خفيّ:

- أنت بخير؟

أحرجته اللمسة. تأكد له أنها مقصودة، وأن المرأة تعمدت اختبار تجاوزه للتوتر، وكان خائفا لا يستطيع أن يقول إنه بخير. وبيدين مرتعشتين احتضن

t.me/qurssan

رأسها، وأماله باتجاه صدره متفاديا أن تنظر إلى عينيه، وقال إن هذه هي المرة الأولى. لم ترفع رأسها، وأمسكت ذراعيه تمنعهما من الارتعاش، واستفسرت:

- الأولى هنا، أم في بلدك؟

- الأولى. الأولى على الإطلاق.

- لهذا لست بخير.

لاذ برأسها، واحتضنه بقوة، ولم تستبعد أن يكون مصابا بمرض عصبي فيتشنج، ويعجزه عن التحكم في قوة ذراعين تخشى أن يعتصراها. وتصنعت التماسك؛ لكي لا يصيبه خوف المرأة بالطعن في رجولته؛ فيقدم على سلوك متهور. ثم سكنت وهو يمس شفتيها بأصابعه، وهي من الحذر لا تستجيب للمداعبة، وتترقب الخطوة التالية. سألها عن بلدها، وافتعلت التماسك، ونظرت إليه بحياد، وأخبرته بأنه لم يدفع أجرا لقاء الإجابة عن مثل هذا السؤال، فالتقط ورقة مالية لم ينظر إليها ليعرف مقدارها، وقدرت المرأة أنه احتفظ بها وحدها في هذا الجيب لمثل هذا الموقف. ألقاها بجوار رأسها الساكن في حضنه، وتوقع أنها لمحتها وعرفت كما تساوي، وهي تجاهلت أنها رأت شيئا، وانحنى وقبّل جبينها، ومال أكثر فأبعدت فمه عن شفتيها، برفق لا يخدش عذرية مشاعره. وقالت:

- تأخرنا يا سيد. أنت تضيع الوقت، ولا تحب أن تبدأ.

t.me/qurssan

ضرب جبيه:

- لا يهمني الوقت، أستطيع مدّ الفترة.

كادت تضحك، وتذكرت أنها في عمل، فأوضحت جادة:

- لست في حفلة سينما، كل شيء محسوب، أنت حجزت ودفعت بمقدار ما تنال. أنا أمامك وأنت تبدد الوقت.

اقترب مرة أخرى، فأبعدت وجهها عن فمه المتوسل، وكتمت التأفف من إصراره على تقبيل شفتيها. ثم جلست قبالته، واكتسى وجهها بابتسامة لمنح لأي أحد، وأغمضت عينيها، والقوة تسري في جسده، مذبذبا بين الرغبة في إثبات قدرته على الإغارة والخوف من الفشل، وكان يرتعش وينسكب ماؤه من لمسة، قبل البدء. وهي أدركت أسفه وخجله، واحتضنته بمحبة، وقبّلت خديه، وامتدحت براءته، وهنأته على هذا النقاء، وحثته على الاحتفاظ به؛ فلا شيء يستحق أن يلوث روحه ويدفع أموالا مقابل هذا. أقنعه منطقها، وعجب للواعظة المختبئة خلف الأصباغ، ولم يأس على مال أنفقه من دون خوض تجربة، أو نيل متعة، حتى القبلة لم يفز بها. وفاجأها بسؤال:

- مستعدة لمنحي نفسك، وترفضين قبلة؟ مجرد قبلة!

خلا وجهها للحكمة، ولم يكن يرى جسدها:

t.me/qurssan

- لا أمنحك نفسي. أترك لك جسدي، لكي تنال منه بما دفعت. القبلة خارج الاتفاق.

ضرب كفا بأخرى، ونظر بطرف عينه إلى الورقة المالية التي لم تفرح بها، ولم تكلف نفسها عناء مدّ يدها لأخذها. وأخرج من جيبه ورقة أخرى، ووضعها بغيظ في يدها، ولمس شفتيها بغلظة:

- تكفي هذه لهذه؟

فأعادت إليه الورقتين، وأعلنت انتهاء الوقت، وأنهم يستعجلون خروجه. أفهمته أن المرأة لا تمنح شفاهها إلا إلى رجل تحبه، ولا تشرك معه غيره. وإذا اضطرت إلى أن تكون "عاملة جنس"، في مثل هذا المكان، فهي تستطيع المحافظة على نقاء روحها بألا يمس رجل شفتيها. صمتت وشهقت، وأكملت:

- ولو بطرف إصبعه كما فعلت الآن.

نظرت إلى ما بين فخذيها، وقد سترت جسدها، وإلى فخذيه وآثار بلل في البنطلون:

- هذه الأعضاء تافهة، حمقاء وخرساء.

لم يفهم. استفسر عن سرّ غضبها المفاجئ، وماذا تقصد بحمق الأعضاء وخرسها؟

t.me/qurssan

ردت بلا مبالاة:

- أعضاء شرموطة والسلام، ولأنها بنت شرموطة فهي بلا ذاكرة، تنحامق وتهتاج وتنسى.

- أعتذر، لأنني....

- لا تقاطعني يا أخي، أنت شاب طيب. تذكّر كلامي، أنسيتني ماذا كنت أقول.

ابتسم بخجل:

- قلت: أعضاء....

- تذكرتُ، أعضاء قحبة، ولكن بوسة الشفاه بصمة يصعب محوها ونسيان ذكراها، هي قرينة الحب، وأنا لا أعرفك ولا أحبك.

واستدركت:

- ولا أكرهك.

انتهى الوقت، وأعطاها عنوان الفندق، وقال إنها ضيفته بعد انتهاء الشغل. واستعادت الابتسامة الآلية التي استقبلته بها، ولم يعرف هل هي مرحبة، أم تريد إخلاء الفراش للرجل التالي. وفي الغد أيقن أنها لن تأتي.

يستعيد نواف تلك اللحظة، ويقول إن القهر قرينه هنا، ويسبقه أينما

t.me/qurssan

يذهب، والأقسى منه أن يهان، ويتلقى درسا قاسيا من امرأة ردت إليه ماله، ورفضت أن تجيبه من أي بلد جاءت؟

يحاول المايسترو التخفيف عنه، ويضرب بالعصا كفه اليسرى:

- الريال يا أخي لهم عيائب.

يسأله نواف:

- تقصد أن لهم معايب؟

يبتسم لبراءة نواف:

- أردت تقليدك: لهم عجائب هؤلاء الريال.

يفهم نواف السؤال، ويتشكك:

- لو أن المرأة نطقت "الريال" مرة واحدة، لعرفت أنها من بلدي. كانت ذكية بلجوئها إلى اللهجة المصرية التي يجيدها غير المصريين، بحكم الضرورة، وتفلت منها كلمات تذهب بها مرة إلى المشارق مرة، وأخرى إلى المغارب. ورفضت الإجابة، ولو مدفوعة الثمن.

t.me/qurssan

14

يهبط الليل تماما. على البعد تتراءى سفن تبدو ثابتة، وكلما مرّ وقت غيرت مواقعها. ولا تتحرك الأضواء الهابطة من بيوت عالية قريبة، قد بطفأ مصباح، ويضيء آخر مصحوبا بموسيقى وأحيانا بطلق ناري يسبقه صخب، ويليه صراخ وما يشبه ارتطام جسم صلب بالماء. يتذكر المايسترو أمنية لورا أن تضع قدميها في مياه الخليج، وتترحم على بدر شاكر السياب الذي لا ينال، في نفسها، من مكانة جبران. وقالت إن هناك شعراء ملأوا الدنيا ضجيجا لم تبق منهم إلا قصيدة، والبعض انتهى صخبه بموته، والكثيرون يخلّدهم بيت واحد، وإن السياب صاحب أشهر نداء، وأوجز تعريف لهذا الخليج:

t.me/qurssan

يا خليج.. يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى!

كاد مصطفى يقول لها يوما إنه لولا أن سمع صوتها، ورآها، لتخيلها طيفا، مجموعة من الأذكياء، أو شخصا واحدا لديْه ذكاء نادر، يجيد إدارة محاورات من وراء المحيط، وتتقاطع أفكاره مصادفة مع شاب مصري. وإنها ستظل معنى خاصا جدا تجسد في امرأة، لا تشبهها إلا منزلة ميّ زيادة في نفس جبران. قال لها إنه يظن مي وجبران قد تواطآ على ألا يلتقيا، واستراحا لهذا الخيار، وكان يمكن لأحدهما على الأقل أن يذهب إلى الآخر، لولا الحرص على ألا تخدش صورة مثالية رسمها كلاهما للآخر. إلا أن لورا نسفت ظنونه، وألقت في وجهه بخبر قدومها إلى مصر.

لم تحطه علما بأي خطوات عن مقدمات الزيارة. تكتمت على التفاصيل، والآن تخطره بالوصول بعد يومين، ورأت ملامحه عبر الشاشة منزوعة البهجة. وحاول أن يرسم السرور بسماع الخبر، فخذلته ملامح لا تكذب الآخرين، وخصوصا لورا التي رأت عينين تقاومان الانطفاء، وما يطل منهما من فرح دون توقعاتها، فأصباها إحباط، وعلى الفور انفعلت، وفكرت في إلغاء الزيارة، وأملت أن تتكفل الأيام بإلغاء مصطفى نفسه من روحها، على مهل كما سكنها على مهل، وسيمحى بدرجة إبطاء سبق أن تسلل به إليها، واتخذ لنفسه مساحة لم تمنحها لسواه. واستعادت زمنا اعتادت فيه أن يتواصلا يوميا، مرة واحدة على الأقل، تحكي أدق التفاصيل مهما تكن بسيطة وحميمة، وتسمع القليل الذي يجود به، أو يرى أنه جدير باهتمامها،

t.me/qurssan

ولم يكن يعنيها فرز التافه واستبعاده، والإنصات إلى المهم، فهي تريد أن نكون قريبة. ومع مصطفى استعادت صبية كانتها في زمن بعيد، قبل أن تتقيد بصرامة منهج في الحياة والتفكير يلتزم بانطلاق رتيب فوق قضيبين، نحو هدف لا تحيد عنه، في حياة كلها عدْو للحاق بأهداف لا تنتهي.

ومع مصطفى بدأت تهتم بما كانت تراه هامشيا غير مفيد وإضاعة للعمر، وتعيد رؤية ما كانت لا تدركه أو تراه وتتجاهله، وتكتشف مثلا متعة في إعداد القهوة، في زمن أكثر سعة، وعلى نار هادئة، فتأخذ وقتها في النضج، وتستمتع برائحتها وقتا أطول، لا يقل عن زمن تذوقها. وتقص عليه شؤونها الصغيرة، في المطبخ والجامعة، وتحسّن علاقتها بابنها المسافر. وتؤكد أنها لا تستبعد أن يكون للجماد قلب لا نراه، وروح تشعر بما حوله. وبين يوم وآخر تحدثه عن مشاهدة فيلم قديم من اليابان أو روسيا أو إيطاليا. وقالت له إنها خصصت كل يوم وقتا للخيال، للعبث والتجوال الحر، في الإنترنت ومواقعه ومكتباته وشطحاته وعوالمه البشرية وغير البشرية، فتتعرف على عادات جديدة، ورؤى أخرى للحياة والموت، وأساطير شعبية لجماعات عرقية قاومت بالذاكرة محاولات الإفناء.

صارحته:

- لعل حضوري لا يسعدك. تصورت الخبر سارّا، ولكني أرى على وجهك، الذي يصدُقني دائما، آثار صدمة.

t.me/qurssan

لم يستطع الكذب، وعثر على مخرج ينقذه. لديه بعد أسبوع موعد للسفر إلى الحجاز، يحتاج إليه زميل، محام أيضا، رتّب له زيارة بقصد المساعدة في إنقاذ مواطن من ورطة متهم ظلما بإدخال أقراص مخدّرة من أدوية محظور دخولها.

لم تكذبه لورا، ولم يقتنع قلبها بهذه الحجة؛ ولم تجد تفسيرا لفتور استقباله لخبر حضورها، وكانت تود أن ترى في عينيه، على الأقل، فرحا يليق بالمفاجأة، ثم يتذكر حكاية السفر أو يخترعها، وبين وصولها وسفره بضعة أيام تكفي للقاءات ومحاورات ومعرفة أكثر عمقا.

لم تحدثه عن صيغة لعلاقتهما طوال أسبوع الزيارة، ولم يستطع حتى أن يلمح باستفسار، وظل يتحايل حول الأمر ويحوم حوله بالمناورات، فسألها في إشارة تبدو عفوية عما إذا كانت تعرف في القاهرة أصدقاء آخرين؟ بدلا من سؤال مباشر عن نزولها عند أحد ما؟ وبذكائها قرأت ما وراء الأسئلة الصامتة، ولم تجب عنها مباشرة، وقالت إنها بحثت عن فنادق في القاهرة، قريبة من النيل أو الأهرام، وتفاضل بين اختيار هنا وآخر هناك، وسألت الإدارة عما إذا كان مسموحا بأن يقيم رجل مصري معها في الغرفة؟ وأبلغوها في كلا الفندقين بأن هذا ممنوع، وفي نهاية النقاش قيل لها إن بالإمكان حجز غرفة للمصري، ولم يجرؤ موظف الاستعلامات في أي من الفندقين على التصريح بمراعاة تجاور الغرفتين.

تلقى مصطفى الإجابة عما خجل أن يسأل عنه، وتماسك متخليا عن

t.me/qurssan

نوبات اضطراب لم تخف على لورا، وتأكد له أن هذه امرأة حرة، اصطفته وحده، وتريد كل شيء واضحا، فاستعلمت من إدارة فنادق بالقاهرة عن أمور ترى ضرورة حسمها قبل أن تغادر بلادها. واختبرت ذكاءه من جديد، فلا تعرف بالضبط رد فعله عن إقامته معها في الفندق، ولا تحتمل كبرياؤها أن يرفض إذا وجهت إليه سؤالا مباشرا، فلجأت إلى المراوغة:

- يقلق أهلك أن تغيب عن البيت أسبوعا؟ أمْ أنهم تعودوا على أن تبيت معهم؟

كان أبواه يعرفان بسفره بعد أيام، وفكر في إخبارهما باستضافة صديقة، والمكتب يحتمل مثل هذه الاستضافات، وإن لم يسبق أن كان الضيف امرأة. أحيانا يبيت عنده زميل أو صديق، وهو أيضا يغيب عن البيت أياما، لانشغاله بقضايا في محاكم خارج القاهرة، ويغيب في القاهرة نفسها بإبلاغ أمه نهارا، أو يقول لها مساء في مكالمة قصيرة إنه لن يرجع الليلة. أما أبوه فلا يعنيه وجوده أو غيابه، ولا يحرص على بياته كل ليلة في البيت. طال تفكير مصطفى، ولاحظت لورا شروده، واستثقلت أن تعيد عليه السؤال، وأخيرا اهتدت إلى كلمة:

- سمعتني؟

فعرض عليها أن تحل ضيفة في البيت، وانفجرت بالضحك غير مصدقة هذا الكرم، وقالت إن بيتها وعالمها ليس أكبر، ولا أكثر، من حقيبة فيها

t.me/qurssan

ثياب وكتب وأوراق، وحقيبة صغيرة تحفظ الكمبيوتر والتليفون. وغير هذا لا تريد إلا فراشا آمنا. حيّته وشكرته على ذكاء هداه إلى ادخار المفاجاة للحظة الأخيرة:

- سعادتي بخبر الاستضافة أعظم من الاستضافة، وأجمل من الرحلة نفسها. هل تصدق هذا، مصطفى؟

فضحك ونبّهها:

- يا مصطفى، تذكري دائما "يا" النداء.

لم يجد ممانعة من أبويه. رحبت أمه وابتسمت، ووعدت بإعداد غرفة المكتب الملحق بالبيت، وطمأنها مصطفى بأن الضيفة لن تكون مزعجة أو ثقيلة، وستقضي نهاراتها في انشغالات خارج البيت، وترجع ليلا مكدودة، ولا تحتاج إلى أكثر من سرير. ثم خاف سوء الفهم، بعد أن قال "أكثر من سرير"، فأوضح:

- مجرد مكان للمبيت يا أمّ.

مرت الساعات ثقيلة، ولم يقطع رتابة الانتظار إلا وصول لورا. لها زملاء وأقارب لا يحبون سكنى البيوت كلما سافروا، وتروقهم الفنادق، فيها لا يشعرون بالانتقال من بلد إلى آخر، لتقارب مستويات الخدمة، وتشابه ملامح الغرف، يتركونها فوضى فيعودون وقد رتبت الفرش، وزودت الحمامات بما يحتاجون إليه وما لا يحتاجون. لورا ذات الحسّ

t.me/qurssan

الصوفي، الراغبة في ترجمة "محمد.. نبي لزماننا"، قالت له بعد الخروج من المطار إنها إنسانة خاصة جدا، تحمل في حقيبتها أغراضها القليلة، بما فيها المتاح في غرف الفنادق، هذا مشاع، يفتقد أي خصوصية، من أدراها أن شخصا آخر استخدم نصف عبوة البلسم مثلا، ثم أكملوها ووضعوها في غرفتها؟ أما الطعام فأعدّ لكل النزلاء، مجهّز للا أحد، بكميات تكفي وتزيد، ولا يحمل شيئا من روح الطاهي. يوجد طعام واحد تعده امرأتان، بالمقادير نفسها، وتختلف النتائج. وأجابت عن سؤال لم يتوجه به إليها:

- لا أعرف السبب، ولكن هذه حقيقة.

- نسمي هذا في مصر "نَفَس"، دائما تفخر المرأة الماهرة بامتياز نفَسها في الطعام.

- لهذا لم أستوعب فرحي بمفاجأة الاستضافة.

وضع الحقائب، وفتح النافذة، وأطل منها، ولورا خلفه تلفحه بأنفاسها، وصدرها يلمس ذراعه لمسا ناعما، أقل من احتكاك وأكثر من حفيف. كان بثبّت عينيه على هدف، ونظراتها حرة في الاتجاهات كلها، وقالت إنها لا تفهم، ولا تعرف على أي شيء يطلّ. استدار إليها، واكتشف مرة أخرى أنها أقصر منه بكثير:

- قبل زحف البناء العشوائي، كنت أرى الهرم من هنا. كان الهرم، بمضيّ الوقت، يختفي بدءا بالقاعدة كلما علا بناء، وآخر ما توارى قمته التي حجبتها هذه البناية القبيحة.

t.me/qurssan

من دون تفكير ردّت:

- نصعد لنراه.

سمعت صوتا عجيبا، حشرجة كائن مخنوق يعاني غرغرة الاحتضار، ولكن قوة الصوت تجعله أقرب إلى الصياح منه إلى الاستغاثة. لم تسأل، واستحسن مصطفى ألا تسأل، وفي الفناء بين المكتب والبيت انقض عليها طائر لا يطير، وأحدث غبارا بجناحيه وصياحا أخافها، فاحتمت بحضن مصطفى واستحسن ذلك، وطمأنها بأنه طائر أليف:

- أليف؟ يشبه الأسد في الحيوانات، وله زئير مثله.

- لا تخافي. مجرد ديك رومي، صديقي "حابي"، اسمه حابي. استقبلته وهو طفل، وأتولى تربيته.

- لا عهد لي بهذا الكائن الغريب، رأس صغير لا يتلاءم مع جسد ضخم يحتاج إلى مخ أكبر، ليكبح جنونه!

على السطح التزمت الصمت. تنفست المشهد، ثم شهقت فامتلأ صدرها بضوء آخر النهار والمدى والأهرام، في شمس الغروب عائمة تتناثر في هيبة وانتظام فوق هضبة أكثر اتساعا ورسوخا، كل شيء يأخذ موضعه في لوحة بانورامية لا يغيب عنها إلا وجه أبو الهول. كتمت النفَس؛ لتتشبع بما رأت، وأغمضت عينيها:

t.me/qurssan

- ربما في عصر سحيق، قبل أن تستقر الأرض، كانت هذه الهضبة "حاملة أهرام"، وتحركت من أعالي الكون إلى هنا، سبحت في السديم حتى اهتدت إلى أن مصر أكثر المواقع في الأرض رسوخا، واختارت أكثر الأماكن استواء وعلوّا في هذا الفضاء. ثم احتفظت الهضبة بوظيفتها "حاملة الأهرام".

لم يعلق. سرت لثغتها في حرف "الراء" تحت جلده، وجمّلت "الراء" كلمة "الأهرام" سواء بالعربية والإنجليزية، كأنه لم يسمعها من قبل، فأصابته رعدة عابرة. همّ بسؤالها عن عدم وضوح هذه اللثغة المثيرة، طوال الفترة السابقة، في التواصل الصوتي؟ وكانت تستطعم الحروف وتنطقها بإشباع وتمهل، وأحب نبرات صوتها، وأدرك اشتهاءها للكلام، وأراد الهبوط، وبدأ يتململ، وقد ظنها ستضع الحقائب وترتمي في حضنه، وحين سبقها إلى النافذة حسبها ستتعجل وتجذبه وتتمكن منه وتقول إن للمشاهدة وقتها، ليس الآن؛ فاللحظة تخصهما. ولعلها لم تلاحظ التلامس اللطيف لصدرها بذراعه، قبل أن تقترح الصعود، ومن فوق السطح تطرح افتراضات عن فجر الكون، وتاريخ كوكب الأرض منذ كانت سديما، وتسهب في الحديث، ففصلت مصطفى قليلا عن اشتهاءات توقعها، وإن ظل يرجو أن يكون صمته عن التجاوب رسالة تستعجل النزول.

- نتغدى أولا، وأمامنا أوقات ممتدة للحكي.

- تغديت في السماء.

t.me/qurssan

كانت تقصد الغداء في الطائرة. ضحك وانتهز فرصة توقّفها عن الاسترسال، وقال:

- لا يتغدى في السماء إلا الملائكة، حتى الملاك يحتاج إلى طعام.

لم تبدِ ترحيبا بالكلام. وأحزنه أن تظنه متحرشا يفتعل الفخاخ ولا يتأنى، ويدفعها دفعا إلى شباكه، لكي يسحبها إلى شاطئه. وفي الغرفة قبلت وجنتيه، وظن ذلك بداية؛ إذ لم تقرن القبلتين بكلمة شكر على الدعوة، وجذبها إلى حضنه. للوهلة الأولى تجاوبت واقتربت وطوقته بذراعيها، أكثر مما قدّر لذراعيه أن تقربها إلى حضنه. وفي اللحظة التالية أحست أن سلوكه ربما هو متجاوز للعمومية، زائد على الترحيب البريء، وأعمق من المجاملة. حاولت أن تسحب جسدها النحيل ببطء لا يوقعه في حرج، ولا يُشعره بأنها خائفة.

قالت وقد جعلت بينهما خطوة تسمح لها بوضع كفها اليمنى على كتفه اليسرى:

- أعتقد أنني أريد أن أستريح من تعب الرحلة، أحتاج إلى النوم.

ابتسم وظنته يسخر من محاولتها غير الصريحة للهروب منه. وقال إنه قريب من هنا، حين تستيقظ وتفتح باب المكتب ستجده، سترى أمه من دون أن تنادي أحدا. وأدركت لورا أنه مقهور، غاضب ومخذول، حتى أنه هزؤ بزفرة من أنفه مصحوبة بحشرجة وتنتهي بابتسامة، وسألته عن

t.me/qurssan

معنى هذه الابتسامة الغاضبة؟ وأجاب مفسرا الماء بالماء، قال إن الابتسامة أحيانا نوع من الدهشة لا السخرية. وأوضح:

- لا أجد صلة بين "الاعتقاد" والحاجة إلى النوم.

- لعلي أسأت التعبير، أريد القول إنني أحسبني متعبة، وأرغب في النوم. هل قولي دقيق هذه المرة؟

ضحك بعمق، وأحبت صفاءه، وعانقته في غفلة منه، وظلت ذراعاه ترتخيان إلى جواره، وهي تحتضنه وتواصل الكلام:

- أغفو ساعتين لا أكثر.

قال لأمه إن لورا لن تأكل الآن. وكانت مشغولة بالطبيخ؛ فلم تنتبه إلى اسم الضيفة، ولم تلمح خيبة أمله. واحتمل ساعتين من رتابة انتظار الضيفة النائمة، ولا يستطيع دخول المكتب، ولن يكون للورا بعد هذه التضحية عذر في الانسحاب. ولم يتوقع أن تقول، وهي تقبل خديه بعد ساعتيْ النوم، إنها تريد التوجه إلى وسط المدينة. استسلم ولم يشأ أن يشوّش برامجها، وعبرا ميدان التحرير، وهي تحثه على الإبطاء، وتمسك يده ليقف في الميدان، ويمنحها وقتا تتأمل فيه ما اختزنته ذاكرتها: هناك على البعد المتحف المصري تغرق واجهته وحديقته في أضواء الكشافات، وهذا تمثال عمر مكرم أمام مسجد يحمل اسمه، وأمامه مجمّع التحرير رمز البيروقراطية المصرية، وفي الجهة المقابلة الجامعة الأمريكية. فتحت حقيبة اليد، وتذكرت

t.me/qurssan

أنها نسيت الخريطة في البيت، والتليفون لا يعمل بعد. اختبرت ذاكرتها، وتجولت عيناها بسرعة بين شوارع تنطلق من الميدان، وأشارت إلى أحدها قائلة إنه ينتهي إلى ميدان الأوبرا القديمة وأول شارع الأزهر، ومنه إلى مسجد الحسين والجامع الأزهر وشارع المعز باني القاهرة.

تعبت واستراحا في أقرب قهوة. اختارت لورا مقعدا على الرصيف، تستطيع منه أن ترى حركة ميدان "باب اللوق" والشوارع المتفرعة منه والبنايات المطلة عليه. قرر مصطفى ألا يقتحمها بأي كلام، واحتفظ بانتباهه للرد على أي استفسار. حدثته نفسه أن للذكاء ضريبته، وأنه يستهلك من أعصابه وانتباهه ثمنا لصحبة امرأة ذكية ظنها قريبة، ولا يعرف من أي باب يدخل إليها؟ ولا يصح أن يتذاكى عليها فيسقط من نظرها، وعليه أن يسمى الأشياء بأسمائها حين تكون واجبة، في وقتها الصحيح، لا قبل توقيتها ولا بعده؛ فالمرأة التي تستبدل بقلبها عقلا لا يكف عن التوقد، توصله مباشرة بعينيها، فتحتد نظراتها وتعرّي محدثّها من محاولات الكذب والمخاتلة، ولا تفوتها ملاحظة شيء ولو صغيرا، حتى سائق دراجة نارية وقد هبط وأوقف الموتور، وتركها في نهر الشارع بجوار الرصيف، وغاب في القهوة، ورأته يجادل رجلا، ولا تسمع حوارا انفعاليا يمتد من الألسنة إلى الأذرع، ولا يبدو الرجل منتبها إلى دراجته أو يراها من مكان المشاجرة الكلامية. ثم جاء فتى بدراجة هوائية، وأمالها بلا مبالاة مستندة إلى الرصيف، فارتطمت به ودار إطارها الخلفي تلقائيا، والفتى يوصي

t.me/qurssan

صاحب كشك للسجائر:

- خلّي بالك من العجلة.

ودخل القهوة، وانضم إلى رفاق في مثل سنه، ولم تعد تستطيع تمييزه بينهم، وعجزت عن كتمان عجبها، وسألت مصطفى:

- مجانين؟ يهملون دراجاتهم وينسونها. ألا يخافون أن يخطفها لص، ويجري ولا يمكنهم اللحاق به؟

- لا تُسرق، ليس لأن الناس أغنياء أو مستغنون، فهم كما ترين فقراء، وإنما لأن الشارع وحده حارس.

- حتى الآن؟ في الليل؟

- حتى الآن، في الليل.

- لا أرى كاميرات في الميدان أو الشوارع، من سيرصد اللص؟

- لن يُرصد لصوص، لأنهم غير موجودين. حتى وقت متأخر ليلا، يظل الشارع يحرس نفسه. ثم يظهر اللصوص، لو ظهروا، حين تنام المدينة، والقاهرة لا تنام.

- في الولايات المتحدة، وفي بريطانيا المشهورة بالكاميرات المزروعة في الشوارع، لا أحد يغامر بترك سيارة مفتوحة أو دراجة، ما لم يحكم إغلاقها؛ فنستحيل سرقتها.

t.me/qurssan

- في القرى الأمريكية والبريطانية والأحياء الفقيرة في مدنكم، لا أظنهم يحتاجون إلى هذه الاحتياطات، فالناس هناك ربما يشبهوننا، ويعرف بعضهم بعضا، وتنخفض بينهم معدلات السرقة.

أومأت إليه، وأتبع:

- الأمان النسبي تتمتع به مجتمعات تنعم بمظاهر التحديث، ولم تبلغها روح الحداثة.

فقاطعته امرأة لا يعرف من أين جاءت. صافحته بحرارة، وكادت تقبله لولا انتباهها، في اللحظة المناسبة، إلى لورا. وخطفت إلى السماء نظرة وتمتمت:

- ربنا يهدّي سرّكم يا أستاذ مصطفى.

لم يفهم. أدهشه أن امرأة لا يعرفها تقتحم مجلسه، وتناديه باسمه، وتتحدث إليه بامتنان وعشم. ولم يخفَ عليها أن صمته ليس حرجا من رفيقته، وذكرته بأنه ترافع لها في قضية تعويض تخص زوجها المتوفى، ورفض أن يتقاضى أجرا. تلعثم مصطفى، دائما تصيبه مثل هذه المواقف بانعقاد اللسان، تنقله على الفور إلى المرأة صاحبة قلادة "وتمت نعمة ربك"، فلولا عطاياها ما أنفق على مثل هذه القضية. وحدثته مخاوفه أن أمر تلك المرأة، القصية في قصرها، سيفتضح يوما، أمام لورا أو غيرها، ويعلمون أنه لا يتفضل على الفقراء، من أمثال هذه المرأة المسكينة، إلا من عرق اللذة. وتحسس القلادة تحت

t.me/qurssan

الفميص، ورأى تعرق المرأة الفقيرة في الشتاء، وأيقن أنها تعاني العطش، ، دعاها إلى القعود بجواره، وطلب لها مشروبا ساخنا وزجاجة ماء، وتركها قليلا وعاد إليها بطعام من مطعم قريب، ولورا تراقب في صمت، والمرأة تشكره على كرمه، ثم تربت على كتفيْ لورا:

- ربنا يهدّي سرّكم.

فاطمأنت إليه لورا. وقال لها في طريق العودة إلى البيت إن بعض الناس، مثل هذه المرأة، يلهمونه بحلول في قضايا كبيرة تشبه قضاياهم الصغيرة، وإن أعقد قضية ربح منها كانت قضية استحقاق دَيْن بمبلغ خرافي، وصاحب القضية خسرها في أغلب درجات التقاضي، بعد أن كلفته الكثير في مكاتب محاماة كبرى. ثم دلّه أحدهم على مصطفى، والرجل سخر لما رأى المحامي الشاب، ومن باب اليأس وافق؛ فليس لديه ما يخسره. لم يكن في القضية أي ثغرة، ولا يحكم القضاة بالنيات، وأمامهم طرف يدّعي أنه صاحب الحق ومعه وثيقة تثبت حقه، وطرف ثان يمثله شقيقان وقعا وثيقة تلزمهما بإعادة دين كبير إلى الرجل. كلا الأخوين طعن في توقيعه، وأجرى خبراء الخطوط مقارنة بين عدة توقيعات لكل منهما منفردا وتوقيعه في وثيقة الدين، وتأتي النتيجة نافية أن يكون التوقيع له.

تألمت لورا، وأسفت على شره الناس، وإصرارهم على العدوان واقتناص حقوق ليست لهم. أمسكت يده في التاكسي، خائفة بأثر رجعي على مصير موكله، في مواجهة أخوين لا يراعيان حرمة الدين. وقال مصطفى إنه

t.me/qurssan

لا يقبل قضية إلا إذا وثق بعدالتها، وكان يثق بأن موكله صاحب حق. وطمأنها أن خياله، قبل لحظة الخطر والخسارة النهائية في الجلسة الأخيرة، أمدّه بتوقّع لم يخطر ببال أحد، وأكد للقاضي أن الأخوين صادقان، وأن خبراء الخطوط على صواب أيضا، لأن كل أخ لم يكتب اسمه، وإنما كتب اسم أخيه، في احتيال على صاحب الحق الذي رآهما يوقعان، ولم ينتبه إلى أن كلا منهما يوقع لأخيه. وطلب مصطفى إلى القاضي أن يوقع كل أخ اسم أخيه، وهنا تبين أنهما خدعا صاحب الدين، وربح القضية.

هنأته، وسألته:

- ألم أذكر لك مقولة تنسب إلى أينشتاين تلخص ما هداك خيالك إليه؟

- لا أظن.

- ربما، وهي تعني أنه في وقت الأزمة يعمل الخيال بأقصى طاقته، ويكون أكثر أهمية من المعرفة.

ضغط يدها، وكانا قد وصلا إلى البيت، وقال:

- الخيال أهم من أينشتاين نفسه. الخيال أنقذني من مكتب مشترك مع زميل محام، غرفة تحت الأرض تقريبا، تطل نافذتها على أقدام البشر، وبعد هذه القضية بنيت المكتب الملحق بالبيت.

t.me/qurssan

حقا؟

المكتب الذي هو بيتك الآن!

ودّعها على الباب، وقال إنه سهران بالقرب منها، عنده قضايا مؤجلة، وإنها في غرفة أخرى بالبيت. ولم يقل إن له يومين ينتظرها ولا يعمل. ولا يريد الإثقال عليها، فحقائبها لم تفتح، ولها أن تتصرف بحرية، فلا تندم على أنها لم تنزل في فندق. وطلبت استبقاءه قليلا، وتخففت من ملابسها، وقالت إن دخان الشيشة أغرق ثيابها وجسدها، ولا خلاص منه إلا بالاستحمام.

ودّعها مصطفى مرة أخرى، وهي تودّ ألا يخرج، وتتأمله بإعجاب، وتؤكد أن مشوارا قصيرا، وجلسة في القهوة بحضور امرأة مسكينة، وحكايته في التاكسي، ترفع منزلته في نفسها، وتغني عن التواصل عن بُعد، وتثبت لها صواب اختيارها. وأخجل الثناء مصطفى، وخرج منه بمداعبتها:

- ثم أقحمتِ بيننا أينشتاين!

ألقت نفسها في حضنه، واحتفظ بيديه إلى جواره، يكبح خياله أن يذهب بعيدا، ويتوقع بعد قليل أن يسمعها "تعتقد" أنها تحتاج إلى النوم. واعتصرت ما تستطيع يداها أن تبلغه من ظهره، ومرغت وجهها في صدره وكادت تثقبه بأنفها. وتراجع قليلا لأن القلادة توخزه، وخشي أن تشعر بها لورا، أو تراها فتسأله عنها، وهو مشغول بها وحدها. وهمست:

- أحبّني، أحبّني مصطفى.

t.me/qurssan

ردّ بسرعة، باللغة الصارمة نفسها:

- أنا أحبك.

- لكنك لا تنطق اسمي، أريد الإنصات إلى حروف اسمي بصوتك مصطفى.

- أحبك يا لورا.

- هذا عظيم، اِلْمسني مصطفى.

- أنا ألمسك، أنت في حضني.

زفرت. حاولت ألا يلاحظ تبرّمها من عدم فهمه:

- طلبتك، رجوتك أن تحبني مصطفى.

جفل قليلا، وطلب أن يسبق اسمه "يا" النداء؛ فلا تنقصه حوارات الأفلام المدبلجة بمصطلحات معاجم اللغة، أو بترجمة جوجل الحرفية منزوعا منها "يا" النداء. ضغطت على مخارج الحروف، وأنصتت إلى صوتها تتذوق وقْع الكلمة، لتشعر بالفرق:

- يا مصطفى.

ضحكا، ثم مالا إلى السرير، وهي لا تزال في حضنه:

- أحبني يا مصطفى، اِلْمسني.

t.me/qurssan

- أحبك يا لورا وألمسك، أنت لم تفارقي حضني.

- لم أفارق حضنك، هذا صحيح ولكنك لم تفهمني. كيف أقولها؟

نبين له مرادها، ولم يغفل مسافة بينهما يعلو فيها جدار حجارته من العربية الفصحى. هو محام يتحايل على القانون، ليكسب القضايا. فهل عجز امرأة، ولو مستعربة أمريكية، عن التحايل على المعجم، في لحظة مذورة للعامية وفوضاها؟ وسألها:

- كيف يمكن لرجل وامرأة أن يتحابّا بالفصحى؟

واستدرك:

- إلا إذا كانا يخططان لإنجاب ولد، لإنجاز مهمة محددة لا مجال فيها للاشتعالات.

- ما يقال بعاميتي لن تفهمه، وقد لا تحبه. ولا أعرف ما يقال بالعامية المصرية، ولن أشعر به لو دللتني عليه. دعنا نتحاب إلى أن نسمو على اللغة. هل هذا صعب؟

اقترب من شفتيها فجزعت قليلا، وبدا له أنها فوجئت بما لا تشتهي. ابتعدت بذكاء، بما لا يدعوه إلى الضيق، وكان حسن الظن. وفي اقترابات تالية، تأكد له أنها لا تريد مثل هذه القبلة، فضاق صدره، وتساءل: كيف أحرر شفتيها من التردد؟ وانتهى من الحيرة بترك نفسه لها؛ فلا يعرف ما

t.me/qurssan

تحب وما تكره، ما ترغبه وما تنفر منه. حسب أنها لم تدع له فرصة ليغسل أسنانه بالفرشاة، فتتغير رائحة فمه، واستبعد هذا البند على كره منه، وتأمل تفاصيلها الدقيقة. وأعجبها أنه غير متطلب، يقفز الشبق من عينيه، ومن مسامّ جسده المشتعل، ولكنه لا يبدي تلهفا واستعجالا. ويطل عليها ليحتوي جسدها بنظرة، ويشهق بعمق ويتنفسها، ثم يغمض عينيه ويصف لنفسه ما رأى، وهي تسمع تأكيده أنها أجمل من خياله عنها.

انتشت من الوصف، مع إغماض عينيه، وقالت إنها تستدعي الآن "ألف ليلة وليلة"، وإنه يحل مكان شهرزاد، هو يحكي وهي تنصت، وإن شهرزاد راوغت الملك، ونجحت بالخديعة في افتداء نفسها، وإنقاذ رقاب بنات جنسها، وصنعت من القصص المتناسلة شركا للملك.

تراجع مصطفى، وانفصل عنها نفسيا، ولعن في سرّه امرأة تختبر معلوماتها في لحظة غير مناسبة تماما، وتجعل من قداسة الوصال منصة لإلقاء بحث أكاديمي فاتر. نقل سبابته من شفتيه إلى شفتيها، فقبلتها وهي تظنه يداعبها، وهو يقصد نهيها عن الكلام:

- من المهم أن ننسى ألف ليلة، ونؤجل استعراض ما نعرف، والسؤال عما نجهل. لا نتذكر الآن إلا شغفنا بلحظة انتظرناها طويلا، انتظرتها أنا على الأقل وحلمت بها، وأريد الآن الإفاقة من حلمي بك. ما أروع أن أصحو على حقيقة تفوق الحلم.

t.me/qurssan

صمت، وتجاوبت معه، فأكمل لاثما وراجيا:

- تغرقينني في درس تاريخي، بدلا من أن تساعديني.

- أنت محقّ مصطفى، أقصد: يا مصطفى!

- الآن أصدق أن المعجزات سارية، وأنت معجزة.

استعاد طفولته في التأمل بعينيه، ولمسها بيديه وهو يرسم ملامحها التي راها ببصره وتراها يداه الآن، وهي مستسلمة مسترخية، تعتريها لذة ورعشة، تنفز عليه وتفترعه، ومن الدهشة لا يعرف ماذا يفعل؟ وهي تهمهم فلا يفهم جملة تبدأ بكلمة إنجليزية، وتليها كلمة عربية فصحى، وتتبعها ما يشبه العامية. ويشعر بأنها تدعوه إلى احتضانها بقوة، وتفشل في نزع قميصه، ولا صبر على فكّ أزراره، فتدس يديها تحته، وتكاد أظفارها تنغرس في ظهره وتدميه. وحين استعاد تماسكه وفورانه، أغمضت عينيها في همود، وشعر بانطفاء وهجها، وقالت:

- أعتقد أنني متعبة، أحتاج إلى النوم.

ثم أتى الصباح وقد أعد الحقيبة، ومن يأسه منها نوى الذهاب إلى المطار في وقت متأخر مساء، قبل موعد السفر بيوم، آملا أن يجد مقعدا في أي طائرة، وإذا لم يجد فسوف يبيت الليلة المتبقية عند زميله في الغرفة التي تطل نافذتها على أقدام المارة. وأخبرها أنه أوصى بها أمه، وكانت قد أبدت له أنها أحبت أمه وأباه.

t.me/qurssan

فتحت لورا دفترا صغيرا، وقالت إن المتحف المصري هو برنامجها لهذا اليوم، إلا إذا تبقى وقت يخصص لمتحف نوعي. وكان لدى مصطفى عمل لا بد أن ينهيه قبل السفر، فاتفقا على اللقاء في القهوة نفسها قبل الغروب.

صارع الوقت، لكي يصل قبل الموعد. من غير اللائق أن يتأخر عنها، وتسبقه وتنتظر فتتعرض لمضايقات. بينه وبين القهوة أقل من مئة متر، ومعه خمس دقائق، فما الذي ألقى في طريقه بهذه القطة، وتعثرت فيها عيناه؟ كانت تحتمي من البرد والمطر الخفيف بجدار، وظن سيارة صدمتها. قلّبها بيده فتندّت، ولم يجد جرحا، وليست له خبرة ليرى أثرا لكدمات تحت شعرها الكثيف المبلول. نقلها إلى مكان أكثر دفئا وأبعد ببضع خصوات، وكانت تنتظر هذه الإغاثة فاستجابت. ثم اشترى من محل قريب شيئا في كيس، وتنقل بين محلين صغيرين، يدخل ويخرج بسرعة والكيس في يده، ومن المحل الأخير خرج بشيء آخر في كيس. وانحنى على عجوز على مقعد بالميدان، ثم توجه إلى إشارة يد العجوز، واشترى من متجر كبير علبة في كيس.

كانت القطة تقاوم الإعياء، وأخرج من الكيس زجاجة ماء، وأمالها إلى الشيء الذي تبين أنه مطفأة سجائر زجاجية. واستغرب أن تكون القطة، التي نهضت وبدأت تشرب، عطشى في البرد والمطر، وانتظر قليلا حتى انتهت. دلق بقايا الماء، وملأ المطفأة من زجاجة حليب كانت في الكيس،

t.me/qurssan

وترك علبة الطعام في ركن جاف، وبحث بعينيه عن أي أحد، وأسرع إلى صاحب كشك على ناصية الشارع الصغير، وأشار إلى القطة والزجاجتين والعلبة، فتبسم الرجل، وقال إن قطط الشوارع تكتفي بالبحث عن بقايا الطعام، ولا تألف هذا الدلال.

- عايز تفسد أخلاق القطط المشرّدة يا أستاذ؟

ضحكا، وشكره مصطفى ونفض يديه. وعلى الرصيف المقابل، كانت لورا تتابع المشهد من البداية، وتحتمي من بقايا المطر بسقف بارز لأحد المحال. وكادت تلوم نفسها على عدم المبادرة بالمساعدة، وأنها تلصصت على مصطفى؛ لتختبر جوهره، واحتملت نحو عشرين دقيقة من الانتظار والمتابعة؛ لترى هل هو جدير بصحبتها. وقطع إسراعه إلى القهوة هذه التساؤلات، وتأكد لها أن سلوكه العطوف أمس مع المرأة المسكينة لم يكن للتظاهر أمامها.

كانت قد سبقته بخطوات، ونظر إلى الساعة في دخوله القهوة، وسألته:

- تحب القطط؟

انتظرت أن يحكي عما فعله للقطة المحظوظة، أن تقارن بين روايته وما رأته قبل دقائق. قال إن قطط الشوارع تخاف الناس، ولا تدع أحدا يقترب منها. لا تحسن الظن أبدا؛ لأن بينها وبين الناس ميراثا من العداء، والأدق أنه ميراث من الفقر. في الماضي كان أغلب الناس يتناولون اللحم

t.me/qurssan

مرة واحدة في الأسبوع، مساء الخميس عادة، وتتسلل القطط الفقيرة التي ضبطت إيقاع معدتها على ليلة الجمعة، وتحوم حول الموائد، بالقرب من الطبلية أو تحتها، تتحين سهو أحد عما ينوبه من لحم، أو عظمة فيها بقايا منه، وتخطفها وتنطلق هاربة، قبل أن تهبط كفّ رب الأسرة على وجه الابن الغافل.

- ألم تصادف قطة، في الشارع أو البيت، وتتودد إليها بطعام فتألفك، ولا تهرب منك؟

ابتسم ولعن الفقر. بعض ليالي الجمعة كانت تمرّ ولا يذوقون اللحم والمرق. وكانت أمه تتولى إعطاء كل فرد، بمن فيهم أبوه، ما ينوبه. ومنذ صغره يسمع، في الغيط، أن المغفّل، فاقد الفطنة، هو الذي تأكل القطة عشاءه، وظن ذلك دعابات ساخرة، إلى أن غافلته قطة، وانقضت على نصيبه من اللحم فوق الطبلية، وهربت قفزا. لوى عنقه، ليتابعها وهي تفرّ من الباب، فتفادى من أبيه صفعة أصابت أسفل أذنه:

- يا ابن الكلب يا مغفّل، خلّيت القطة تخطف ما نابك.

قال إن أمه واسته، ولم يكره القطط. وانتظرت لورا أن يحكي عن قطة سقاها وأطعمها. حامت حول الواقعة، لعلها تستفزه فيتكلم، ولم يكن يعي مقصدها. ثم قال إن عليه أن ينهض، لأنه سيغادر البيت قبل منتصف الليل. رجحت أنه يهرب منها، وحفاظا على كبريائها قالت:

t.me/qurssan

- كنت سأبلغك أنني قدمت موعد سفري إلى الأقصر وأسوان يومين، إلى صباح الغد.

في طريق العودة لم يتبادلا كلاما، وفي البيت علا بينهما سور، واستبدلا بالحرج جدية مفتعلة تناسب زميليْ دراسة أو عمل. حيرة تدعوهما إلى البحث عن بداية جديدة، وقد وجدا نفسيهما غريبين. وسألته عن فلسفته في الحياة، ولم يكن الوقت مهيئا لمثل هذا السؤال، واختصر الإجابة قائلا:

- لا فلسفة.

- لا فلسفة؟ جيد، حتى هذا الرد، هذا اللا موقف، فلسفة.

أحس بأنها مخنوقة ومنفعلة، ولا يرضيها هذا الاقتضاب، فأتبع:

- لا أخطط لغدي، أعيش اللحظة بصدق وعفوية، وعنفوان أحيانا. ولا أفسدها بما سبقها وما يليها. يمكنك أن تقولي، باختصار، إنني إنسان قدريّ أبحر في النهر بقاربي، وأشد على الصاري شراعا، أو أترك القارب للريح والموج، والمجذافان في يدي. ودائما ينتظرني الأجمل.

سهمت لورا. احتد بصرها ولم تره، كانت تنظر ولا تبصر. والتزم مصطفى الصمت. شردت وخيّل إليه أنها ترى أشياء وأشخاصا، أو تتذكر شيئا يزيدها صمتا وعبوسا.

- أما أنا فأخطط لكل شيء، وكل خططي فشلت.

t.me/qurssan

ردّ ساخرا:

- أفضل الخطط، وأكثرها اكتمالا، هي التي لا نضعها، ولا تختبر.

لم تستجب لما ظنه دعابة، وتابعت:

- ما لم أخطط له أن أكون في مصر، هنا بالقرب من الأهرام، معك في هذا البيت. لا أكاد أعرف نفسي.

سألها:

- نادمة؟

واصلت كأنها لا تسمعه:

- خطتي المبكرة للرهبنة، وخطتي للسعادة الأسرية، وخطتي للسفر حول العالم، فشلت خططي. هذه أولى رحلاتي خارج الولايات. نحن هناك لا نعرف إلا ما سجله غيرنا، ما ينقلونه إلينا ويريدون إقناعنا به، نرى بعيون آخرين. بعيون غيري رأيت لفترة طويلة، كان زوجي، أستاذي يكبرني بعشر سنوات، ثم اخترت تخصصا غير تخصصه بعد أن قطعت معه شوطا في العلوم، درست سنة كاملة في كلية العلوم، ثم كان خياري الوحيد ترك العلوم الطبيعية، والانخراط في دراسات الشرق الأوسط بجامعة ميشيجان، أن أكون ما أريد.

لمس كتفها، باقتراب الحذر، خوفا من الصدّ. استسلمت فقبض على

t.me/qurssan

فيها بحياد. هزّها قليلا، وتذكرت القطة وهو ينفض عنها رذاذ المطر.
قالت:

- وأنت خياري الثاني.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

15

ليل تام ولا قمر. لا ضوء يقول إن في نهاية هذا الممشى قاربا صغيرا يسع هؤلاء الأربعة. كل الأضواء أمامهم بعيدة، في عمق الخليج، تكاد تسقط وتذوب في المياه، وبالقرب أضواء تهبط من يخوت راسية. لا شيء إلا نجوم تُرى ولا تنير، وهم لا يبالون بعدد النجوم وإحصائها، ولا يعنيهم ولادة نجمة واختفاء أخرى في السديم. كما لا يهم أحدا أمر هؤلاء، لو غرق بهم القارب، أو سحقهم في المياه يخت يملكه مخمور ويقوده عبد مأمور. يقول نواف إن لدى هؤلاء الساحقين المخمورين أموالا لا تنقص بدفع ديات ضحاياهم، ولديهم أيضا فتاوى بالمقادير والأنصبة: دية غير المسلم نصف دية المسلم، ودية المرأة المسلمة نصف دية المسلم، ودية المرأة الكتابية

t.me/qurssan

نصف دية المسلمة. يسأله المايسترو:

- في الحرب أمْ في السلم؟

يغالب نواف ثقل رأسه:

- هذا لا أعرفه، وأرجح أن غير المسلمين هم أهل الكتاب.

يزمّ المايسترو شفتيه:

- هذا يعني أن دية المسيحية ربع دية المسلم. قسمة رباعية يعادل فيها بدوي بائس، لم يغادر هذه الصحراء، أربع نساء غيّرن وجه الحياة: ماري كوري شريكة زوجها في علوم الذرّة، وماري أندرسون مخترعة الماسحات المطاطية لزجاج السيارات، وستيفاني كوليك مخترعة الدرع الواقية من الرصاص، وجريس هوبر مخترعة الكمبيوتر.

يضع العصا تحت إبطه، ويضرب كفا بأخرى:

- وإذا حاججت هذا المسكين تباهى، وأشهر في وجهك زعما بأنه يساوي من هؤلاء مثنى وثلاث ورباع.

ثم يحرك عصاه حركة مزدوجة، نحو أنيل وتسو:

- هذان ليسا من أهل الكتاب ولا يريدان، كم تبلغ ديتهما يا نواف؟

- باجتهاد بسيط، أظنها نصف دية الكتابيّ، أي ربع دية المسلم.

t.me/qurssan

يسخر المايسترو:

- شكرا لك، نوّرت المحكمة. نحن هنا أربعة، ولكن مجموع الديات اثنان ونصف فقط.

يلمح في النظرات الصامتة لأنيل وتسو ما يشبه الهوان، ويسعفه قول نواف:

- هذا قدرهم، وقدرنا، في بلاد نزعت منها الرحمة.

يوضح المايسترو:

- الكارثة في نزع الرحمة من القلوب، وخصوصا قلوب ضحايا يتحولون إلى جلادين، ويحرّمون الرحمة على ضحايا آخرين. أتعرفون ما جذب انتباه لورا في رحلة الأقصر وأسوان؟ عدة أمور مهمة، اسمع يا أنيل جيدا؛ فهذا يهمك أكثر من تسو.

كتبت إليه لورا أنها عاشت تجربة ممتعة في التنقل بين المدن والأسواق والمعابد والمتاحف والبشر عبر سفينة نيلية، فندق عائم تجري من تحته مياه نهر النيل. قالت إن للحضارة المصرية طابعا روحيا شديد الخصوصية، لا تدانيها فيه حضارة أخرى قبل الأديان الإبراهيمية وبعدها، واستدلت على ذلك بهيئة التماثيل ولو صرحية للملوك، فيها خشوع ومناجاة وتبصّر لعمق الإنسان، صلاة خاصة لخالق الوجود المتسامي عنه والمتوحد فيه.

t.me/qurssan

وانتقدت لورا شعراء مصريين يتماهون مع الذهنية الصحراوية في ورود مياه الآبار، واستمطار الغيث. هذه الغفلة عن نعمة النيل وجماله أول ما جذب انتباهها، وربطت بها استلابا آخر مصريا وعربيا إلى التراث الغربي، بمضغ تعبيرات مثل "كرة الثلج" في بلاد حارة تندر فيها الأمطار ويستحيل الثلج. ولم تنس تذكيره بأن في القرآن إيجازا إعجازيا استدلت عليه بكلمة "أنلزمكموها" التي تشمل حرف استفهام وفعلا وفاعلا مستترا ومفعولين، ومثلها "فسيكفيكهم الله". كيف يتسنى لأجنبي، مهما يكن حظه من العلم بأسرار لغته، أن يترجم هذا؟

حرصت لورا على اقتناء ما تجده من كتب إنجليزية وعربية عن مصر القديمة، في العلوم الطبية واللاهوتية والأساطير والفنون والحروب والدبلوماسية، وخصوصا الكتب المصورة. وسألت مصطفى عن مدى معرفته بعالم المكفوفين؟

ظن السؤال غير بريء؛ فما علاقة محام بهذا العالم لكي تسأله عنه؟

لم يحاول مصطفى أن يبادرها بالاتصال، فلماذا تقتحم الجفوة بينهما بهذا السؤال الجاد؟ وكان يتوقع أن تستبدل به كلاما لطيفا يخفف جرحها له ليلة سفره، إذ أقبلت عليه في ما يشبه الهجوم المباغت، والرغبة المتفجرّة، ثم صدت عنه وانسحبت. وأصبحت لغزا يدفعه إلى أن يزهدها، وألا يفكر فيها كأنثى. هل عرفت بأي طريقة شيئا عن أيام جسّد فيها مصطفى

t.me/qurssan

ور كفيف؟ وكيف جنى من تجربته ما جنى من الرعب واللذة والغثيان والأموال، وهذه القلادة التي لا تفارقه.

- لم تكلمني عن عالم المكفوفين مصطفى.

- لا أفهمك يا لورا، أي مكفوفين؟

- اشتريت كتابا مصورا، وفيه صورة مهمة ومدهشة لفرقة موسيقية من العميان. يقول التعليق إنها من مقبرة نبيل مصري اسمه "ميري" في تل العمارنة.

- ربما عاصر أخناتون.

- قيل لي إن تل العمارنة في المنيا، شمالا من هنا، وإن اسمها كان "أخيتاتون"، العاصمة في عصر أخناتون. ولا يسمح برنامج الرحلة بزيارتها.

- ولا أنا زرتها، اختفت أخيتاتون، محيت من الوجود.

أرسل الرسالة الأخيرة، وفي الوقت نفسه أرسلت إليه صورة اللوحة. لم يرَ مثلها في المتحف المصري بالقاهرة، أو في أي كتاب، منذ استفزته لورا وحفزته على القراءة. في مقدمة الصورة تشوهات قليلة للوحة لا تطمس تفاصيل الهارب في يديْ كفيف جالس، وخلفه جوقة من العميان يغنون، ويرفعون أكفهم بالتصفيق. أعاد تأمّل الصورة، فوجد تشريح الرؤوس والأنوف يقترب من الملامح الأخناتونية في النحت والتصوير، والوجوه

t.me/qurssan

تقترب من ملامح أخناتون، والبطون مثل أغلب تماثيله مترهلة. قبل أكثر من 2350 سنة اندمج هؤلاء في الحياة العامة، واستمتعوا بحياتهم وأسعدتهم مواهبهم، ولم يكن البصر الغائب عائقا ما دامت البصيرة تنير قلوبهم وعقولهم، وتحملهم إلى مكانة لائقة بهم.

جاوبها مصطفى بحياد، لا جفاء فيه ولا مودة. لم ترَ في صوته أو عينيه ما توقعته من فرح باكتشافها الخاص، كما لا يجد أنيل في لوحة العميان ما يجعل مصطفى ينبهه قبل أن يقص الحكاية، فيسأله:

- ماذا يخصني في فرقة العميان الموسيقية يا مايسترو؟

- اصبر يا أنيل، ما يخصك سيأتي دوره، هو ما أدهش لورا بعد النيل باتساعه وتدفقه، وصورة العميان. البقرة! صورة البقرة.

يعاجله نواف ظانًا أن النبيذ أتلف مخارج الحروف، وأثقل لسانه:

- انتبه يا مايسترو، تقصد "سورة البقرة"؟

- لا تقلق فأنا واع، قلت صورة البقرة. البقرة يا أنيل كان لها في بلادنا شأن، ربما قبل أن توجد الهند. البقرة في فجر التاريخ المصري روح مقدسة اتخذتها أمنا "حتحور" رمزا وتحمل القمر بين قرنيها، وبها يسمى الشهر الثالث في التقويم المصري، شهر "هاتور" ويتفاءلون به فهو "أبو الدهب منثور"؛ لتزامنه مع موسم زراعة القمح. أتجنب الخوض في هذا كله، ولكن لورا اكتشفته، وأثارته في الدردشة معي من الأقصر.

t.me/qurssan

يطلعهم المايسترو على صورة التقطتها لورا من أحد المعابد في الأقصر. قالت إن هذه الصورة، مع صورة العميان، من أبرز مكاسب الرحلة. نقش جداري غائر لبقرة تقف في رسوخ وتحجُّر وإذلال. لا تحني رأسها، ولو مواساة، لرضيعها الهزيل المربوط بحبل في ركبة قائمتها اليسرى الأمامية، وتكاد قوائمه الأربع تعجز عن حمله، ويفيض ضرعها باللبن، ويتولى حلبها رجل بإزار لا يستر إلا عورته.

- بقرة ورضيعها ولبن يحلبه أحدهم، ما الجديد؟

- يا أنيل، أنت تتعجل.

فينصحه نواف:

- تمهل يا أنيل؛ لترضى عنك البقرة!

وينظر إلى المايسترو:

- يريد الاطمئنان على إلهته!

يكمل المايسترو جادًا:

- لا تسخر من عقيدة أحد. يثق أصحاب كل عقيدة بأنهم على الحق. كل عقيدة تثبت، وتنكر عقيدة الآخر وتؤكد فسادها. والغريب أن جميعها يدّعي خلاص الإنسان وسعادته وإنقاذه.

t.me/qurssan

يرفض نواف التسليم بأن تكون العقائد كلها على الحق، ويذكر أنه قرأ في الصبا كتبا تثبت بالأدلة وجود الله.

فيسأله المايسترو:

- أدلة؟ متى احتاجت عقيدة إلى دليل عقلي؟ قرأت أن عجوزا سألت عن زحام حول رجل: من يكون؟ فقيل إنه إمام عنده ألف دليل ودليل على وجود الله. فقالت إن عنده ألف شك وشك، ولهذا يحتاج إلى الأدلة، "أفي الله شك؟". وبلغ الإمام كلامها، فدعا: اللهم إيمانا كإيمان العجائز.

لا يقتنع نواف:

- الحمد لله على نعمة الإسلام.

- جميل أن تحمد الله، ولا شأن لك بغيرك، ولا تضع الشعائر على طاولة نقاش، وإلا حقّ لهذين الرجلين الادعاء بأن المسلمين يعبدون حجرا، يشدون إليه الرجال من أقصى الأرض؛ ليطوفوا حوله. لا تكن مثل الرجل الطيب تسو الذي قال في المسيح ما يلصقه مسيحيون ببوذا.

ينصت أنيل، فيوضح المايسترو أن البقرة الذليلة تدمع، تبكي من الألم على ابنها النحيف الضعيف، لحرمانه من لبنها، وهي مقهورة لا تقوى على المقاومة. ويسألهم:

- هل رأى أحدكم رسما أو نحتا أو قولا، أكثر إيجازا وبلاغة، أقدم من هذا؟

t.me/qurssan

يأتيه خاطر يصيبه بالحسرة، ويهمس إلى نواف:

- هل يصدقني أهلي لو حكيت ما تعرض له أجدادنا من مآسٍ تشهد ملبها بقرة لورا؟ بسبب صورة البقرة، عادت لورا إلى بلادها وخصصت مانبا من جهدها البحثي لتاريخ مصر، وقالت إن مكتبة جامعة ميشيجان لا تنقصها المراجع، وكانت تحتاج فقط إلى هذا المصدر، إلى هذه الصورة الوثيقة.

وأطلعته لورا على قول ابن كثير إن عثمان بن عفان حدد لعمرو بن العاص مهمته في مصر، بالاقتصار على القتال، وأما شؤون الخراج فيتولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. فتساءل عمرو ساخطا: "أأكون كماسك بقرة ، غيري يحلبها؟". وقد سجل ابن عبد الحكم لوم عمر بن الخطاب، قبل ذلك، لعمرو بن العاص على سماحه لمصريين بالبقاء في وظائف ضرائبية و محاسبية: "كيف تعزّهم وقد أذلهم الله؟". ووجدت لورا عند المقريزي نصا منسوبا إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان يوصي متولي خراج مصر، الوالي أسامة بن زيد التنوخي، قائلا: "احلب حتى ينقيك الدم، فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح! لا تبقها لأحد بعدي".

بسط مصطفى اقتباسات لورا الثلاثة، وأعاد النظر فيها وتفكّر: وصية سليمان بن عبد الملك لواليه التنوخي هي حقد جائع يتقم. ورفض عمرو بن العاص طلب عثمان بن عفان شهادة بثراء مصر من قائد يعتد بمواهبه

t.me/qurssan

ويرفض التنازلات ولا يتخلى عن نصيبه من الغنائم. وسؤال ابن الخطاب لابن العاص أصدق تسمية للشيء باسمه، والاستغناء عن قناع الهداية بعد التمكين في الأرض. واستدعى مقولة مدرسية، يستشهد المدرسون والوعاظ، على رفض ابن الخطاب للرق، وانتصاره لمفهوم الحرية، بسؤاله الاستنكاري لعمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟". ووسوست إليه شكوكه أن عمر أرسى قاعدة خطيرة؛ برفضه معاملة الذين "ولدتهم أمهاتهم أحرارا" كالعبيد، مع تجاهله للذين ولدتهم أمهاتهم عبيدا.

أوشك مصطفى أن يلعن يوما عرف فيه لورا؛ فمنذ ظهورها لم يعرف هدوء البال. فقد اليقين، وقادته أسئلة إلى شكوك لا تهديه إلى أي صراط مستقيم، ففي كل السبل اعوجاج ومنحنيات تفسد الماء والهواء الرطب الذي لا يطهّره الحرّ. ماذا يفعل من يصادق امرأة ذكية وقلقة لا ينجو الشك نفسه من شكوكها؟

يمسك رأسه بين راحتيه، ويسأل تسو:

- أين كراماتكم يا مولانا؟

يستغرب تسو كلمة "مولانا":

- أي كرامات؟

t.me/qurssan

- أن يتوسط إلهكم فيمنحني امرأة أقل قلقا وأكثر طمأنينة.

يتفحصه تسو، بنظرات حكيم يودّ أن يكونه بعد العودة إلى التبت، ويسأله:

- أتريد امرأة أخرى، أم صفات أخرى في امرأتك؟

يضحك المايسترو:

- لا أملي على إلهك، وأرضي بما يقسم لي.

تبرق للمايسترو عينا تسو:

- ارض أولا بما قسمه إلهك.

- آمنت بالله.

تجذبهم حماسة الجدل بين تسو والمايسترو الذي يفرّق لهم بين الحر في الأقصر والحر في مهمته التطوعية المتزامنة مع رحلة لورا. قبل أن يصيرا زوجين وحّدت بينهما شمس الصعيد حيث سافرت لورا، وشمس الحجاز حيث هرب مصطفى. لم تكن لورا قد تخلصت من اعتياد التفكير والبحث الحر؛ مدفوعة بفضول إلى المعرفة، ومصطفى مع صديقه يبحث عن خروج آمن لمتهم لا يعرفه. كانت دعوة مصطفى إلى الزيارة وسيلة لمساعدة صديقه المحامي الداعي، وحين قابلا الشاب المتهم كلمهما عن سجين آخر، سائق شاحنة مصري لا يجد من يتبنى قضيته ويدافع عنه، وتهمته أكثر خطورة،

t.me/qurssan

تهريب يمني في السيارة. في التحقيق قال اليمني المحتجز معهم "والله ما أخذ هذا المصري مني شيئا. وما معي مال، لو طلب". وفي الحجز، سقط أجساد منهكة تستند إلى الجدران، في الزحام والحر والعرق واستعباد الخا واستبعاد الأمل في العدل. وقال اليمني "المصري لا ذنب له، حاول بشهام مساعدتي حين رآني أشير إليه، توقف والْتقطني". لم يكن اليمني يعرف هوية سائق الشاحنة، ومن الجملة الأولى عرف أنه مصري يعمل في شركة للنقل، وكلما قطع مسافة استراح في قهوة على الطريق، هي استراحات منتشرة بطول الطريق، وأغلب مرتاديها وافدون من سائقي الشاحنات. في الاستراحة تلفزيون يعرض دائما أفلام الكاراتيه وبرامج المصارعة الحرة، وغير هذين الصنفين محظور. قبل بلوغ الاستراحة تُطفأ شاشة التلفزيون، إلى أن يطمئنوا إلى القادم ويشعروا بالأمان. ويُعاد تشغيل التلفزيون، وفي العادة يكون فيلما مصريا. وأمام الجلوس تمتد خراطيم الشيشة، وتتلوى وتتداخل فلا يعرف أحد أين ينتهي الخرطوم الذي يخصه، والعامل وحده يعرف ما يصل المبسم الذي يخرجه المصري من جيبه بحَجَره المشتعل بعيدا. يقول المصري لليمني إن الطلبات هنا تنفّذ بدقة، ولا يخلط هذا بذاك، ويوافقه اليمني من دون أي معرفة أو سؤال عن معنى "هذا وذاك". وما لا يريح المصري هو الحرمان من رؤية حجَره بجمرات تتقد كلما سحب نفسا عميقا، وضبْط قطع الفحم فوق المعسّل، ومتابعته وهو يذوي فيطلب استبداله. فرق كبير بين أن تلتذ بإعداد طعام وأكله، وأن تتلقى خلاصته في

t.me/qurssan

... مصفّى يحمل كل القيمة الغذائية، ولكنه منقوص اللذة. لم يشاركه ... الذي اضطر إلى الانتظار، واختبر رائحة دخان يتسرب إليه رغم ... وفي أول نقطة تفتيش أيقظه الاضطراب، قبل أن يسمع قول المصري ... طي "عابر سبيل، لا أعرف من يكون، استخرت الله وأحسنت إليه ... بم المعروف. أول مرة يركب إنسان بجواري على الكرسي. مرة حملت ... طا مصابا، ومرة قفز قرد واستقر، وبعد مسافة قفز إلى الطريق. أول مرة ... ب إنسان معي"، ولم يصدقه الشرطي: "أنتم المصريين تكذبون، دائما ... بون وتجيدون المسكنة". وتأكد لليمني وقوعه في المصيدة، فنطق بالصدق ... لا إنه يمني، تسلل عبر الحدود، ولا يعرف هذا السائق: "لا ذنب له، ... دني واتركه يا أخي يرض عليك ربنا". وأحيلا إلى التحقيق، وفي ضيق الحجز تختلط الحروف بالأجساد بالمشاجرات، ويستغيث بنغالي: "ديشي، ديشي مارو، ديشي مارو"، ولا يفهم السائق المصري الذي يرى ثلاثة من بنجلاديش، أصدقاء الرجل، يهبون إلى نجدته، وتخليصه من أيدي عرب وهنود يشتبكون. سأل مصطفى صديقه المحامي عما إذا كان عليهما أيضا الدفاع عن السائق المظلوم، وقضيته أكثر تعقيدا من تلفيق تهمة حيازة أقراص مخدرة. وفي الليل مدد ساقيه، وكان متعبا، وكانت في انتظاره رسالة موجزة من لورا جعلته يضرب حافة المكتب بيده، فانكسر الزجاج وأدمى راحة يده:

"ليس صعبا يا عزيزي أن نستبعد الحب بمعناه الشبقي، وأن نظل

t.me/qurssan

أصدقاء مقربين. لا أصلح للحب، لهذا الحب تحديدا. لا يرضيني أحد، ولا أرضي أحدا. لا يعجبني ما أنا عليه، ولا أفهم هذا التبلبل. تقريبا لا أفهمني".

كتم الدم، ورأى وجهه في المرآة مسودا، ونسي أزمة الشاب صاحب الأقراص المخدرة، والمصري سائق الشاحنة. غاظه أن تكتب إليه "عزيزي"، وعاد إلى قراءة الرسالة مرة أخرى، فعاجلته برسالة جديدة محت إرهاقه النفسي:

"أعرف أنك لم تكن على سجيتك تلك الليلة، بسبب الحذر والحرص على ألا تغضبني. كنت تتلمس طريقك إليّ، وتكتشف ردود فعلي، ما أرغب فيه وما لا أرغب. وكنت مثلك، كل منا ينتظر من الآخر الإفصاح عما يريده. أعرف أنك تجيد الاستغناء، ولا ترضى بأقل من الندية: في الإقدام والحاجة الروحية والنفسية قبل الجسدية. إذا كانت ثقافة الجسد مهمة، فالحضور النفسي للآخر أكثر أهمية. لاحظت منك ترددا ما، لست المتحمس المندفع، وانتقلت إليّ عدوى الفتور، وفكرت أنه ليس من حقي طلب ما لا تشعر به نحوي، وأننا سنظل في الحد الأدنى، وهو الأقصى في جوهره، فليس لي تجربة سابقة، ولكن انعدام خبرتي أطلق خيالي نحو حلمي بك كل ليلة. أحبك منذ زمن، أعترف بهذا للمرة الأولى لأي رجل. لا أريد أن يتوقف هذا الحلم الذي أجد نفسي فيه المحور الوحيد. أخشى أن يكون هذا القول جناية على علاقة أطلبها، وقد يجعلك تنتكس ويصيبك

t.me/qurssan

بإحباط ونفور. أنا جبرانية المذهب، فلا تظنني أقصد تفاصيل مادية في العلاقة والرغبة، وإنما أتكلم عما تكوّن لدي من انطباع حول مدى شغفك، وهذا يتعلق بالقلب والروح، وليس بالشهوة.

ما ظننت أنني بهذا الضعف، كرهت اكتشافي لضعفي؛ فأغضبتك برسالتي السابقة، وعجزت عن محوها، فأعتذر بشدة. في حياتي لم أشعر بأي ضعف، وأعترف الآن بالافتقار إليك. هذه أول مرة أعترف إلى رجل بضعفي وهشاشتي، وثاني مرة في هذه الرسالة أعترف بشيء. والاعتراف الثالث أنني كتبت هذه الرسالة بالإنجليزية، ثم ترجمتها إلى العربية، وآمل أن تتحسن إنجليزيتك يوما، وتستطيع قراءتها فهي أكثر دقة من الترجمة".

أسكرته خصوصيته لديها، وإن لم يحب إيقاع حروف كلمة "الافتقار". ودّ لو يمزق معاجم تمدّ لورا بهذا القاموس اللغوي الجاف، لكي تتكلم مثل الآخرين، فتقول: "وحشتني"، وإذا أصرت على الفصحى فيمكنها أن تكتب: "أوحشتني" بدل "الافتقار".

رد عليها قائلا إنها غافلته وهو نائم، وكتبت رسالة طويلة لم تزده إلا تشوشا.

وفاجأته يقظتها على الطرف الآخر. أغاظها رده، وكانت تنتظر اعتذارا غير مباشر- فأوضحت أنها بانسحابها، ليلة الوصول وما تلاها، كانت تدافع عن نفسها، لإحساسها بأنها غير مرغوبة.

t.me/qurssan

- تتهمينني بإساءة التصرف؟ والخطأ في التقدير؟

- نعم، دعني أصارحك. حين قلت لك "أريد أن أستريح من تعب الرحلة، أحتاج إلى النوم"، لم أكن متعبة، ولا يهمني النوم. وإنما أعفيتك من الحرج، وحاولت صون كبريائي.

- أمرك غريب، كأني أناقش الآن امرأة غير لورا.

- لا تشعر بعمق جرح امرأة تشتهيك، وتعانقك وتطوّقك بذراعيها، وأنت تستكثر أن تبادلها الشغف. هذا أقصى إهانة لأنوثتي.

أحزنه أن تألم بسببه امرأة مثل لورا، وتمهل في الرد، وانتهت المحادثة في صمت، من دون وداع.

ثم قدر أنها نامت، وكتب إليها سطرا، لعله طمأنة من جلال الدين الرومي: "عندما تتخطى مرحلة صعبة من حياتك، أكمل الحياة كناجٍ وليس كضحية". وغفا ليصحو على رسالة طويلة.

"مصطفى، يا مصطفاي:

أنت جميل، وجمالك يبكيني.

أنت جامع كل ما كنت أحلم باجتماعه في الرجل.

ربما لأنك الآن غير موجود أمامي، فلا تراجعني ولا تحاورني، يمكنني

t.me/qurssan

ان أكتب على راحتي، كأنني أهمس، وأناجي نفسي وأتذكرني. تلك البنت التي أرادت منذ الطفولة عالما مثاليا، وقررت ألا تنتظر تحققه، وأن تذهب إليه وتصير راهبة تهب نفسها إلى السيدة العذراء، وظلت عذراء حتى الزواج، كنت تلك العذراء. وفي الزواج لم أعرف ما المتعة، لم يدلني عليها، وكان يجهلها أو يزهدها، وما كان تحابينا إلا لغاية، وأنجبت ابننا، فاكتشفت أن للثدي مهمة واحدة هي الإرضاع. وبعد ذلك تباعدنا، وكنت أكتفي بالقراءة عن اللذة في الكتب، ولا أحتملها لجهلي بها، ولا أسمح لأحد حتى بعد الطلاق بقول كلمة مجاملة، وأراها نهشا لجسدي؛ فأنفر من القول والقائل. ولما فكرت في أن نقيم معا في الفندق ما فكرت إلا في أن تكون قريبا وقتا أطول. ثم زلزلني، وأنت قريب في الغرفة، شيء ما، شعور جديد وغريب ومفاجئ، هزّ روحي بعنف فعدت تلك الصبية قبل التفكير في الرهبنة، استعدت أشواقي، وبادرتك وطلبتك، ولا أدري ماذا جري لي، ولكن أكثر من ثلاثين عاما نفضتها عن روحي، ورأيت في عينيك شبقا خجولا. ثم لم أفهمني، وكدت آتي وراءك لأقبّل رأسك ويديك، وأعتذر إليك، وأطلب إلى أمك وأتوسل بها إليك أن تقبل عذري وجهلي، ولولا أنني أرى علاقتك فاترة بأبيك لطلبت أن يشفع لي خذلاني لك. والآن أعلن قرارا، ليس قرارا بالضبط، فآخر كلماتي إليك في لقائنا الأخير أنك "خياري الثاني".

أتدري لمَ أنت خياري؟ أسباب وتفاصيل قد لا تعيها، لأنها سلوكك

t.me/qurssan

الطبيعي الذي لا تفكر فيه، ولا تنتظر من ورائه شيئا، كما لا نفكر ونحن نتنفس. رأيت نبلك مع المرأة في القهوة، وعطفك في اليوم التالي على القطة، وكنت أراك طوال الوقت من الرصيف المقابل، وحاولت إثارة انتباهك لكي تحكي عن القطة، فلم تقل شيئا، وحكيت ذكريات قاسية لم تتحامل فيها على قطة أذاك بسببها أبوك. حنانك لا يحتمل يا مصطفى، أرأيت؟ تعلمت ووعيت ألا أنسي "يا" النداء. لو أنك معي الآن، لتخليت عن خجلي وجهلي بنفسي، وأعدت معك اكتشافي.

أحبك برهبة اكتشاف جسد ملائكي، شبق متردد وينتظر الاقتحام فأتشجع وأبادله الاقتحام؛ لنلتقي في منتصف المسافة، فأحضنك طويلا وأتعرف على رائحتك بحضن طويل، ثم بقبلة من لسانك لأذوقك، في صلاة خاصة".

في اليوم التالي أرسلت إليه صورة. قالت إنها جزء من جدارية دعتها إلى الجرأة في القول، والاعتراف النادر. صورة لثور فرعوني "يساري"، هو السادس والأخير في الترتيب، بين ستة ثيران تنتظم في اصطفاف دقيق يشمل الموازاة في القرون، والأفواه المزمومة، والمحاذاة في السيقان، بل في النظرات الخاضعة ذات اليمين. إلا الثور السادس الذي يلوي عنقه بعناد واعتداد، فيرتفع برأسه وقرنيه عن "القطيع"، ويتجه إلى اليسار، ويعبر عن تمرده بنظرة حادة متحدية، وإخراج لسانه.

t.me/qurssan

- واضح أنك عثرت على خبيئة.

- وجدت نفسي.

- في الأقصر؟

- أرجوك ألا تسخر. ما لم أكتسبه من ثقة، طوال عمري، أتعلمه من نور جرؤ على أن يكون، ألا يمضي مع القطيع.

- أعيد الآن تأمّل الصورة.

- وفضلا عن الدلالة النفسية الملهمة، فإن لهذه اللوحة حمولة فنية عبقرية تكسر الإيقاع والإيهام والتوقع.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

16

التيار يسحب القارب بعيدا عن الممشى. يتركونه مستباحا لصراع الموج والرياح، حتى يقترب من اليخت الأقرب والأكثر ارتفاعا بين اليخوت، هو الأول في الاصطفاف، وزاويته قائمة إلا قليلا، فهل صمم لكي يرسو، أو يتهادى ولو بالتحرك في حيّز محدود؟ يحجب هذا اليخت الأعمى، بضخامته، جيرانه من اليخوت الصغار إلا لمن ينظر إليها من الشاطئ. لم يحسب المايسترو أن هذا اليخت بناية مائية شامخة تسخط القارب المقترب حجرا مهملا لا يجذب الأنظار. ومن أعلى، لا يمكن لأحد أن يرى القارب بجوار اليخت الذي أطفئت أنواره فجأة، وزال أثره. لا حيتان في هذا الخليج تستطيع إغراق هذا اليخت الشاهق، وجذبه

t.me/qurssan

إلى الأعماق، ولا صواعق تنسفه، ولا ثقوب تبتلعه. ورغم العتمة، لا تخفى على أعينهم حدود اليخت الذي يظل عاليا أكثر مما يظن المايسترو

ثم تعتاد العيون الظلام، وتستطيع تحديد موقع اليخت، هيكل من ظلام يختلف في كثافته عن محيطه الظلامي، ومن كتلة الظلام يأتي صراخ وتهديدات يصعب تمييزها.

يكاد القارب يلتحم بجدار اليخت، ولا يريدون أن يشعر بهم أحد من رواد الظلام العالي. يقول نواف إن هؤلاء لا يرحمون، ولا يسمحون لأحد بالاقتراب، ويدفنون أسرارهم بإفناء من يطلع عليها ولو مصادفة. يذكّره المايسترو بطابع أبيه الذي عاش عمره يخاف السلطة، فلا يقترب منها إلا لضرورة، كاضطراره لاستخراج وثيقة رسمية، في أصدق تمثيل لحكمة مصرية تاريخية تقول: "السلطان من لا يعرف السلطان، ولا يعرفه السلطان".

ولكن القارب يدنو وحده، ويفكر المايسترو في جاذبية السلوك الإيجابي عبر التاريخ، هذا الفضول، والسعي إلى الاكتشاف والمعرفة، ولو كان فيه هلاك صاحبه. وأما الرضا والاستكانة والركون إلى الراحة فيضمن السلامة، ويعيد الإنسان إلى طوره الأول، شبيها بأسلاف قصر خيالهم عن أن ينفذوا من حدود الأرض إلى أقطار السماوات، ما أكثر الذين عاشوا ولم يكتشفوا فوات أعمارهم سدى، وقالت له لورا إنه ظهر في الوقت المناسب، وقد عاشت عمرا ضائعا، وقررت تعويضه بالإفراط في استعادة البراءة

t.me/qurssan

، ا لـ.ون، والإقبال على المغامرة. وآخر ما كان يتوقعه أن يسمع في مطار ااهرة صوتا يألفه ويشتاقه، تحتفظ ذاكرته بنبراته وإيقاع الحروف ورائحتها ، اا,ان طيفها. الصوت هو الصوت، وأما النداء فليس له:

يا ابن ماريا.

هو ليس ابن ماريا، ولا يعرف امرأة بهذا الاسم. ولا تزال صاحبة اا ،اء خلفه، تحتفظ بالمسافة نفسها ودرجة صوت ينطلق بمحاذاة حقيبة ىر,ها ويزداد ثقلها كلما خطا إلى الأمام. ومن الخلف يصعد الصوت ، ، ,دا، من كتفه إلى أذنيه. ولكنه ليس ابنا لماريا.

يا ابن مريم.

هو نفسه الصوت، وصاحبته وضعت ثقل يدها على الحقيبة. ودت أن .سترجع صبية كانتها منذ زمن، تلهو في حديقة، وتضع يديها على عينيه ،ن الخلف؛ لتختبر قدرته على التوقع. وقف ولم يصدق أن امرأة، ظنها ، صلت إلى بلادها، لا تزال تنتظره في المطار، وتضبط موعد الترانزيت ا ـزامن مع رجوعه، وتتخلص من الهالة الرسمية، وتناديه باسم أمه. ، تناقشه برصانة:

- لماذا، يا مصطفى، لم تخبرني بأن اسم أمك "مريم"؟

أنقذته من الحيرة بالارتماء في حضنه. وقال إنه يبحث في الطب النفسي ،من تعريف للجنون يستند إليه أحيانا في تبرئة البعض من موكّليه، الآن

t.me/qurssan

فحسب عرف معنى الجنون:

- أجّلت سفرك يومين، لنلتقي دقائق في مطار القاهرة؟

- أي يومين؟ غيّرت خطة العودة إلى الولايات، مباشرة من الأقصر عبر ترانزيت قصير في مطار القاهرة، إلى تأجيل التفكير في الرجوع.

- تأجيل الرجوع؟ من أجل سؤالي لماذا لم أقل لك اسم أمي؟!

- نعم، ألا يستحق؟ مريم أجمل اسم في الكون.

- كيف عرفت؟

- أنه أجمل الأسماء؟

- كيف عرفت اسم أمي؟

- سألتها.

- سألت أمي؟ جيد أنها تتذكره، ظننتها نسيته. قلما أسمع أحدا يناديها به، هي دائما "أم مصطفى".

- وأنا أيضا ظننت "أمّ مصطفى" اسمها، مثل أم كلثوم، وسألتها، وأحببت الاسم وصاحبته. وأما الجديد فهو علاقتي بأبيك. حكينا كثيرا، واستراح لي، وبقي سؤال خجلت أن أوجهه إليه عن فتور علاقتكما.

- كل ما شغلك في غيابي هو اسم أمي؟

t.me/qurssan

شيء آخر، صديقك "حابي"، الديك الرومي، تعهدته وصالحني، ولم يعد يهاجمني.

وفي ضجيج الإعلان عن مواعيد إقلاع طائرات، ووصول رحلات لم يعد مصطفى يسمعها بدقة، واستحسن ذلك، وأشار بالخروج. وفي الطريق فسر باقتضاب هذا البرود بأنه مسافة نفسية بين جيلين. أب يحب ابنه بطريقته، ولا يستوعب أن تكون للابن رغبات في الاختيار: اختيار الدراسة، والعمل، والاستقلال في مسكن يخرجه من دائرة الفضول والوصاية والرقابة.

- نعم، لم تحدثني عن تلك الغرفة التي كنت ترى من نافذتها أقدام المارة في الشارع.

- قبل المكتب الملحق بالبيت، وفيه حرصت على وجود كنبة سرير...

وتوقف فجأة وسألها أين تبيت منذ رجعت من الأقصر قبل يومين؟ فأجابت: في المكتب، في الغرفة نفسها. ولم تكن تعرف أن له في البيت شقة.

- قبل مكتبي في البيت، كانت الغرفة.

لم تكن مجرد غرفة، وإنما هي مكتب صغير به مطبخ وصالة استقبال صغيرة تصلح لانتظار أصحاب القضايا، وأغلبهم من فقراء الحيّ الشعبي. تمهد وتهوّر من شابين يقرران البدء من الصفر. الأدق أنهما يبدآن من تحت الصفر، فالصفر هو مستوى سطح الأرض، هو نافذة تنخفض عنها أرضية

t.me/qurssan

المكتب بما يقارب القامة. من تلك النافذة راقب أقدام الناس، في ثقتها وإقدامها وثباتها، أو ترددها وخفقانها وتلجلجها. ورأى مدى ملاءمة الأقدام للأحذية، هناك أقدام تائهة في أحذية واسعة، وأحذية تضيق بأقدام لا تحتملها، وأحذية شيك معتنى بها، وأخرى كالحة مهملة تتدلى منها أربطة متسخة مثلها. اكتشف مصطفى أن للأقدام ملامح وانفعالات أصدق من الوجوه؛ لأنها لا تتجمل ولا تدّعي، ولا تُجبر على الابتسام والافتعال. الأحذية أحذية، هي فقط نفسها: محبة، كارهة، مكرهة، نشيطة تسرع إلى موعد سارّ، عليلة تبطئ وتكاد تلوذ بالأرض وتنتظر أن تنخسف بها. شاهد أقداما تجهل الطرق وتودي بأصحابها إلى المهالك، وأقداما تعرف أقصر طريق وأسرعه إلى الهدف.

كانت لورا على يساره في السيارة، ولم يبال بالسائق، ونظر إلى قدميها، وابتسمت وقالت إنها تنكمش من البرد في الحذاء ذي الرقبة:

- أقدامي اختارت البقاء في مصر.

- نوبة جنون؟

- سمّها كما تشاء. أخجلتني شجاعة الثور "الفرعوني اليساري". تمرد على القطيع، فلا أقل من أن أتمرد على نفسي.

قرص فخذها:

- طفلة، غيّارة!

t.me/qurssan

حلا لها سلوكه الطفولي:

- لو أنا طفلة، فما أجملني.

وجد مصطفى كل شيء معدّا، بما في ذلك الكرسي الذي جاور كنبة امست سريرا. لم يغب عن فطنته أن لورا جهزت المكان قبل أن تذهب إلى المطار. ولم يمهلها وهو يميل إلى الحذاء، مشيرا إلى الكرسي والسرير:

- لا خيار لك إلا في انتقاء أحدهما، وغير ذلك من شأني.

فارتمت على السرير، وانبسطت ذراعاها صليبا. كتمت نفَسها ومعه امعالها، حتى أنه ظن سوءا مسّها، فنهض وفي يديه حذاؤها. داعبها قائلا إن خلع هذا النوع ذي الرقبة مرهق، ولم تتفاعل، ولمح في عينيها طيف دموع مر فرق، فتطوي يديها لتخفيها، ويستمر صمته، ويسأل ويعيد السؤال بإيماءة الرأس، وحيرة النظرات. ثم أراحته:

- منذ كنت طفلة، لا أعرف كيف ألبس حذاء برقبة أو بدون، هذه اول مرة يخلع أحد حذائي.

هزّ كتفيه، طالبا مزيدا لم تتأخر به عليه:

- شعور لا يوصف، ارتعشت يا مصطفى، هذه التفاصيل تحيّرني.

- أي تفاصيل؟ أبرز شيء أنك مجنونة.

رأى في كلامها كثيرا من المجاملة والمبالغة:

t.me/qurssan

- أقلقتني وعطلتني عن رؤية قدميك، قلت لك في المطار إنك مجنونة!

احتضن قدميها. وجدهما صغيرتين تناسبان دقة الجسد. رجع قليلا، وجرّب تصافُح الأقدام الأربع. بدت قدماه كبيرتين، ودغدغ بإبهاميه بطن قدميها، فضحكت، وتمادى فصرخت مستغيثة باسم مريم، وتحداها أن تردّ عليها امرأة في البيت بهذا الاسم. علا صوتها باسمه، ترجوه أن يكف عن مجون لم تعتده، وانفجرت باكية.

اعتذر إليها؛ فلم يقصد إيذاءها. قبّلت يديه، وقالت إنها تبكي على ماض لم يشهد ضحكة هستيرية من القلب مثل هذه إلا بضع مرات، إحداها في يوم عزمت فيه أن تسكر، وتمارس الحب تحت تأثير الخدر، آملة أن تطول مقدماته، وأن تجعل ما يليه جزءا منه جمالا ودفئا، أن تتحدى نفسها وتدمر قاعدة ثابتة تحفظ تفاصيلها، ولا تخرج عن معادلة رياضية يجريها متبوع وتابعة لا تنسى الخطوات، من واقع دراستها عاما كاملا في كلية العلوم، قبل الانتقال إلى دراسات الشرق الأوسط بجامعة ميشيجان. مقدمات وتفاعلات ونتيجة تنتهي بزوال عبء نفسي، إشباع جوع صار الشعور به نادرا. يمضي وقت طويل، حتى يتم بتسلسله الآلي، فلتجرب أن تجعل من العادة إرادة، أن تقرر حبّ ما تضطر إليه، أن تنوي التولّه بالتحابّ؛ فلا تشعر بوطأته، وترفع عن روحها ثقله بالمداعبات، وتتعلل بالسكر فتنتقي لحظة تلائم الصراخ التلقائي في الاستجابة للذة، واستدعاء المزيد منها، ووصفها بكلام لا يخاصم الفاحش الذي لا يبرح الغرفة المغلقة،

t.me/qurssan

، باب البيت أيضا مغلق من الداخل. ومع أول انفجار لصوتها، لاحقها صوته الرزين بافتعال النكد، مفترضا أن يصل ابنهما فجأة، فقالت إن الباب مغلق، ولا بد أن يطرقه. قال إن الولد لم يعد صغيرا، ربما يصل ويتنصت على سخافات لا يصح أن يسمعها من أبويه أو من أحدهما. قالت إن أي صوت لن يبلغ الباب، فأخمد نشوتها قائلا إنهما كبرا على هذه الحماقات، فانكمشت وخرست، تثلجت روحها وانطفأت، وأسلمت نفسها إليه. ثم أسرعت إلى الحمام تريد أن تتقيأ.

أحكم مصطفى الغطاء حولها، وحملها في حضنه، كوّرها في وضع جنيني، وهي قاومت الغطاء والدفء ونبتت في جبينها قطرات عرق. وسألته عما إذا كان يحب الشعر القصير للمرأة؟ وأضحكه سؤال رآه هزلا في موقف حزين، وأغضبها أن يضحكه سؤالها الجاد، وقالت إن شعرها كان طويلا، ولما فقدت شعورها بجسدها، فلا تحبه ولا تكرهه، قررت التخلص من شعرها:

- لما قلت للحلاق: أريده "آلا جرسون"، رأيت الضيق في ملامحه، وكاد يعترض بتهذّب على التضحية بشعر طويل جميل. بعدها لاحظت تلميحات وإشارات من نساء إلى أنني صرت مثلية، وعزز هذا الظن أنني لا أستخدم المكياج.

- نعم.

t.me/qurssan

- نعم ماذا؟ تظنني مثلية؟

- أقصد الزهد في المكياج.

- لكنك لم تجبني، هل تحب الشعر القصير؟

- لو أنك تركته طويلا لكان الشيء الوحيد الطويل لديك، ما أعجب جسدا يبدأ بشعر قصير وينتهي بقدمين صغيرتين.

- طال قليلا منذ لقائنا الأول

- في أسبوع؟

ضحكت:

- أنت تنسى، ثمانية أيام.

- لا نتعامل مع الزمن، في مصر، بهذه الدقة.

- سأبقى معك حتى يطول، ما رأيك؟

أبعدت الغطاء، ومضت إلى الركن وأعطته ظهرها وهي تنزع المعطف، ثم تلاه القميص وحمالة الصدر. تابع سلوكها الرصين الذي لا يكون إلا لامرأة في بيتها، وحيدة أو مع زوج أو طفل، ولا يخدش أي من هؤلاء الثلاثة روحها. نهض وهي تستدير وأطلق شهقة أربكتها، فسألته عما إذا كان في جسدها الذي كشفت أعلاه خطأ ما؟

t.me/qurssan

ابتسم وشمل صدرها بنظرة، وطمأنها:

- يبدو "استعمال طبيب"!

لم تفهم، فشرح لها تاريخ المصطلح الذي كان يخص سيارة الطبيب، «هي دائما بحالة جيدة، لا تختلف كثيرا عن يوم خروجها من المصنع، لأنها لا تهان بكثرة الاستعمال أو بسوئه؛ لتحفّظ الطبيب في القيادة وعنايته بسلامة السيارة. ثم انتقل إلى الأشياء المحتفظة بجودتها وحالتها الأصلية، لاستعمالها بندرة وحرص.

أضحكها المصطلح. استعادته، ثم رددته لكي تشعر بدلالته، وعقبت:

- "استعمال طبيب"؟ لا استعمال، ولا طبيب أو غير طبيب.

تأمله مصطفى، مصحوبا بالشهقة الأولى نفسها. هزّ رأسه غير مصدق، وهي لا تفهم، وتريد الاطمئنان بالسؤال:

- هل يوجد خطأ؟ شيء ما يستحق تكرار العجب؟

- نعم يوجد يا سيدتي، ولكنه ليس خطأ، هو الصواب نفسه، "تبارك الله أحسن الخالقين"، ما أراه آية.

- لا أفهمك، تحسسني يا مصطفى.

- لم أشهد مثل هذا.

t.me/qurssan

- شاهدت كثيرا، ورأيت كثيرات؟

- لما شاهدت النسخة الأصلية من فيلم "الأب الروحي" ظل المشهد المحذوف تحديًا، بجمال صدر عروس آل باتشينو، الممثلة الإيطالية "سيمونيتا ستيفانيللي".

رنا إلى لورا، وكانت سيمونيتا ستيفانيللي تسبح في ضوء واهن، تقف في استقامة، وعنقها مستقيم يحمل رأسا مرفوعا في شموخ، وشعرها هائش مسّته عدوى اضطرابها، ويخفي كتفيها، ومن خلفها إضاءة أخرى غير مباشرة وتلقي ظلا على عينها اليمنى فتحجبها، وأما اليسرى فتنظر مباشرة في عيني زوج مطارد لا يزال يرتدي قميصه، ويميل برأسه قليلا، ويرفع يديه في مستوى الصدر، ولكنه يهبط بهما نحو الخصر، بأناة واحتراس، وتكاد إبهامه تمس الصدر المتأهب في صلابة البكارة.

أغمضت لورا عينيها بانتباه شديد، وأنصتت إلى قدرته على سرد المشهد بتفاصيله الحركية واللونية، والْتماسه العذر لشاب اسمه مايكل، تمكن بالجرأة والحيلة وضبط النفس من قتل تاجر هيروين وحارسه الضابط الفيدرالي الفاسد المسلّح، ثم تعوزه الجسارة أمام روح متوثبة من جسد صبية سُوّي صدرها على غير مثال.

- أنت وهي المثال، سبحان الذي خلق فسوّى.

ظن كلامه إطراء يمنحها ثقة وقوة، وهي شعرت بهجوم البرد كلما نزع

t.me/qurssan

ها قشرة، ولم تعثر على كلام. تواردت إليها أفكار وعبارات، تدافعت معا فلا تنفذ إلى لسان يتخلص من التلعثم:

- هل كان آل باتشينو يستحق أقل من تلك الفتاة؟

- في البداية، كرهت إكراهه لأبيها على الزواج. وبعد قليل حسُن لي سلوكه.

- الآن لا أحد يُكرهك يا مصطفى، لا شيء يمنعك، لك ما تريد.

وأتبعت مشجعة:

- بما هو أكثر من الإبهام!

داعبها:

- أمدّ يديّ؟

فأغمضت عينيها، وأنفها شامخ، يصنع مع بروز النهدين ثلاثة رؤوس لمثلث، ومن قاعدته يبرز نهدان منحوتان من العاج، لم يمسسها إلا الماء الحاني. يمتصان ظلهما، ولا يأبهان لوهن الإضاءة، ويرى مصطفى بعيني بصيرته كيف يجذبان خيوط النور فيسري في بهاء العاج، مندفعا يضيء فمتين تتصلبان. وتساعده على التحرر من قميصه:

- أنا أشتهيني يا مصطفى، لا أدري كيف أشتهيني؟ يبدو أنني غير طبيعية، أنا مضطربة وأرتعد من الخوف، مشوّشة وأهذي، طمئني عليّ.

t.me/qurssan

جذب إليها الغطاء، وطمأنها أنها ستكون بخير، ولا يدري كيف رفست الغطاء بقدميها ومعه البنطلون الذي جعلها مع العري العلوي أقرب إلى عروس البحر، وها هي عروس البحر تتخلى عن وقارها، وتواصل الهذيان:

- انزع عني بقية ثيابي يا مصطفى، انزعني عني، قوّض تاريخي وميراثي.

جذبها إلى حضنه، وطمأنها أنها بخير، وهي صرخت طالبة أن يردد اسمها كثيرا:

- أريد أن أراني يا مصطفى، تحسسني وأنت تصفني، أريد أن أرى جسدي بعينيك ولمسات يديك.

تساءل بإيماءات من يديه ورأسه، وأجابها:

- تقصر اللغة عن الوصف، لا ينطلق لسان عاجز عن الاستيعاب.

- لنتشجع معا يا مصطفى.

- نعم.

- كلانا متوجّس، تقدّم، خذ المبادرة.

توقف بهما الزمن، وفي الخارج مضى الوقت، وأتاهما أذان الفجر، وهما في جنتهما، فتى وصبية تقسم أنها لم تعش من قبل، ولا تعلم أن في الحياة

t.me/qurssan

جمالا كالذي رأت وعاشت. وطلبت أن تتوسد ذراعه، وألا يبرح حضنها حتى ينهضا في الضحى.

هم باحتضانها باليد الأخرى فاعترضتها وقبلتها:

- شكرا لأنك أحييتني.

- لا كلام من الآن حتى نصحو.

ابتسمت فأعاد اكتشاف جمال أسنانها:

- جملة قصيرة، أنت بدأت ليلتنا بفيلم "الأب الروحي"، اتركني أختمها بالمتنبي.

- لك الأمر، فما رأيته الليلة منك ليس له وصف إلا أنه الشعر.

- وعذلتُ أهل العشق حتى ذقتُه.. فعجبتُ كيف يموتُ من لا يعشقُ.

قبل جبينها، وهمست:

- أنت أحييتني، شكرا، يا إلهي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

17

يلتحم القارب باليخت، يقترب في وداعة لا اصطدام؛ فلا يُسمع له صوت. وفي الأعلى لا ينكسر الظلام ولو بضوء شمعة. وعلى حافة هيكل الظلام جمرة تتقد، ثم تخبو ويعاد إشعالها. يحذرهم نواف أن يرفعوا أصواتهم، ثم يمنعهم عن الكلام تماما؛ لو عرف الأعلون بوجود أحد في الأسفل، لما ترددوا في إطلاق النار، أو إرسال حرس غلاظ للقبض عليهم، وفي أحسن الأحوال سوف يكتفون بضربهم وإبعادهم.

يخفض نواف صوته، ويشير إليهم بالنظر إلى أعلى، إلى سيجار أو سيجارة بيد شخص ما ينفض الرماد كل بضع دقائق، ويهمس بالسؤال:

- هل يصلنا الرماد؟

t.me/qurssan

يهزون رؤوسهم بالنفي، يستنكرون السؤال غير المعقول. يقول إن هذا الرماد المستحيل هو ما يصل إليه، وإلى أمثاله، من خيرات بلاده.

- نحن مثقال رماد لا نراه.

يكاد صوته يعلو. وبإشارة إلى الممشى، يقترح المايسترو أن يبتعدوا. ويستمر نواف قائلا بحُرقة الحروف إن هؤلاء الأعلون لا يعنيهم وصول الفتات إلى الموجودين في الأسفل، ولا يغتمون إذا سكروا، وسقطت الجمرة فأشعلت حريقا.

فتسقط الجمرة في بطن القارب، ويلتقطها المايسترو ويسارع إلى إطفائها، ويطمئنهم:

- سيجار وقع خطأ من يد أحدهم.

كانت لورا قد طلبت سيجارا، ضمن ما قالت إنه خطتها للبعث، للعودة إلى الحياة بعد محو عشرين عاما. لم تكن تقرب إلا النبيذ، وأما غيره فكلما أتيح في حفل أو صحبة آمنة.

صار يتوقع منها أي شيء، ولكنه مطمئن إلى أنها وقور وحكيمة يشرّفه أداؤها الرزين، حتى بين غرباء تلتقيهم للمرة الأولى. ما لم يتوقعه أن تنهض بخفة فراشة، وترفع رأسها من فوق ذراعه، في ليلتها الأولى بعد لقاء حانٍ في عصفه، انتهى ببيت المتنبي، وترتب ثيابها وثيابه المتناثرة، وتتسحب إلى المطبخ، وتعد إفطارا خفيفا، وتخشى أن يقلقه الضوء فتبقى في المطبخ،

t.me/qurssan

،كتب في ضوئه رسالة:

"كيف لم أنتبه إلى اسمك؟ حضورك الطاغي أنساني جبران وبطله "مصطفى" في كتابه "النبي". لم يشفع لك إذ أنسيتني جبران إلا أنك ، ددتني إلى الله فأحببته، وهو يحبني لأنه اصطفاك لي. حين أقول إنني محظوظة بك، فهو تعبير خائن وقاصر لا يعبر عن الحقيقة. لا توجد حقيقة، ، لكنك موجود، لو لم تكن موجودا، لكنت تزوجت من نفسي. مذهبك مذهب جبراني في الحياة: هكذا تفهم، وهكذا تؤمن، وهكذا تعيش. هكذا ات. هذا أنت. أحبك كما أنت، أحبك لأنك أنت "مصطفى". حين قابلتك ، جدت جبراني، فأنت لا تعيش نصف حياة، ولا تحب نصف حب، ولا تقول نصف كلمة. ولا تمارس نصف جنون، جنونك يجتاحني عاصفا مشتعلا. حين أقول "وجدت جبراني"، أقصد أنني وجدت عالمي، حلمي ، تمردي، وما هو قصيّ في نفسي ومغيب. قابلت طفل السماء الذي ورث دهشة أبينا آدم أمام أي شيء جميل يحبه، أو لأنه يحبه فهو جميل".

انتفضت لورا لسماع فأرين يتخارشان، وسقط أحدهما على حوض المطبخ، فصرخ وصرخت ونادت مصطفى، وأسعفها الفأر قافزا إلى شباك المطبخ الذي جاء منه، واستأنف المعركة مع زميله المنتظر على ماسورة الصرف. استراحت وأغلقت النافذة، وفكرت في مملكة الفئران الليلية، وأين ومتى تعقد محاكمها، ومن يعين القضاة والمحامين؟

واصلت الكتابة:

t.me/qurssan

"لستَ مجرد محامٍ، ما حكيْته عن الشقيقين المزوّريْن، وما رأيتُه من المرأة في المقهى، قادني إلى جوهرك، إلى تعففك وترفعّك وصلابتك في مواجهة أبيك بالانسحاب إلى غرفة تطل من نافذتها على أقدام تزخر بالحياة. وبالاقتراب الحميم والتوحد فيك وجدت الحب الرهيف والنفس الشفيفة، والجنون المتمرد على ذاته. أعني ما أقول: أن يجتمع الذكاء والحساسية والرؤية الثاقبة والنبل والكرم والرقة والغطرسة الحانية والجنون والتسامي، فهذا يعزّ وجوده ويقلّ نظيره. ما أقوله فيك، ولك وأنت الآن نائم، هو غاية ما تحتاج إليه امرأة مثلي لا يرضيها أحد. تذكر ما أقوله جيدا واشربه إلى داخلك، فهو منك ويعود إليك بعد أن صار مني ومنك. هذا أبعد من التمثّل، وأبعد من الحلولية. سأبحث عن التوصيف الفلسفي لهذا الناتج التركيبي الجديد. أبحث عنه في النهار، وأشكر حيز المطبخ إذ يمنعني أن أخرج، تجنبا لإزعاجك".

همست لورا لنفسها أنها ليست هي، وأن هذا النائم ليس مصطفى نبي جبران. وجادلت نفسها بأن نبي جبران لم يغادر كتابه، وتابعت الكتابة:

"ما أكتبه الآن لك أخجل من التلفظ به، لأن الحبكة تفلت مني وتضيّق عليّ الأفق، فكيف أخيط حبي في نسيج العبارة؟ من لقاء حميم وصلني معنى قابع بين الانحجاب والتكشف، عصيّ على اللغة، ولا أحب تفسير حب رأيته في لمسات يديك، وفي مصافحة الأقدام. في الآونة الأخيرة، قبل حضوري المفاجئ إليك، كنت أشعر بقربك وأتساءل عن معنى هذا

t.me/qurssan

العرب، حيرني وأرقني. من تكون؟ وماذا لديك؟ هل هو إعجابي بالمختلف ، انجـذاب إليه؟ ما أكثر المختلفين في ميشـيجان من العرب واللاتين. ثم مبر وجودك رؤيتـي لمعنى الحياة، وجودك قيمة يا مصطفى، لو تعلم. في الصبـا كنت أحلم، وفي آخـر عشرين عاما كففت عـن الحلم، واعتبرت حلمـي صعب المنـال، أن ألتقي برجل يحبني كما أحبـه، بندية ويحرضني على الحياة، ويتقن فن الحياة، فن الفهم، فن المبادرة الجسـور الخجول، فن الحب. لا أنصاف لديه. الإنجاز الكامل والنشوة المطلقة".

سألت لورا نفسها: ماذا أكتب؟ ولماذا أنهار وأبدو بهذه الهشاشة كأني ، جدت المستحيل؟ عشت حياتي حرة وقوية، أرفض أن أكون أسيرة أحد، فكيف أجدني أسيرة لدى هذا النائم الذي لم يسمع ندائي قبل هروب الفأر؟

وتذكرت هيئة الفأر وطوله الغريب وهو يمرق برشاقة، ليس طبيعيا، وليته انتظر حتى تلتقط له صورة. لو أن مصطفى انتبه على الصرخة، لرآه وأخبرها عن فصيلته. شعرت بالعطش، ولم تشرب إلا نصف الكوب، وأرادت إكمال الرسالة:

"أنا ضعيفة أمامك، ولكني قوية بك، وهذا ما أعزي نفسي به. يتأكد لي أني أمك وصديقتك وبنتك وحبيبتك، كدت أشعر للحظات أني زوجتك، وأرجو ألا تسيء فهمي. وإذا كان في الحياة الآخرة جنة، إن شاء الله نلتقي فيها ونكون زوجين. أما الآن فقلبي لا يكون وفيّا إذا فكّر

t.me/qurssan

أن يشرك به غيرك، فأنت رجلي الوحيد. أعيش سلاما داخليا، وأتناغم مع الكون. لدي روحانيتي، بعيدا عن أي نص مقدس، القدسية كما أفهمها هي سر الإنسان، ومعنى القداسة يكمن في كل ما هو عظيم. وأنا أتسلل من حضنك قبل قليل، كنت أحتفظ بحالة إيمانية عميقة، حالة "إشراق".

سأراجع هذه الرسالة نهارا، بعد أن تقرأها. ما جدوى الكتابة بعد اللقاء؟ لا أعرف، فالكتابة أرهقتني، سحبتني وأمتعتني واستنزفتني، ورأسي الآن فارغ تماما. نفدت طاقتي، وأشعر بخواء لا عهد لي به، ولا ملاذ إلا بالنوم. إفطارك جاهز، وصباحك خير، دائما خير، وصباحي أنت".

t.me/qurssan

18

يضع المايسترو السيجار المنطفئ في جيبه. ويحذره نواف هامسا أن "مالك السيجار" إذا رآه غدا قد يشعل معركة، ويتهمه بالسرقة. هم بخلاء، وإن أبدوا إسرافا في الإنفاق الاستعراضي على الملذات. لا يتردد أحدهم في إعطاء نادل ألف درهم، بقشيشا تحت الأضواء والنظرات، في نهاية عشاء دعا إليه أصدقاءه، ويبخل ببضعة دراهم على عامل نظافة في المطعم نفسه أو في الفندق. ويشير إلى تسو وأنيل أن يقفا على حافة القارب، وأن يضعا الأيدي على جدار اليخت، ويدفعا بقوة لكي يتحرك القارب، من دون أن يشعر بهم أحد.

يشعر المايسترو بنسمة تعزّ في الخليج، طوال العام إلا في ليال شتوية

t.me/qurssan

كهذه تحرر الرياح من أسر يطول، وتذكّره بلحظة أطلقت فيها لورا لسانها من عقاله في لحظة صفو. لم تقدم هذا العرض في جولاتها المزدحمة بالانشغالات، في متاحف ومعابد ومواقع أثرية ومكتبات وجامعات. واختارت العشاء لتقترح عليه أن يتزوجا، ثم اعتذرت إليه، وتصنّع عدم سماع الطلب والاعتذار، لكي يعفيها من الإحساس بالخزي والقهر. وخاصمها الكلام حتى نهاية السهرة بين أصدقائه إلى أن عادا، باستثناء سؤال قبل أن يدخلا البيت.

قبل إكمال العشاء، استأذن وذهب ليغسل وجهه، وفي الحمام استعاد اقتراح لورا. ظن أنه لم يسمعها جيدا، وأن في الكلام شيئا من الالتباس، في صخب رواد مائدة مجاورة، وحوار السكاكين والملاعق والكؤوس وعلوّ الضحكات. لم يطلب إليها أن تعيد الكلام، ورأى في وجومها معنى الكسوف وتعمّدا لإحراجها بالصمت. في استقباله للاقتراح رآه غريبا ومفاجئا؛ فهي ضيفة، زائرة أطالت فترة بقائها حتى رجع من السفر. ولا أحد يمارس عليها ضغطا لكي تتزوج شابا حسُنت له رفقتها وراقت لها أيضا هذه الرفقة. وإذا كان على طرف أن يضيق باستمرار العلاقة فهو مصطفى، إخراسا لألسنة لا بد أن الفضول يستبد بأصحابها، ويحثهم على تساؤل استنكاري، ولعل أحدهم لام أباه، أو نبّه أمه، إلى عدم استقامة هذه الاستضافة، ولو بدا للجيران والمترددين على البيت أن لورا تقيم وحدها في المكتب.

t.me/qurssan

لم يكن وجهه قد جفّ، وهو لا يزال في الحمام يحاول أن يتذكر كلمات لورا بالضبط. هل قالت: "ما رأيك أن نتزوج؟"، أمْ أطلقت كلمة واحدة كمقذوف رصاصة يصعب أن تتفاداه أذناه: "تتزوجني؟". وهل تمكن صديقه المحامي شريكه القديم في الغرفة الواطئة من التقاط الكلام؟ كان أمس مصطفى مثقلا بالشراب، فلم يسعفه بتحديد المنطوق. ثم تدبره وانذهش من استغرابه قبل دقائق، وخمّن مصادفات ربما تشيّد له جسرا إلى ما لا يعلم. ثم حيرته الدهشة من استغرابه، وارتاب في إفاقة الماء له من الخدر. واستنكر على لورا أن تفكر على هذا النحو، ففي العلاقة الحرة بادية وانطلاق ورهافة لا تخضع لإكراهات، ولا تكدرها إملاءات، ولا تعبدها التزامات. ويكفي خلوّها من المسؤولية أو الرجاء التاليين لمتعة خالصة مصفّاة، منزّهة عن أي غرض. عهد وثيق حرّ، طليق غير مثقل بعبء، وتتحد فيه الغاية بالوسيلة، غاية كليهما السكنى إلى روح ودود، من دروب لا تقل ودّا وروعة عن لحظة اتحاد الجسد بالجسد، وتحليق الروح بصحبة الروح، في تسام وعزوف عن العالم، اغتناء بنشوة دونها كل متع الدنيا وملذاتها. سألته قَبل أيام عن حكمة اغتسال المسلمين بعد ممارسة الحب؟ لم يكن جاهزا بأي رد على السؤال المباغت، ووافقها على أن السؤال - نظريا - منطقي. ثم استعاد أحواله، وأجابها بحكمة الاغتسال وضرورته النفسية، فهذه لحظة وحيدة ينسى فيها الإنسان خالقه، وعليه بعدها أن يسترد نفسه بإزالة آثار السكرة. ثم يعود إلى الذروة نفسها وينسى الله، ثم يتذكره ويشكره. واستحسنت ردّه وأتبعت:

t.me/qurssan

- لماذا أجد لديك إجابة عن أسئلتي؟ لست متخصصا في الفقه، ولكنك تقنعني بكلام عفوي ترتجله ولا تعدّه، دائما تقنعني. والأهم من الإقناع أن الكلام معك لا ينقطع، وهذه ميزة ونعمة كبرى يجب أن تشكر عليها ربك.

- وأستحم؟

قرصت خده بدلال:

- وتستحم!

- ونستحم؟

ردّت خجلى:

- ونستحم!

وتحابّا. ثم لذّ للورا أن تعتليه، ورسمت بإبهامها مثلثا مقلوبا، قاعدته أعلى الصدر أسفل رقبته ويستند بقمته المدببة إلى قلب مصطفى. طبعت قبلة في منتصف المثلث، فأمال رأسه وغمر وجهه في شعرها العرقان. وسألته كيف اكتسب هذا المثلث لونه البرونزي؟ وأرادت لجسدها هذا اللون. تنهد وقال إن هذا المثلث، بلونه "المحروق"، يذكره بتاريخ من القهر والشقاء في الغيط، والشمس تبحث عن ثغرات في جسده المحمي بجلباب وطاقية فوق الرأس، وتتعسف بالإلحاح على ترك بصمة، أمارة تلازمه فلا ينسى نفسه.

t.me/qurssan

قبلته مرة أخرى:

- وشم مجاني فاتن، ما أجمل عطايا الشمس.

وتحمما معا، للمرة الأولى لهما معا. قالت إنها لم تحتمل الاستحمام مع زوجها حين قررت ذلك، "وألغيتُ المشروع". وفي مواجهته تحت خيوط الماء انحنى إلى صدرها، وتمتم بحمد الله، وفهمت من الغمغمة أنه يشكر الله، ومدّت يدها إلى القلادة، وقبلتها ورددت بصوت تملؤه السكينة "وتمت نعمة ربك". ضحكت وأخبرته أن الوشم البرونزي المثلث يفتنها، وأغلقت الماء مؤقتا وقالت إنه أثار اهتمامها بصدر فتنه في فيلم "الأب الروحي"، فبحثت عن أكمل خيال لفنان، حتى عثرت على أجمل من الصدر الإيطالي في لوحة رسمها الفنان الإنجليزي وليام إتي، وهي واحدة من أربع لوحات سماها "ميوزيدورا: المستحمة المنزعجة من حفيف النسيم".

فأعاد مصطفى رشق عينه في صدرها النافر:

- هل هذه الجملة الطويلة اسم لوحة؟ أين فضيلة الاختصار لو كان الفنان بالفعل يجيد نحت ثديين؟

رددت كلمتيْ "نحت الثديين"، وأغمضت عينيها:

- لوحات زيتية لا منحوتات. انس العنوان، يمكنك أن تسميها "المستحمة".

t.me/qurssan

غمر وجهه في بهائها:

- بل أنت المستحمة!

وبدلال طلبت ألا يقارنها بالفتاة الإيطالية التي اتخذ من ثدييها مقياسا على كمال الحسن، فأسلم رأسه للماء، ووجهه إلى نهر الثديين، وضمهما بيديه إلى خديه:

- كانت لقطة في مشهد قصير في الفيلم، والصورة تخدع، وينسفها الأصل.

وأكمل وهو يعابث صدرها:

- تنسخها الآية.

تركت جسدها للماء الذي أزال الصابون، وعيناها تنظر في السقف، وغابت قليلا وأسمعت نفسها:

- الآية لا تكون فقط كلاما يتلى. الآية آية.

ونفضت رأسها ثم صوبت الماء عليه واقتربت من مصطفى، التصقت به وقالت:

- أغلقه.

- الماء؟

t.me/qurssan

- نعم. جسدي ينتفض، شيء غريب لا أسيطر عليه. أغلقه واقترب. اشتهيك الآن.

- هنا؟

- هنا والآن؟ لا تضيّع الوقت، لا أريد الكلام.

فماذا دعاها إلى اقتراح الزواج، ولكل منهما حياته وعالمه وبلده؟ غسل وجهه من جديد، ثم خرج إليهم، وأوصلهما الصديق قرب منتصف الليل، ولم يحُل البرد دون أن تسأل مصطفى، وهو يبحث عن مفتاح الباب:

- أحببتني يا مصطفى؟

نبست يده في جيبه، وتسمرت قدماه، وسدد عينيه نحو وجهها، وتحاشى أن تلتقي الأعين، رغم عتمة الشارع. أمسك بيده الحرة كتفها، فنفرت قليلا وإمالة صدرها إلى الوراء، وقدماها راسختان.

- تظنني غافلة؟ لم أسمعك، ولو مجاملة، تقول إنك تحبني.

في هذه اللحظة ارتعد من فكرة فقدانه لها، أن تتركه لفراغ لم يدرك عمقه إلا حين جاءت وملأته. جذبها إلى حضنه، وأقسم أنها غيّرت حياته، ومن دون أن تقصد بعثت في روحه الرغبة في المعرفة، واللهاث وراء إشباع الفضول، والإيمان بأن الإنسان يمكن أن يكون كاملا في العقل والجسد، وأنه بعيد النظر في ما مضى من عمره وينكره، بعد أن شاركته لورا حياته، ومن قبل أن تشرّفه بالزيارة.

t.me/qurssan

أشبع كلامها كبرياء في عقلها، ولكن قلبها نبض باضطراب الباحثة عن إجابة:

- أجب بكلمة واحدة، كما أسألك بكلمة واحدة: أحببتني؟

- معك، ولك، لا تصح الإجابة بكلمة. نعم، لا. هذا كلامك وتدريبك لي على تقبّل وجوه الحقيقة. سأريحك: نعم ولكن.

- "نعم ولكن" تعني لا. كأنك لا تعرفني، لا أحب "اللّوَع"

علت ضحكته في صمت الشارع:

- اللّوَع؟ من غذّى قاموسك بهذه الكلمة؟

- أمك، أمك يا مصطفى. اسحب من فضلك "نعم ولكن".

- تجاهلي "نعم ولكن". قبل وصولك كنت أعبث. جذبتني اللعبة وأنا حديث عهد بالإنترنت ونسلها من الشبكات التفاعلية، واستهواني حب الاستطلاع وتماديت، وقلت: لا أخسر شيئا، لا شيء يضرّ أو يهم. كلانا بعيد. وحين وصلت إلى القاهرة شغلني اشتهاؤك، لون مختلف من العبث غير المكلّف. وفي سفري تأكد لي انتهاء كل شيء، بعد رسالتك "لنظل أصدقاء، لا أصلح للحب، ولن يرضيني أحد، أي أحد. أنا لا أفهمني".

- لا أحسب أنني تكلمت بهذا اليقين، ولا أملك نص الرسالة، راجعها تجدها تتضمن شكوكا، لعلي ختمتها بالقول: "أنا تقريبا لا أفهمني".

t.me/qurssan

ليكن، وفي الرسالة الثانية، التالية مباشرة، اختلف الأمر، تيقنت انني أحبك.

ضمت طوق المعطف وهي تتجنب قشعريرة تسري في دمها:

- صدقك نبيل وموجع، يبكيني جمالك. حتى في هذه ترفض الكذب، ولا تحاول إيهامي، ولا تخشي أن أسيء فهمك وأنسحب؟

عانقته، وكان باب يفتح من الداخل، فاعتذر إلى أمه أن أزعجها بصوته. فقالت بفرح:

- عرفتك من ضحكتك، تعيش وتضحك يا حبيبي.

أبلغته أمه أن أباه ينتظره. وعانقتها لورا، وودعتهما.

قال أبوه إنه سجل اسمه في قائمة الراغبين في الحج، لدى إمام المسجد. إنه سمع كلمة عكّرت صفوه، قيل له: لماذا تحج إذا كنت تسمح لامرأة أجنبية أن تعيش مع ابنك؟

استقبل مصطفى الكلام بهدوء، وسأله:

- من الحيوان لأعلمه جوهر الدين؟ من حسن إسلام المسلم تركه ما لا يعنيه، معنى الكلام أنه عرف وتقصّى وسأل، وفي النهاية يحرق دمك!

جاءت أمه بالشاي، وكان قد أفاق تماما، وقال لأبيه:

- سبحان الله، نويت أنتظر للصبح وأفاتحك في موضوع، خير البر عاجله.

t.me/qurssan

وقعدت الأم، فأكمل مصطفى:

- نويت الزواج من لورا.

- لأجل الناس؟

- لا، لأجلي.

- ألف مبروك يا ابني.

لم تتوقع الأم هذا الطلب، أو المباركة السريعة من الأب، وجددت حزنها على عدم توفيق مصطفى في زواج سابق لم يخرج منه بابن. وعلى كره منهم استعجل الطلاق، ولم تكن طليقته على هوى الأم التي تعترض الآن على موافقة الأب:

- ألف مبروك على امرأة أكبر منه؟

خفف الأب عنها مداعبا:

- وأنت أكبر منها وأحلى. لولا أنها قالت لك سنها، لافتكرتها أصغر من مصطفى بسنين.

- لا أكبر ولا أصغر.

أمسك كوب الشاي وقرّبه إلى عينيه، ونظر إلى مصطفى:

- ونعمة ربنا، أمك مدحتها وأنت مسافر، وشكرتها لما شافت شطارتها في الخبيز.

t.me/qurssan

- خبيز؟ ابنك محتاج خبّازة يا أمّ؟

انتظرها مصطفى حتى سكنت:

- زعّلتك في شيء يا أمّ؟

ألح الأب:

- ردّي عليه، كنت مبسوطة منها، وساعة الجد يبدأ النكد.

- يا ناس، يصوم سنين ويفطر على نصرانية بزمبور.

احمر وجه مصطفى، ودافع أبوه:

- يا ولية عيب، كنتِ كشفت عليها؟

لم ترد على زوجها، وخاطبت مصطفى:

- غواك أنها معصعصة؟

رد الأب:

- الرجل يفهم في المرأة، معصعصة؟ عروسة ابنك غزال.

استسخفت استهزاءه برأيها، واستنكرت الإشارة الأخيرة:

- ضيفة خواجاية تبقى، بقدرة قادر، عروسة ابني؟

وسألت مصطفى:

t.me/qurssan

- عجبك لون عينيها؟

قبّل رأسها:

- عجبني دماغها يا أمّ.

- دماغها! مستخسرة على نفسها تربّي شعرها.

هدّأها الأب:

- بكرة يطول.

ردّت بغضب:

- شعرها في شنطتها، سلبة ناعمة. احكم أنت على امرأة قوية تجز شعرها الطويل، وتسترجل.

قام أبو مصطفى بحماسة. احتضن ابنه وقبّله. لا يدري مصطفى متى حظي بقبلة من أبيه؟ حتى في سفره الأخير اكتفى أبوه بمصافحته، وجاءت القبلة العزيزة تهنئة أدفأت قلبه في برد لا تحتمله لورا، وقال لها إن عنده خبرا مهما، فقالت إنها تريد أن تشكره؛ لأنه صالحها على الحياة، وحثّها على إعادة اكتشاف الروح في تفاصيل كانت تراها من التوافه، منذ عشرين عاما تمنت أن يخترعوا وجبة غذائية في حجم حبة الدواء تُبتلع فتُشبع، ولا يضيع أحد وقته في شراء الخضراوات وطبخها وإعداد مائدة وتناول الطعام. تُهدر سنوات من العمر في هذه السخافات، إلى أن صاحبت أمّ مصطفى، وناولتها

t.me/qurssan

مطع العجين. رأت الإنسان المخلوق من تراب يخلط الطحين بالماء، ثم عمر ويضعه في النار والهواء، فتجتمع عناصر الطبيعة وتتكامل. وعت أن إعداد الخبز طقس روحي وليس سلوكا آليا، وأن للعجين روح فلاح مهد الأرض، وزرع، وسقى، وحصد، وحمل القمح من الغيط، وغسله من الغبار وطحنه. وفي المطرحة الخشبية الناعمة روح من الخبز، ورائحة عرق نجار، صنع من الخشب مطارح، ومقاعد وأسرّة.

- خبزت مع أمك يا مصطفى، ومدحتني وشكرتني.

أنهت حكايتها، وسألته عن الخبر المهم الذي جاء به، فلم يجب وإنما قال:

- موافق.

استفهمت برفع كتفيها معا، فأعاد الكلمة:

- موافق.

- أنت موافق، وأنا لا أصبر على الإطالة، سأنام:

- اقترحتِ أن نتزوج، وأنا موافق وأنت موافقة.

تنهدت بعمق. استمتعت بشهيقها، تستطعم روح هواء حيّ ينعش خلاياها، ثم تردّ بعضا منه فيخرج مصحوبا بآهة الخلاص:

- غيّرت رأيي.

t.me/qurssan

- غيّرتِ رأيك؟ ألغيتِ الفكرة؟

- لا، قلت لك قبل قليل: "سأنام". والآن غيّرت رأيي. لا نوم الليلة!

t.me/qurssan

19

- تعال يا تسو، اسمع ما يسرّك. لكم كرامات حتى في أمريكا.

بإشارة من عصاه، يستدعيه المايسترو. ويتأجل تحرك القارب بضع دقائق، ولا يوافق نواف على التأخر، ولا يستطيع رفع صوته بالاعتراض. ويهمس إليه المايسترو بما يبدو عليه تسو وأنيل من هزال لا يكفي لدفع القارب بعيدا، ويخرج من الحقيبة ثلاث قطع من الشوكولاته، يوزعها عليهم، ثم لا يبخل على نفسه بقطعة. ويقول لنواف إن الانطلاق، في أي أمر، تلزمه شرارة، لكي يتم بأقصى طاقة، وبعد أن يأكلوا سيدفعون القارب إلى مسافة كافية، قبل إنزال المجذافين العاطلين إلى الماء، للرجوع إلى الممشى. ثم يسأله تسو:

t.me/qurssan

- أسمع ماذا يا سيد؟

لا يرى تسو، في الظلام، ابتسامة المايسترو الذي يعجب أن تتعلم لورا الخبيز سريعا، في بضعة أيام، وإن لم تُحكم صنعه. ضحكت وهي تبلغه بأنها أتقنت أكله، وأحبته ساخنا فور خروجه من الفرن، وألهب كفيْها، ولكن أمه أمسكت الرغيف بهدوء وثقة، ولم تؤذها سخونته، وقطعت لقمة ومضغتها، وقلدتها لورا وكان الرغيف فقد بعضا من حرارته، وأكلت الخبز الحاف للمرة الأولى، ووجدته لذيذا. ولم يغب عنها ألا تسمع كلمة "الخبز" من أمّ مصطفى ونسوة يساعدنها. هن يقلن: "نخبز" و"خبيز"، ويضربن المثل "اعطِ العيش لخبازه"، وبعد مرحلة الخبيز يكون اسمه "العيش". وقالت لمصطفى:

- أنتم الشعب الوحيد الذي يسمي الخبز باسمه الحقيقي "العيش"، وتقبّلونه بما يشبه الاعتذار، لو رأيتم كسرة منه ملقاة في الطريق، وتحلفون به كما تحلفون بالله وبالنبي محمد.

ينتهي تسو من أكل الشوكولاته، ويعيد السؤال:

- أسمع ماذا يا مايسترو؟

فيقول إن لورا بعد مشاركتها في الخبيز قادت حملة، في مواقع اجتماعية افتراضية وواقعية أيضا في محيطها الجامعي، للتوعية بخطر الوجبات السريعة، واكتشفت فيلما تسجيليا جميلا عنوانه "كيف تطبخ حياتك" بطله راهب

t.me/qurssan

بوذي أمريكي نقل الطبخ، من موقع الضجر إلى مرتبة الفن، فلا تملّ وأنت تنتظر نضج الطعام، وستعرف معنى أن تتنشق تفاصيل حياتك. ويأمل الرجل أن يطهو الناس حياتهم، ويفكروا في روح الطعام. ويدعوهم إلى تحضير الخبز، وأن يصنعوه في بيوتهم، ويبتكروا له أشكالا:

- أول ما اشتريناه معا فرن صغير في بيتنا في ميشيجان! صاحبك الراهب البوذي ملهم.

- ملامسة روح الأشياء بالمعايشة هي تجربة أكثر عمقا من الصور والأفلام. ولهذا تكون أمك أكثر إلهاما يا سيدي.

- الملامسة! يا الله. لعل صاحبك البوذي خجل من تفسير سريان السحر الغامض حين تقبض اليد قطعة عجين، وتحنو عليها، وتبتهج بها وتكورها، وتصنع صدرا يشتهيه صاحب اليد.

لم يفطن مصطفى إلى دلالة قطعة العجين في الكف، إلا من قول لورا إنها فرحت باللعبة، وصنعت من العجين عرائس وطيورا وثلاثة أهرام ملتصقة أضحكت النساء. ولم تجرؤ على أن تقول لأمه كلمة تنال من هيبة تاسوع "المحشي"، بأرديته متفاوتة البذاخة والصلابة والنعومة: من ورق العنب والخسّ واللّفْت والسّلْق والكرنب والكَبَر، ومن الباذنجان والكوسة والفلفل. ثم أتقنت لورا تقوير الباذنجان والكوسة بعد محاولات جرحت حساسية القرع. وكادت تقول لأمه إن هذا المحشي الحرّيف، الذي تجهد نفسها في إعداد خلطته، يهان في الفنادق والمطاعم الكبرى بتقديمه مع المقبلات.

t.me/qurssan

وضحكت قالت لمصطفى إن لتقوير الخضراوات المصمتة فلسفة خاصة بتفريغها من محتواها المائع، وحشوها بما نشاء، بما كنا نودّ أن تكونه.

أعجبه انسجامها مع أمه، ولم يعرف سببا مقنعا لاعتراضها على الزواج، إذا كانت قد أحبت لورا.

هو أيضا يحب لورا، ولا يطمئن إلى نجاح التجربة، وليس لعقله دور في تدبر مستقبلهما معا، ولم يناقشها إلا في أمر محدد:

- لكل منا تجربة، للأسف فاشلة. أنت فزت من تجربتك بابن، وأنا خرجت بدرس ألا أكرر التجربة.

احتوته بنظرات صامتة متفائلة:

- ثُم؟

- أعرف من دراستي القديمة للرياضيات، وتعرفين من عامك الوحيد في كلية العلوم حاصل جمع صفرين، وحاصل ضربهما كذلك.

- ثم ماذا؟

- أخاف تكرار الفشل، وانكسار القلب مرة ثانية.

- ثم ماذا يا عزيزي؟

- خلاص، أنهيت كلامي.

t.me/qurssan

- تخاف فشل زواجك؟ موافقة على أن أنصرف الآن، من حياتك ومن البيت إلى المطار. لا تنتظر أن أتسوّلك.

تحجرت دموع في عينيها المنكسرة المتحدية في كبرياء. وأيقن أنها جادة، لا تهدد ولا تتوسل، وإذا كسر قلبها فلن يفلح في ترميمه. وسألته:

- حسنا، ترفض الزواج؟

- لم أذكر كلمة "الرفض".

- تتردد، فماذا أكون الآن، وقبل الآن؟ أشعر بك وأعاملك زوجا، فكيف تراني؟ قلها، انطق أي صفة وأنا أستحقها. ربما افتكرت أنني بلا ثمن؛ لأني أجنبية.

- أناقش ولا أتهم.

- باختصار، ما دمت تستطيع الحياة من دوني فاعلم أنني عبء عليك. واعفيك من أي شيء، وأستطيع جمع أغراضي في دقائق وأذهب. لن أكلفك حتى أن تودعني، أعرف طريق المطار.

- أعرف أنك تعرفين الطريق، لا أنسى استقبالك لي.

قالها بامتنان الشاعر بالحنين إلى لحظة دافئة. ولم يكن هذا يكفيها، فأتبعت:

- لن أخرج من مصر بشيء، حتى حقيبة ملابسي أستغني عنها، وأذهب إلى المطار خفيفة.

t.me/qurssan

رآها امرأة غريبة عنه. في لحظة تم نسيان مقدمات حافلة بالمجاملات، ونسف جسور صداقة توّجت بعلاقة حميمة. فهل يبدأ من الصفر؟ من رمية الطاولة بزهر النرد حاملا حرفيّ "Hi"، وقد اكتسبت لورا مناعة تحول دون الرد بكلمة "أهلا". كانت البداية لهوا، سعيا إلى الاكتشاف، فكيف تكون البداية بعد هذا الرصيد من حذر ونقاش ومحاورات ودعابات ومشاعر صادقة وآمال معرّضة لأن يغلق عليها باب لن يملك له مفتاحا؟

عثر على ما يشبه المقدمة، في ثوب دعابة:

- حتى بدون الحقيبة، عندك شيء زائد.

- ما الذي زاد عليّ؟

- شعرك، شعرك طال.

- أتيت وهو "آلا جرسون"، وطال قليلا وأصبح أقصر من "كاريه"

- يعجبني شعرك في كل الأحوال، ويبدو أنه لا يعجب أمي.

شرعت في ابتسامة لم تكتمل:

- أمك تريد تضفيره، أجلستني مرة في حجرها وحاولت، ونصحتني بإطالته.

- فكرة. هل يرضيك أن تخذلي أمي بألا ترى شعرك المضفور؟

- أمك منعت عني الديك الرومي، ونهرته بسؤال غريب: "إيش عرّفك يا غراب البين أنها بزمبور؟".

t.me/qurssan

فرقع بالضحك، وهي لا تفهم وتستفهم. واستحيا أن يوضح المقصود، ، لمس شعرها بأطراف أصابعه:

- لو طال شعرك، فسوف تكون لي معه تجربة مجنونة.

- أي تجربة؟

- قلت "لو"، وأنت نويت السفر، مع السلامة.

قالها هذه المرة وهو يمد يده بالمصافحة، ولا يكبح الضحك، فعانقته. ،بت على قدميها؛ لكي تتمكن من التعلّق به، لتضرب ظهره بيديها.

- مجنون، وحياة "العيش" أنت مجنون يا مصطفى.

تفاءل بذكر اسمه:

- أرأيت؟ لا يمكن الرجوع إلا بعد إتقان القسَم المصري. نحن نحلف ،العيش والملح، لا بحياة "العيش".

- كم يلزمني هنا لإجادة الدلالات المصرية؟

- يلزمك أن نتزوج، الليلة يا لورا.

ضربت صدره بمحبة:

- استشر أمك، يزعجها أنني أكبر منك بأربع سنين.

- أمي طيبة، وأنت أدرى بطيبتها.

t.me/qurssan

- تعاقبني لأنني لم أكذب لما سألتني عن سني.

- أنت فوق الأربعين بسنتين، وأنا أقل من الأربعين بسنتين، وأبدو أكبر منك.

ردّت باعتداد:

- أكيد، أنا بجوارك تلميذة وأنت الأستاذ.

قبل جبينها:

- والتلميذة لا تتأخر عن موعد المأذون.

لم يكن للمأذون التحفظ الذي لدى أمّ مصطفى وصارحت به ابنها وزوجها. نظر في جواز السفر، وإلى صاحبته، ثم ألقى نظرة على بطاقة الزوج، وقرّب جواز السفر مرة أخرى إلى عينيه، وتهجّى بصوت خفيض حروف الاسم الأول "نوورا"، وسمعه مصطفى فصحح:

- لورا يا مولانا، الدكتورة لورا.

- نعم يا أخي، لوورا.

قرأ الوجه الثاني لبطاقة الزوج، وقال: "مطلّق". وأعاد قراءة بيانات جواز السفر، وفشل في تهجّي الحروف التالية لاسم لورا، وسألها عن اسم الأب والعائلة. شك مصطفى أن الشيخ يريد معرفة دين الزوجة، ويراوغ لكي يتجنب السؤال المباشر، وأنه لا يعرف إلا قراءة اسمها وحده،

t.me/qurssan

،طو طا، بعد أن صحح له مصطفى نطقه. رفع الرجل رأسه، ورحب من ،ا.بد بمصطفى والشاهدَين، من دون أن يهتدي إلى قلادة قد ترشده إلى ،،ن سيدة تُحكم المعطف حول عنقها. وابتسمت لسؤاله عن تخصصها الطبي، وأجاب مصطفى أنها متخصصة في الدراسات الشرقية. وأكملت او را بالعربية:

- في جامعة ميشيجان بأمريكا.

بمؤخرة القلم، طرق المأذون المكتب طرقات بطيئة قلقة، وطلب ، ،فة من سفارة بلادها، فنهض صديق مصطفى إلى خارج المكتب، وتبعه ،صطفى. اتفقا على أن الرجل لئيم، يطمع في أموال تزيد على رسوم عقد القران، وإذا تعنت واستمرأ الرفض فغيره موجود. كان الصديق يتكلم ،معقلانية رافضا نهم الرجل إلى المال، ومصطفى يودّ الانتهاء، ولا يحب أن يكسر خاطر لورا بالتأجيل، ولو إلى الغد:

- إذا كان يبتزنا، فأنا قادر على تهديده، وإنهاء مساومته.

دخل وأسند يديه إلى مكتب الرجل:

- اسمع يا أستاذ، أنا والدكتورة لورا زوجان، بالطبع تسمعني وتفهمني؟ زوجان أمام أنفسنا، وأمام الله وبإرادته، وأمام الشهود. ولو رفضت كتْب الكتاب فتحمّل العاقبة أمام الله.

همّوا بالوقوف، فاستمهلهم الرجل، وقال لمصطفى إنه محام يعرف القانون،

t.me/qurssan

فقام زميله وقدّم إليه بطاقته، وقال إنه أيضا محام ويعرف القانون.

ضحك الشيخ:

- أصعب شيء أن تتعامل مع المحامين وضباط الشرطة.

- اكتب يا مولانا، ربنا يهديك.

- يهدينا جميعا. بسم الله الرحمن الرحيم.

t.me/qurssan

20

- بسم الله الرحمن الرحيم. يهدينا جميعا.

قالها المأذون، هذه المرة، سعيدا بما ناله من مال أكثر مما طلب، ومبتهجا بالتهلل البادي في روح العروسين والقافز من أعينهما، وهما يتبادلان قبلة فموية عميقة نسيا معها الحضور، وتلاها حضن تحاور فيه الجسدان بالتمايل الرهيف والالتصاق، وانتهى بعناق الأيدي، ومصافحة الشفاه.

وأتبع الشيخ:

- على بركة الله، ربنا يهدّي سرّكم، بالرّفاء والبنين.

سألته لورا، بعد الخروج من مكتب المأذون: ماذا قال الشيخ؟ سمعتُه

t.me/qurssan

كأنه يقول "بالبنات والبنين". أوضح أن الشيخ يردد دعاء آليا، أمنيه تقليدية تقال في هذه المناسبة، تلخصها كلمتان ليس فيهما "البنات". لم تكن قد سمعت أو قرأت كلمة "الرفاء"، وشرح لها أنها تفيد الوفاق والتفاهم والانسجام. قالت إن لهذه الكلمات الثلاث معنى واحدا تقريبا، وتمنت أن يكون لها منه ولد، فضغط على يدها واستحسنت منه ذلك واستبشرت. وقالت إن ابنها كلمها في الصباح، صوتا وصورة، وكانت معه صديقته في نيوزيلندا، وإنه بهت لثوان، وتركها ليبلغ صديقته الخبر الصادم، فكانت صديقته أرجح منه عقلا، وفرحت للورا وهنّأتها بالزواج، وتبعها الولد معتذرا، وتمنى لأمه الخير.

ضحكت لورا:

-- لم يقل بالبنات والبنين؟

صحح مصطفى:

- بالرفاء والبنين.

رفعت كتفيها في استفهام استنكاري:

- لماذا لم يقل الشيخ: "بالرفاء والبنات"؟

وكان اليوم قد بدأ مثل غيره، باستثناء إنهاء الترتيبات الصغيرة لمحتويات الشقة، بإشراف أمّ مصطفى ومساعدة جارة لم يسرّها زواج مصطفى من امراة قصيرة الشعر، فعمدت الأم أن تريها شعر لورا المقصوص، وتعدها

t.me/qurssan

ان العروس تنوي أن تتركه كما كان وأطول، فيسعد قلب الجارة، ويودعها مصطفى ولورا. يقول لأمه إن اليوم طويل، سينتهيان أولا من عقد القران، ويسهران مع أصدقاء، ويبيتان الليلة فقط في أحد الفنادق. وتختلي به أمه، بعيدا عن سمع الجارة لا بصرها:

- إيش يفرق اليوم عن غيره؟ المحروسة كل ليلة في حضنك، يا قلب أمك، من غير فنادق وبعزقة فلوس.

وعاجلته قبل أن يرد:

- كفاية أنه فرح ساكت، لا هيصة ولا كهارب ولا زفّة.

- محتاجة تكون أول ليلة براحتها يا أمّ.

- بدأنا اللّوَع! أعرّفها أن شعرها طال في سريرك؟ إلا لو كانت كارهة لهرّب الحلال في البيت.

سمعتها لورا، فهرولت إليها، وقالت لمصطفى:

- أمي عندها حق يا مصطفى. الفندق كان اقتراحك.

وقبّلتها لورا:

- شكرا يا أمّ.

رددت أمه كلمتيْ "أمي" و"يا أمّ"، وضربت كفّا بكف:

t.me/qurssan

- فهمْت. امرأة قادرة، لازم تأكل عقل ابني.

غادرا البيت. وقال مصطفى إنه لولا عناد أمه لكان الفندق يناسب الليلة الأولى. هنا في البيت، في ليلة أولى، سبق أن حضر المتنبي. وهناك في الفندق، في ليلة أولى، يفترض أن يحضر أبو نواس، ساقيا ونديما ثملا، ويصرفانه في الوقت المناسب، فيستجيب وهو يترنم:

مضى بها ما مضى من عقل شاربها.. وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

فكل كفّ رآها ظنها قدَحا.. وكل شخص رآه ظنه الساقي

قالت إن الليلة لهما، ولن يزاحمهما أحد، وإذا جرؤ على ذلك المتنبي وأبو نواس وأي متفاصح، فسوف يلقيانه من نافذة الفندق. وبعد إصرار أمه على الرجوع إلى البيت، سيكون النبيذ ثالثهما، ويطردان الندماء والشعراء؛ ففي عنفوان الهوى لا محل لبلاغة، ولا معنى لكلام.

بعد العشاء في مطعم عائم في النيل، زودهم الصديق بزجاجتي نبيذ، وقال إنه يريد أن يسلحهما أيضا بزجاجة فودكا، وهو يعرف أنهما لا يفضلان الفودكا. لا ضرر في بقائها لو عزفا عنها، وإن راهن على أن هذه الليلة ستشهد تغييرا في المزاج "يلائم المقام"، ولم يدلهما على طبيعة هذا "المقام". ثم أوصلهما إلى البيت، وأشار بعلامة النصر، وقفز بالسيارة في طلعة أمريكاني أضحكتهما في ختام مشهد مشبع بالدعابة والمزاح.

- صاحبك يقود بعنف.

t.me/qurssan

لم يكن مصطفى راغبا في الكلام، فقال:

- كلنا هذا الرجل.

- إلا أنت، تقود بسرعة وحرص وحب للسيارة، كأنك تعتلي امرأة!

- ندخل البيت والنبيذ ثالثنا.

- خطرت لي فكرة عن علاقة النبذ بالنبيذ، ومثلها الحرث بالمحراث، وأزعجتني الصلة بين الحرب والمحراب.

- الليلة ليلتنا، ليكن عقلك في عطلة، هدنة من التفكير. يسقط حرف الراء من "الحرب".

ضحكا وذهبا إلى المكتب. وضع يمينه على مصراع الباب، ويسراها على المصراع الثاني. وبيسراه ويمناها تصافحا. وفي ما يشبه عناقا لمصراعيْ باب، اقتربا في قبلة عابثة، وتماس شفيف، واليدان مثبتتان في الباب. ضحكا وهما يودعان ليالي المكتب، وصعدا إلى البيت.

فسّر لها سرّ الشجن في عيني أمه، فلا زواج يتم في صمت، في قرية كانت بعيدة، ثم طاردتها المدينة وأدخلتها في دائرتها واحتوتها في حدودها. أمه لم تحب الحضن القاسي للمدينة، وإن ظل أهل القرية يعرف بعضهم بعضا. هنا يتقاسم الناس الفرح، ويتشاطرون الأحزان، بصدق أو مجاملة أو رياء:

t.me/qurssan

- بالصوت والأضواء يستقبلون العروس، أو يودعون الميت.

انتبه مصطفى إلى زلة لسانه، وتشاءم بسيرة الموت، وسكت. وقالت لورا إن لكل مكان عادات هي طبقات رسوبية في اللاوعي، ويجب ألا تقارن بعادات مكان آخر. ولم تنتقد الرغبة الدائمة لدى الناس هنا في معرفة أسرار الآخرين، وإنه غدا سيذهب معها إلى الولايات المتحدة، وسيرى القداسة التي يتمتع بها الفرد داخل حيّزه الشخصي، وقد دفعوا ثمنا باهظا لهذه الخصوصية. ولكن هناك وجوها أخرى للفتور والنفور والوحدة والاكتئاب:

- حتى ابني لا أضمن أن أراه. لم يقل ولو مرة، وهو يمزح أو يجامل، إن لديه حنينا إلى الرجوع، أو شوقا إلى أمه.

انقبض قلب مصطفى. كل منهما ينهي كلامه بما لا يدعو إلى التفاؤل. هو يتكلم عن وداع الميت، وهي يحزنها أن ابنها الوحيد مسافر، في هجرة قد تبتلع بقية عمره.

عمد إلى تغيير المزاج فباغتها:

- أنت عبيطة.

ضربت كتفه، وأعجبتها الكلمة التي سمعتها من أمه وجيرانها في الخبيز. وقالت إن المعاجم دائما فقيرة في الإحاطة بما تزخر به اللغة الحيوية التي تتغذى على محاورات الشارع ومشاجراته واشتقاقاته الحرّيفة المنحوتة. فقر

t.me/qurssan

مَي لترفّع المعاجم عن ضمّ ما يراه كهنة اللغة خادشا لجلال الورق، وفقر ، و حي يحرمها مما يبتكره العوام من صيغ دالة وثرية يصعب على المعاجم ان تلاحقها، أو تقبض على تلك الروح، إلا بعد سنين.

تأسّت على عمر ضائع:

- قبل أن أعرفك، كنت أقيم في المعاجم، ولا أبرح المناهج. برحلتي هذه أشهد أني بُعثت، وصالحت الله.

داعبها مصطفى:

- وقبل أن أعرفك، كنت مستريحا من القلق والتفكير والمعاجم.

قبضت الهواء في كف مضمومة، وصاحت:

- نعم، صنعت فيك معروفا. اترك المعاجم تجد الكلام كله يمشي بمحاذاتك، المعاجم أحيانا قبور تحفظ مومياوات الألفاظ، والشارع يحرر اللغة من ضيق التوابيت والأقبية، ولا يبالي بسلطة المعاجم.

لعن مصطفى اللغة والمعاجم واللحظة التي أسمعها فيها كلمتيْ "أنت عبيطة"، وضاق صدره بميلها الفطري إلى التنظير، وعقلها الحاضر متيقظا دائما، حتى في ليلة نوى أن توهب للجنون. وأشار إلى الزجاجات الثلاث، فأجابت لورا وهي تخلع المعطف، وتضحك من أثر ما تناولته في المطعم:

- صدقت.

t.me/qurssan

فأعلن مصطفى:

- لتكن ليلتنا هذه هي الأولى، ولقاؤنا هذا هو الأول. ولا يصح أن تشرق الشمس على خمر في بيت عروسين، إلا وقد فرغت، مثلما يفرغان أيضا.

- صدقت.

- فرغ قاموسك إلا من "صدقت"!

- فعلا صدقت. أنوي الليلة أن أنتحر، ولو كانت ليلتي الأخيرة، أن أستهلك طاقتي، وأن أستبد بك فاحتملني. أنت من أفاقني وشجعني وأحياني.

قال إنه يشتهي زجاجة نبيذ من جسدها مباشرة، سيجرب كيف يكون النبيذ بالعرق ورائحة مسامّ جسدها. يصبّ برفق بادئا بالعنق، ويتلقى الخمر، وهي تسيل في خيوط تبحث عن مجرى في حنايا الجسد. البطء والهدوء يمنحان روحها السكينة، ولا أكرم من ليل الشتاء، ومصطفى يستنشق نبيذ جسدها، وتدمع:

- لا أصدق يا مصطفى، أنت تكتب تاريخ جسدي.

ارتشف دموعها:

- وأنت نبهتني إلى المثلث البرونزي، وشم الشمس وذاكرتها.

t.me/qurssan

أشار إلى الزجاجات الثلاث. سوف يتقاسمان النبيذ، ثم ينالان من الفودكا ما تيسر لهما. يتفقان على الفوز في اختبار النبيذ، فلا يبقيان منه شيئا إلى الغد. وكلما عبّ من جسد لورا رشفة صرخت، فيغرق في العبث، ويعلو صراخ ونق بهاء الصوت وطفولته. يلهوان باطمئنان، هو يطربه غنجها، وهي بعد اكتشاف جسدها معكوسا في عيني مصطفى ويديه وحواسه كلها، تطلق ضحكة شبقة، عجبا لإنعاظه، وتتوارى عنه بحجة عدم قدرتها على احتمال هذا المخلوق، فيطاردها ويصب المزيد حتى يلتهم جسدها الزجاجة الأولى ولا يرتوي، ومصطفى لا يشبع. يستريحان ويواصلان، ولا تستحيي من عريها، ولا تنكر هوسها، فتتحمس للمزيد وتذهب إلى ساحة المجون، تضع فيها قدما وترفع الأخرى لكي تنقلها إلى خطوة أكثر مجونا، وتتبعها القدم التي تخلصت من الغوص الأول، لكي تنغرس في خطوة متقدمة، حتى توهلت وازدادت ظمأ يحثها على ارتواءات تثير جنونها إلى عطش جديد.

ثم استلقيا متواجهين، فارغين تماما ومنهوكين، تغنيهما العيون المطمئنة، كلاهما مرآة الآخر. قالت:

- أودّ لو تحدث الآن معجزة يمنّ بها الله عليّ، فأدين بالشكر له طوال عمري، "وتمت نعمة ربك".

وقبّلت القلادة، وأعادتها إلى صدر مصطفى الذي حيرّه أمرها وإشاراتها، كلما نسي حكاية المرأة الأخرى. وسألته:

t.me/qurssan

- نظراتك أحيانا جديدة، كأنها تتعرف عليّ، وتحاول قراءة جسدي، وقطفه بعينيك ولو مغمضتين، هل تراني غريبة؟

- لست غريبة، أنت سحرتني والسلام، جسدك رشيق يمكن احتواؤه كطفل في حجري، نابض شهي جسور يسارع إلى مبادلة الحب بندية. يغيب الكلام أحيانا، ولكني مأخوذ بتفاصيل هذا الجسد، في كل عضو أجد الروح تنبض، وشيئا ما موصولا إلى قلب أعشق نقاءه.

دمعت، وقالت:

- كفى، لا أتحمل هذا، أنت تصف ملاكا، ولستُ هذا الملاك.

قال إنه يتمنى أن يفيض الله عليه، فيلهمه كيف تُعزف الموسيقى وتؤلَّف:

- الموسيقى هي الإعجاز الذي يمنحه الله من يشاء.

مسحت دموعها وقالت:

- تريد أن تنسيني رجائي إلى الله أن تحدث معجزة.

- أي معجزة؟

- معجزة الشعر؛ لأكتب فيك بيتا، سطرا، مشهدا من كلمات قليلة، أقول فيها: كل وردة تتفتح في حديقة جسدي يدلّ على رائحتها ماؤك.

انتشى بالكلام وازدهى بنفسه:

t.me/qurssan

- لم أكتب الشعر. وإذا لم يكن هذا هو الشعر، فماذا يكون؟

ومن خصاص النوافذ والستائر تستأذن أطياف ما بعد الفجر، ولا يمنع الباب المغلق أزيزا، كأن باب الشقة يفتح ويغلق، فارتدى مصطفى جلبابا على عريه، ووجد على المائدة صينية لا يمنع غطاؤها الأبيض الناصع ما يفوح من روائح تسيل اللعاب، وتحفّز المعدة. واكتشف أنه جاع، ولا بد أن لورا قد جاعت، كلاهما يحتاج إلى طعام، ليس مهما أن تحسبه المعدة عشاء أو إفطارا، فالأهم أن أمه شعرت به، وأحضرت الطعام في وقته تماما، لا قبل ولا بعد.

تأخر على لورا، وقلقت وأتت. أغمضت عينيها انتشاء برائحة الطعام، وقالت:

- أمّ مصطفى امرأة عظيمة.

لم يسترح لألفاظها. نبهها إلى أن في صيغة "أم مصطفى" ندّية غير محببة إلا لمن هم في السن نفسها، وأن عليها أن تناديها "أمي" أو "ماما"، وألا تقول لها "يا حماتي". ولورا ترد:

- نعم، فهمت. ألم تسمع ردي عليها لما طالبتني بإطالة شعري، قلت لها: "حاضر يا أمّ"، فاحتضنتني وشككت أني أخطأت، فقالت لي: "أول مرة تقولي لي: يا أمّ"!

- شاطرة.

t.me/qurssan

- وإلى أن أعرف كل شيء نكون سافرنا.

- نكون.

- نعم. أسبقك وأنهي الإجراءات، وأرتب قدومك فتلحق بي. ستحب بيتي، بيتنا.

سرّ لورا أن يكون لها بيتان، أحدهما في رحاب الأهرام، وقالت:

- والآن نحن هنا في بيتنا جوعى، وأمامنا طعام لا أشهى منه، أعدته بعناية أمّ مصطفى.

وصحت:

- عفوا، جهزته أمي.

كشف الغطاء عما أذهله، وأذهب عقله، فنزع الجلباب بحركة واحدة، وأعاد ارتداءه بعد أن ستر عورته، وحمل الصينية، وخرج يردد:

- الديك يا أمّ؟ قتلتِ الديك!

تبعته لورا وهي ترتدي الروب فوق القميص. لحقت به، وحملت عنه الصينية، ففتح الباب، وفاجأه أبوه مغتمًا، وواصل مصطفى هذيانه:

- قتلتم الديك؟

- وضع الأب يده على جبين ابنه، وتمتم:

t.me/qurssan

- قتلناه؟! بسم الله الرحمن الرحيم، مالك؟ أقل ما تستحق يوم فرحك.

فاستدار مصطفى، وكانت لورا تعبت من حمل الصينية فأنزلها عنها. وبكلتا يديه أمسك الديك الدافئ، ورائحته لا تثير إلا الغضب لا اللعاب، وسأل أباه: كيف طاوع أمه قلبها أن تذبح ابنها وتطعمه ابنها الآخر، وإن من غير الإنسانية أن يأكل أخ أخاه.

عبس أبوه:

- أخ؟ أخوك؟

- نعم، أنا ربيت "حابي"، وعاش في البيت كأنه واحد منا، وأمي في الآخر تطبخه، وتقدمه لي لآكله؟

لم يلتفت مصطفى إلى أبيه، ونظر إلى غرفة النوم مفتوحة الباب، ونادي:

- يا أمّ يا أمّ.

قال أبوه:

- أمك تقريبا سابت الدار. صلت الفجر، ووصلت لك الأكل، وأنا قاعد مكاني، عيني على الباب من ساعتها ما رجعت.

تأسى مصطفى لأمه ولأبيه الحائر:

- ربنا يطمّنا عليها، تقريبا عرفت مكانها.

t.me/qurssan

توسلت إليه لورا أن تذهب معه، وصممت على عزمها، وأسعده نشاطها، واعتبار نفسها شريكة تنخرط في هموم الأسرة. نسيا الجوع، وأحكمت تلفيعة حول رأسها وعنقها، وخشي أبوه أن يؤذيها البرد، فأسقط العباءة عن كتفيه، وألبسها إياها. وأكبر مصطفى سلوك أبيه الذي تمثل له العباءة معنى شديد الخصوصية، أكبر من وقاية من البرد.

تعلقت لورا بذراعه، ولاحقت خطواته السريعة، وفي قدميها حذاء خفيف:

- أول مرة أمشي بالنهار ولا يكون لي ظل.

- بالنهار؟ نسمي هذا الوقت، قبل الشروق، "الصبح بدري".

غبطها مصطفى على حظوة العباءة، فاعتزت بنفسها، ورفعت رأسها لتواجه موجة من الضباب، وهما يخوضان في ضوء خجول تنهيه موجة ضباب جديدة يرميها الزرع إلى الطريق. لم تسأله عن شيء، وساحت عيناها في ترقب قمة الهرم، والخلاء المهيب. وقال لها إن أمه لا تغير هذا الطريق، وأول عهد له به وهو صبي مبهور بالأهرام الدانية في الصباح. وهناك فوق الصخرة نفسها رأى أمه تقعد القرفصاء، وذراعاها قوسان تسيجان ركبتيها، وذقنها تلامس ذراعيها، وبصرها لا يحيد عن الأهرام.

اقترب مصطفى من أمه، وتناول يديها وقبلهما، واستجابت له ونهضت. وألبستها لورا العباءة، وسألتهما: هل تناولا العشاء؟

t.me/qurssan

احتار مصطفى، هل يلومها؟ أم يصمت ويؤجل العتاب؟ وظنت أنه لم يسمع فسألت لورا:

- تعشيتِ يا بنتي؟

رأت السعادة في عينيها. وامتنت لورا لأن تصبح في مقام الابنة لهذه المرأة الطيبة. وسألها مصطفى:

- فيه عاقل يتعشى في الفجر يا أمّ؟

- وفيه عريس عاقل يجرجر عروسته للغيط في الصباحية؟

وقاطعتها لورا، وعلا صوتها:

- الشمس، الشمس يا مصطفى. أول مرة أشهد الشروق!

ردّ مصطفى:

- الفقراء هنا يبدأون الشغل قبل الشروق، ولا يلفت انتباههم.

قدمت إليه التليفون:

- لازم نسجل اللحظة النادرة، اضبط الكادر والشمس فوق رأسي، ومرة وهي على كفي، ووجهي في الظل، لا يهم.

واستقبلت الشمس، والهرم خلفها، وطلبت صورة أخرى. وقبل أن يلتقطها مصطفى، رفعت يدها، وقالت:

t.me/qurssan

- لا يصح أن أعطي ظهري للهرم.

أوقفت مصطفى وأمه، وضبطت الإطار والهرم إلى يسارهما، والشمس إلى اليمين. صورتهما لورا، وكانت الصورة التالية لها مع حماتها. ودربتها لورا على التقاط صورة مع زوجها، بعد أن أزالت تاجا من الندى أحال شعره إلى البياض.

قبل البيت بخطوات سألته:

- عجبك الديك؟

- اسكتي يا أمّ، الله لا يسيئك، أنا ماسك لساني من أول الطريق.

- لسانك؟ ما له لسانك يا عريس؟

- يحرم على لساني يذوق طعم أخ ربيته، وكبر وسطنا. وفي الآخر تطبخيه.

مالت إلى لورا، وهي تصعد وراء مصطفى:

- جننتِ الولد من أول ليلة؟ معذور ابني.

- صعب عليه الديك والله يا أمّ.

- الديك؟ هاتي عباءة الرجل، واطلعي لعريسك.

t.me/qurssan

21

يخيل إلى المايسترو أن الشوكولاته أوهنت تسو وأنيل. انتهيا منها ولم يحمدا الله، ونسيا قاربهما، وتركاه لموج خفيف يؤرجحه، فيبعده عن اليخت ثم يقرّبه. ويطلب نواف قطعة أخرى، ويجادل بأنه استفاد من نصف قطعته، إذ نسي أن يسمي الله؛ فقاسمه فيها الشيطان. ويعد بأن يسمي الله، في أول الطعام وآخره، قبل فضّ الغلاف، ليحرم منه الشيطان ويذلّه، ويكفيه التهام أربعة أنصاف من رفاق القارب.

- لم أسمعك تسمي الله يا مايسترو!

- تمزح يا نواف؟

- أمزح؟ ما أقوله ثابت، أسمعه من صغري.

t.me/qurssan

- انس الشيطان، هو هاجس في نفسك حين تأمرك بسوء، وسواء يلحّ عليك، وخوف يطاردك. هذا الكائن الأسطوري هل ينتظرك إلى أن تأكل، ليسرق طعامك؟ لماذا ينتظرك أن تبدأ ليتسلل إلى فمك، ما دام الطعام من البداية أمامه؟

- كلامك غريب. الشيخ يقول إن العظام طعام الجن، وينهى عن التبوّل عليها.

- ومن غير أن تكون طعام الجن أو العفاريت الزرق، لمَ تتبول عليها؟ هل رأيت عظاما نقص منها شيء بعد أن تشبع منها الجن؟ لعل هذه المخلوقات الوهمية تأكل الوهم.

- المهم أنني نسيت التسمية. جوعان وأكل معي الشيطان.

ترتفع ضحكة المايسترو، وسرعان ما يفطن إلى قدرة الرياح على الوشاية بهم إلى سكان اليخت، فيكتم فمه بيده. ويقرر:

- الشيطان لا يأكل الشوكولاته.

ويسأل تسو وأنيل:

- تحتاجان إلى قطعة أخرى؟

يجيبان بالنفي، فيقول لنواف إنهما استراحا لعدم إيمانهما بالشيطان، ولا وجود له حتى في خيالهما، ولا يعقلان أو يصدقان أنه يشاركهما الطعام أو

t.me/qurssan

الفراش، فلماذا ينقضّ الشيطان على طعام المسلمين دون خلق الله؟ وتختلق أحاديث عن مشاركة الجن للمسلم في زوجته، منها "إذا جامع الرجل زوجته، ولم يسمّ انطوى الشيطان إلى إحليله فجامع معه"، وينسبون إلى ابن عباس أنه قال: "إن الشيطان يسبقه إليها فتحمل منه". فلماذا يزهد الشيطان زوجات غير المسلمين؟ وينصح نواف بنزع فكرة الشيطان من رأسه ليستريح.

يود أن يقول لنواف إنه أضاع فرصة للاختفاء في هولندا، والبقاء هناك وتنمية موهبته، والارتقاء بإدراكه المتوقف عند تصور الأقدمين لبدء الخلق، وشروق الشمس بعد أن ينخسها سبعون ألف ملك، ويصدها شيطان عن الطلوع، فتشرق على قرنيه، ويحرقه الله تحتها، ويؤمنون بأنها تطلع بين قرنيْ شيطان، وبين قرنيْ شيطان تغرب.

– متى تنتهي معارك الصباح والمساء بين الشياطين والملائكة المسلحين بالمناخيس؟

لا يرد نواف على السؤال، ويخرج من الحيرة بسؤال المايسترو:

– متى تسافر إلى أمريكا؟

– مساء غد، تقريبا انتهت مهمتي هنا، ولورا تستعجلني، بشرتني أمس بثبات الحمل، أخيرا بعد تعرضها مرتين لإجهاض مبكر. كان الله في عونها، ويتم كل شيء على خير.

t.me/qurssan

يبارك نواف، ولا يستطيع الاستفسار عن قدرة امرأة في نهاية الأربعينيا على الحمل. ولا يفوته السؤال:

- قلت "كان الله في عونها"؟ أنت مؤمن يا مايسترو.

لم يتأكد له هل قال نواف "أنت مؤمن" بصيغة استفهامية تحتاج إل إجابة؟ أم أنه يقرر شيئا أسعده وجوده. وآثر أن يصلح الرد للحالين:

- آمنت بالله.

- كلم المدام، لعلها تجد وسيلة لإخراجي من هنا.

- تريد الفرار من بلاد يحلم عرب وهنود وأوروبيون بالعمل فيها؟

- أنت قلت: "العمل".

- في البدء كان الخيال. رائع أن يحلم منقوص الهوية في بلاده بالعيش في أمريكا. من يعلم؟ لا حدود للخيال.

يبدو نواف منصرفا عن الكلام ولا يسمع، ويحسب أن المايسترو غير منتبه إليه، فيكرر الطلب ويشرحه:

- أنت قلت إنهم يحلمون بالعمل هنا، يعملون ويعملون ولا شيء إلا العمل، يهدرون أعمارهم ويؤجلون بدء حياتهم إلى أن يرجعوا إلى بلادهم، والبعض يبدد عمره كله، ولا يرجع إلا مثقلا بأموال لأولاده وبأمراض تعجل موته. لا أريد مصيرا بائسا.

t.me/qurssan

- كلمني عن البؤس. كل شيء في بلادكم مراقب. قالت لورا إن السياب ..مى الخليج "واهب الرّدى". بلاد النفاق، حتى في طائرتها يرد النبيذ في ءائمة المشروبات باللغة الإنجليزية، ويختفي من القائمة باللغة العربية على الوجه الآخر.

- لحماية الراكب العربي من المكروهات والمحرّمات.

لا يعلق المايسترو على مكروهات أو محرمات، ويحكي عن ابتسامة مضيفة في الطائرة لطلبه نبيذا، وهمست إليه أنه العربي الوحيد الذي اختار النبيذ في هذه الرحلة. ثم حلا لها تدليله، فسألته: تريده أحمر أم أبيض؟ وظلت توالية بالمزيد من الكؤوس، وكلما غمز بعينه عرفت ما يريد.

- ستكلم الدكتورة لورا؟

يفكّر المايسترو في حكمة ظلم لا ينهيه إلا العدل الإلهي في الدار الآخرة. ولا يستطيع أن يتذكر من قال إن خراج مصر وزّع أربعة وعشرين قيراطا، فاستحوذ السلطان على أربعة عشر قيراطا، ومنح الأغنياء ستة قراريط، والجند أربعة. وحين سئل عن نصيب الشعب، بعد توزيع القراريط، أجاب: "لهم بحمد الله القيراط الخامس والعشرون، في جنة الخلد". وتنفرج شفتاه وهو يتصور الشيطان يناصف الجند المساكين قراريطهم القليلة، وينصف الأقوياء الأثرياء بالحماية.

- ستكلم الدكتورة لورا؟

t.me/qurssan

- يفعل الله ما يشاء، وإن كان سفرك لن يغيّر أي شيء باستثناء خلاصا الفردي. ثم ترجع بعد سنين، إذا صلحت أحوالك هناك، بجواز سفر يفتح لك سماء أي بلد.

يسمعان شخير أنيل، ويثقل رأس تسو بين يديه. ويعلق المايسترو:

- ناما لأنهما أكلا قطعة كاملة، ولم يخطف منهما الشيطان أي شيء.

- فكرتني، اعطني قطعة أضمن ألا يكون لإبليس فيها نصيب.

يقول إن الشيطان هو من يريد الاستفادة من أي أحد بأي شيء. لا يشبع مهما يراكم رأس المال، ولا حدود لجشعه، ولو بقنص بضعة دولارات من سائح عابر، بوسائل إغراء أو احتيال تجيدها صروح فخمة اسمها "فنادق". ويطلعه المايسترو على قائمة معلقة في غرفته، في ورقة كارتونية مقوّاة ملونة، تبدأ بسؤال وتنتهي بالشكر:

هل أعجبتك مرفقات الغرفة والتجهيزات الكهربائية ورغبت في اقتنائها؟

يمكنك شراؤها بسعر التكلفة

بالاتصال برقم 0

- مطفأة السجائر: 2.5 دولار

- مناشف الأيدي: 5.5 دولار

t.me/qurssan

- مناشف الاستحمام: 13.5 دولار

- أثواب الاستحمام Bathrobes: 110 دولارات

- اللّحاف: 82 دولارا

- شراشف الأسرة: 55 دولارا

- مجفف الشعر: 82 دولارا

- المكواة: 82 دولارا

- المنبه: 203 دولارات

الأسعار المذكورة تشمل 5 % ضريبة دخل

في حال إزالة أي من المرفقات المذكورة خارج الفندق سوف يتم رصدها عن طريق تقنية أجهزة التتبع، وفي هذه الحالة سنعتبرها موافقة من الضيف على إضافة تكاليف المرفقات المزالة إلى فاتورة الغرفة.

شكرا.

تثب عينا المايسترو على مفردات الإعلان التحذيري، ويعيد قراءة السطر الأخير، السابق على الشكر، ويتوقف أمام كلمة "الضيف" الذي ليس ضيفا، ويضحك:

- علينا إيقاظ تسو وأنيل. يجب أن نتحرك قبل أن ترصدنا "تقنية أجهزة التتبع"!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

22

يرى نواف في التأخر استهانة بهم، ومقامرة بأرواحهم جميعا. ما أسهل إمطارهم بالرصاص من هذا اليخت الأعمى، وما أرخص إغراق القارب إذا شكّ الأعلوْن في تلصص أحد عليهم. ويبتسم له المايسترو، ويعده بالتحرك بعد دقيقة واحدة، ويرجع صبيّا في همسه إلى نواف بأن دروس اللغة العربية جعلته يتمنى في صغره "أن يمخُر"، ولم يكن يعرف معنى فعل "مخر"، ولكنه أحبّ الكلمة، وظل يحلو له إيقاعها، فتنتصب حروفها الثلاثة، وتتفاعل وتأتلف في هيئة سفينة "تمخُر"، بعد تضخم "ميم" الماء، واستطالته باتساع مياه البحار وعمقها. واقتران "خاء" خروج الدخان مرتفعا إلى أعلى ما في السفينة، فيطرد العوادم ويعلن عن خيلاء دونها علَم أقل ارتفاعا.

t.me/qurssan

وينبسط "راء" الرحابة، بامتداد سطح السفينة ولا نهائية الموج والسماء، وأغناه الإحساس بلفظ "مخر" عن فهم معناه، كما عاش حتى الأربعين بحلم بأن يركب في سفينة تشق "العباب". وكان المدرس يردد كلمتيْ "عباب البحر"، بصوته الجهوري، ويرفض الإجابة عن معنى "العباب". وينسو المايسترو ما حوله ويلوّح إلى نواف بالعصا:

- أجمل ما في ليلتنا، إضافة إلى النبيذ، أننا "مخرنا"، وتهادى بنا القارب، ولكننا لم نشق "العباب".

- أي عباب؟

- عباب والسلام.

يفيق تسو وأنيل، ويرتابان من الهمس، فيقول لهما إن ما دار بينه وبين نواف ليس سرّا، وإنما هو أمر يخص اللغة العربية، ويصعب شرحه. وإن زوجته الدكتورة لورا، الغارقة في المعاجم ودوائر المعارف، تفوتها أحيانا ألفاظ ودلالات:

- حتى نواف لا يعرف "العباب". والآن انتهت الدقيقة، وعليكم الوقوف على حافة القارب، ودفعه بالطاقة القصوى، من دون صوت. وبعد الابتعاد عن مجال هذا الشيء الحديدي المخيف، نستغل قوة الانطلاق، وننزل المجذافين بهدوء.

فيعاجلهم، من أعلى، انطلاق آخر. يسبق الشيء الهابط سباب ولعنات

t.me/qurssan

ونليه ضجة. ولولا أن القارب لا يزال ثابتا لاصطدم بحافته هذا الشيء الذي انغمر في الماء، وأصابهم ارتطامه العنيف برذاذ وابتلال. ويميل المايسترو برأسه حذرا، فلا يرى أحدا يطلّ من سطح اليخت، فيأمرهم بالتحرك، ويسمعون استغاثة صاعدة من عمق المياه، مغسولة بقبقبة، ومعها يدان تحاولان الإمساك بشيء فلا تقبض إلا على المياه، وتدل الرغبة في الحياة على وجود إنسان يطلب النجدة.

الغمغمة المستجيرة تتجسد في امرأة، ترفع رأسها عن الماء، ويداها في عماء الأمل بالنجاة تتعلقان بمجذاف أنزله تسو. ويتعاونون في انتشالها، ويستمر أنيل في تجذيف ناعم، وينصحها نواف بالاستلقاء على بطنها، وإفراغ ما في جوفها من ماء، وترجوهم بإشارات هستيرية أن يبتعدوا بسرعة، خوفا من أن يلاحقهم بسببها رصاص يغرق القارب، وينهي وجودهم، ويكونون طعاما للأسماك في عمق الخليج.

يُعينها نواف في دفق الماء، ويضع المايسترو عصاه تحت إبطه، ويفتح الحقيبة فتسقط العصا في بطن القارب الذي ابتعد عن مرمى الخطر. وبصفاء صدر المرأة من ملوحة المياه، ترفع رأسها وتخطف نظرة إلى اليخت، وتهرق دموعها، فلا يدري المايسترو هل تبكي فرحا بالفرار والنجاة، أم أسى على شيء لا يعرفه؟

يوغل القارب في الظلام، مقتربا من الممشى. ويخرج المايسترو ما تجود به حقيبته، فيضع الجلباب والشبشب جانبا، ويعطيها الفوطة وينصحها

t.me/qurssan

بخلع ثوبها، وتجفيف نفسها، لكي ترتدي الجلباب. تتردد المرأة، ويعلو على خديها خيطان من فضة الدموع، فتمسحها بباطن كفيها. ثم يذهب عنها التوتر، ويتسرب إليها شعور بالأمان، ويزول حرج التعرّي في الظلام ويطأطئون رؤوسهم ويغضون أبصارهم. وتعتذر مرة أخرى وتسحب ثوبها ببطء إلى أعلى، وتضم فخذيها وتنحني قليلا، فلا يلمح المايسترو فرقا بين لون جسدها وغلالة شفافة تستر عورتها، ولا يسمح لعينيه بأدنى من نظرة تفسر له التصاقا يتحالف فيه البلل وامتلاء الأرداف، وتتكرر النظرة، فترتفع عيناه مع انحسار الثوب المعاند لفراق الجسد. وفي لحظة خلعها للثوب، حين يغطي وجهها، لا يرى مشدّا يحكم ثدييها الباذخين في غير شموخ. وتشكّ في أنه لاحظ، فتأسف وتلوم المياه التي سلبتها بعضا من ثيابها. ويكاد يضحك على ماء شبق، لا يكتفي بالتحرش، وإنما يعرف الطريق إلى لحم نابض بالشهوة، ويجيد انتقاء أثر عزيز ويضمه إلى مقتنياته، ولا بديل لهذه القطعة في حقيبة خفيفة لرجل.

ترتدي الجلباب، وتعيد الفوطة إلى المايسترو، فيقترح عليها أن تعرّض ثوبها للهواء، وتنشره على كتفيها وظهرها حتى يجف في دقائق، قبل أن يتركوا القارب، ويغادروا المكان كله.

ولا تحتاج المرأة إلى معرفة جنسيته، وتريد أن تشكره باسمه، فتسأله ويجيب باقتضاب:

- حابي.

t.me/qurssan

- حابي؟!

تهمس: "اسم غريب". يسمعها المايسترو، وتومئ إليه بيد تلمس صدرها:

- حياة.

يرد:

- لم أسألك عن اسمك. الحمد لله على السلامة.

- لا حضرتك سألت ولا أصحابك مالوا ناحيتي. وأدين لكم بحياتي، وأطمع في كرمكم بإبعادي عن هنا.

تقول إنها مصرية، ولديها عقد زواج وقعه كلاهما، وتشير إلى صدرها وإلى اليخت، وإن لها هنا أسبوعا منذ وصولها من مصر، ويقيمان معا في فندق، وهذه ثاني مرة تطأ فيها هذا اليخت. في المرة الأولى، حضر أصدقاؤه وزوجاتهم، هكذا قدمهم إليها وقدمها إليهم. والليلة غامرا بالدخول في جوف ظلام الخليج، في يخت صغير يقوده هندي ظنته أخرس، إلى أن رد في نهاية الرحلة البحرية على اتصال، قبل أن يغوص في بطن اليخت الكبير، ثم صعدت لترى وجوها جديدة، تزيد فيها أعداد الرجال على النساء، وتغاضى من كان "الزوج" عن تجاوز أحد الحضور في الاقتراب، بالمديح والمجاملة في البداية، ثم بمغازلة صريحة انتهت بإبداء الرغبة في الخلوة، بحجة النأي عن الصخب. ادعت عدم فهم مراده، وكانوا قد اختفوا جميعا،

t.me/qurssan

ووصلتها أصوات المشغولين بأنفسهم، بمن فيهم "الزوج" الذي لم يغنها وهي تناديه، لعل صاحبه الثمل يفيق ويخجل وينصرف.

- ابن الحرام أمهر من الحاوي. من غير أن يلمس جسمي، مدّ يده والْتقط السوتيان. أقسم لك بالله يا أستاذ حابي!

لا يذكّرها المايسترو بزعمها، قبل دقائق، أن المياه أثقلت السوتيان، واستأثرت به، واختارته من دون ثيابها، ولولا امتلاء أردافها لاستطاعت المياه تعريتها من أسفل.

تلاحظ شروده، فترفع طبقة الصوت، وتبدي الخوف، وتُحكم طرفيْ ثوبها على صدرها وتنكمش على نفسها، قائلة إن الرجل أوشك أن يغتصبها، فصرخت وانطفأت الأنوار، واختفى الرجال أو تلهوْا بالنساء، وهو لا يفلتها، ويحشرها في الزاوية، ببطنه المتدلي. ثم تضحك في وجل، وتقول إنه منفّر، برجرجة ثدييه، وتهدّل لُغده الأشبه بجراب الحاوي، وليس له من براعة الحواة إلا سرعة نزع السوتيان. ولما تقنفذت في الركن، وأحكمت انطواءها لتصون عرضها، دفعها وانكفأت، فسارع إلى تعريتها، وكاد يأتيها من الخلف.

- يرضي ربنا يا أستاذ حابي؟

يرد على العبث بمثله:

- أظن، والله أعلم، لا يرضيه من الخلف!

t.me/qurssan

تكاد تضحك. ولا يفوتها، وفي انعكاسات أضواء بعيدة وألفة الملامح، انه يتمهل في نطق الكلمات بإشباع الحروف، وتشعر بنبرة استهزاء، فتشحذ صوتها للدفاع:

- كأنك تلمح إلى أن الله يرضيه، أو يرضيني، من الأمام؟ قل إنك نكذبني.

- لا أكذبك ولا أسألك عن أي شيء، ولا يهمني اتهامك، اسكتي قليلا لتساعدينا على إنقاذك.

- شكرا على الفوطة والثوب.

- خذي الشبشب، اِلْبسيه الآن، لا يصح أن ترجعي إلى الفندق حافية.

- فندق! أي فندق؟

- قلت إنك تقيمين معه في فندق.

- نعم، فندق "ريحانا بالم".

- جيد، نحن جيران.

- تقيم فيه؟

- لا، في فندق قريب منه.

يقفز تسو بالحبل المثبت طرفه في مقدمة القارب، ويوثق طرفه الآخر

t.me/qurssan

بأحد عمودين خشبيين يحرسان الممشى، وعيناها معلقة باليخت الغارق في الظلام، وشفاه المرأة ترتجف، وتسأل بلهفة المطارد بما هو أكثر من الفرار من اغتصاب:

- ما العمل؟

t.me/qurssan

23

يقبض تسو على عجلة القيادة، وهي في المقعد الخلفي، ويشارك الثلاثة في دفع سيارة نواف إلى أبعد من قدرة المتنصت، في اليخت، على سماع هدير الموتور حين يدور.

يُذكّرها مرة أخرى أن أمامها خمس دقائق للوصول إلى الفندق، وأن تدخل مرفوعة الرأس، وتمشي بخطوات واثقة تصرف نظر أي متطفل عن تفحّص ثوبها المملّح، وملاحظة أنه لا يخفي مشدّا للصدر. وبعد الوصول إلى المصاعد ترجع إلى موظف الاستقبال، وبأنفة تطلب مفتاحا بديلا لمفتاحها الذي ضاع. وتكفيها نصف الساعة للتحمّم، ثم تلفّ فستان النجاة والشبشب، وتضعهما في حقيبة اليد، وفي اليد الأخرى هاتفها المحمول.

t.me/qurssan

وينهى تسو عن تبادل أي كلام معها طوال الطريق، وعن الاقتراب من "ريحانا بالم"؛ لإبعاد سيارة نواف عن نطاق كاميرات الفندق، ويرجع إلى هنا في خمس دقائق، ومن هنا إلى فندقه خمس دقائق أخرى، وسوف يتخذ إجراءات المغادرة في بضع دقائق، ثم يأخذون السيدة "حياة" من المكان الذي ستنزل فيه من السيارة إلى "ريحانا بالم" للمرة الأخيرة. ومن هناك، حيث لا كاميرا تصور السيارة ومن فيها، سوف يتجهون إلى المطار، ثم يعود الثلاثة تاركين المغادرين لمصير لا يعلمه إلا الله.

- لا تنسي الشبشب، سوف تسألني عليه لورا!

- لورا؟

- لا تشغلي بالك. الأهم أن تحضري الفستان. لا بد أن نحرقه في الطريق إلى المطار؛ فلا يستدل عليك أحد.

- وأمن الفندق؟

- أي فندق؟ أنت الآن غرقتِ، وأولئك السكارى لن يبدأوا البحث عنك قبل الإفاقة من الملذات. ولن يفكر "زوجك"...

يتوقف ويسألها:

- قلت إنه زوجك؟

- نعم زوجي، والله يشهد.

t.me/qurssan

- انسي الله الآن.

- ونعم بالله.

- لن يفكر الرجل في أن يرسل إلى الفندق من يتعقبك ويتحرى عنك، ولا أظنه سيتصل بموظفي الأمن للسؤال عن امرأة انتحرت أو أغرقت، ولو اتصل فلن يكون قبل ساعة، وسنكون في المطار، ولن نعدم مقعدا يخرجك من هنا، وإذا لم نجد رحلة إلى القاهرة فإلى أي مدينة، ومنها إلى مصر.

- وأنت؟

- إلى لورا.

- لورا؟

- إذا كنت محظوظا بمقعد إلى القاهرة، فهي فرصة لرؤية والديّ، قبل سفري الطويل.

يطالبها بأن تُسمعه الخطوات التي أوصاها بتنفيذها، فتقول إنها سوف تتحمم، وترتدي أشيك ثيابها وأغلاها، وتترك الغرفة كما غادراها قبل السهرة، ولا تمس شيئا: الإضاءة نفسها، الحقائب مفتوحة أو مغلقة أو نصف مغلقة، دولاب الملابس، الأوراق على المكتب بترتيبها أو فوضاها. حتى إذا رجع، تأكد له أنها لم تدخل الغرفة، ولا يستطيع رؤية أي تغيير أو اختلاف في التفاصيل، ولا يجد شيئا تحرك من مكانه أو اختفى، باستثناء

t.me/qurssan

هاتفها المحمول وجواز السفر وأي وثيقة تؤكد الزواج، والأوراق الرسمية التي دخلت بها البلاد. ويأمرها بإحضار العملات النقدية كلها، وألا تخفي لنفسها شيئا، وستقسّم الأموال أربعة أنصبة، للذكر مثل حظ الأنثى، ويشير إلى الرجال الثلاثة وإليها. وتنظر إلى الرجلين الوافدين ولا تعلّق، وتكاد تستنكر استحقاق رجل من أهل البلد، فيهددها بألا تعترض، وألا تحاول أن تحيد باللعبة عن المسار.

- هذا ابن البلد مهضوم الحق. يحتاجون إليه حين يمثّلهم في معرض فني خارج بلده. وإذا تعرض البلد لغزو، سارع إلى حمل السلاح دفاعا عن بلد سيهرب منه حكامه. يخاطر الليلة بسيارته، ومن حقه أن ينال ربع أموال ابن بلده.

يوصي تسو بالقيادة الحكيمة للسيارة، يستحلفه بالدالاي لاما ألا يرتكب مخالفة تفسد الخطة كلها.

- ننتظرك هنا بعد عشر دقائق.

يستريح أنيل بالقعود على السور الحجري المشرف على الخليج. يحلم باكتمال معجزة وصول القارب إلى هنا، واستقراره قريبا من هذه الكائنات الحديدية الفخمة، ربما في غفلة من أصحابها الذين يرونه مزحة، شامة في صفحة الوجه. لو تكتمل المعجزة بثورة تسمح له بالصيد في الخليج، فيقضي نهاره في سكينة، ويعود مع الغروب بما يكفيه فلن يحتاج إلى أكثر

t.me/qurssan

من ذلك. يغمض عينيه ويفرد أجنحة الخيال، فتغطي الخليج وبحر الهند والهند نفسها. ومن أعلى ومن بعيد، وهو مقيم في القارب الطائر، يرى هذه اليخوت شامات ضئيلة في خليج يصير خطّا رفيعا، ولكنه الآن يبتلع آماله في نمو القارب كبناء خشبي وتنبت له إطارات تسمح بسيره في الطرقات، في مثل هذه الساعة من ليال موحشة في سكونها.

يستريح أنيل من هذا كله، ويسلم وجهه إلى السماء. لا قمر في ليل يوشك أن ينتصف، ولا سيارة تؤنس الطريق المفضي إلى اليخوت، وقلما يرتاده في هذا الوقت المتأخر إلا من يلحق بأصدقاء أو يعود من سهرة.

ويستظلان من أضواء الطريق بشجرة تخترق أغصانها، من أعلى، شرائح مصباح الإنارة. ويسأله نواف:

- حيرتني يا مايسترو، لم تنطق أمام المرأة اسم أي منا، وكذبت عليها لما سألتك عن اسمك.

- الحذر لا يضر.

- هل تمثّل هذه المسكينة أي خطر؟

يختار موضعا آمنا من ثقوب ضوء المصباح، ومن هذا المكان يخرج صوته، ولا يبصر نواف وجهه. ويقول إن عمله في المحاكم قربه من مجرمين وأفاكين طلقاء، ومن أبرياء مظلومين يدفعون من أعمارهم أثمانا لجرائم غيرهم، ومن قضاة يحكمون بما بين أيديهم من أدلة، ولو كانت ضمائرهم

t.me/qurssan

غير مطمئنة، وتلومهم أنفسهم وتوجعهم أحكامهم؛ ليقينهم بأن الحقيقة في مكان آخر، ولا دليل عليها إلا قلوبهم. ويروي له اقتران بداية ارتداء المحامين للروب الأسود بغياب العدالة، وإن تحققت شروطها وأركانها. في نهايات القرن الثامن عشر شاهد قاض فرنسي، رأي العين من شرفة بيته، جريمة قتل انتهت بفرار القاتل، وتطوع عابر سبيل بحمل الضحية لإنقاذ حياته، فاتهموه بقتله، وحكم القاضي نفسه على هذا البريء، وهو يوقن ببراءته، وبأن القاتل هارب ولا دليل عليه، ولكن القرائن تدين هذا البريء المحكوم بالإعدام. ولم يحتمل القاضي عذاب ضميره، فاعترف بالتفاصيل، وأصبح هدفا للانتقاد والاتهام بفقدان الأمانة. ثم رأى محاميا يدخل المحكمة، بملابس الحداد، "الروب" الأسود، وسأله القاضي عن سبب ارتداء هذا الزي، فأجاب المحامي: "حدادا على بريء حكمتَ ظلما بإعدامه".

لا يسلّم المايسترو بشيء، ولا يحب مقولة "للحقيقة أكثر من وجه"، إيمانا بأنه لا حقيقة، وأننا من يسبغ على شيء أو أحد وجها ما، ثم ندّعي أنه حقيقة. ويدعو نواف إلى التفكير في أن هذه المرأة ربما لا تكون مصرية، وأجادت الكلام بهذا اللسان، وكذبت عليهم أو على رجل زعمت أنه زوجها.

- من أدراك أن اسمها "حياة" أو "موت"؟

- من أدراني؟ صحيح، من أدراني؟ كل شيء جائز.

t.me/qurssan

يشير بالعصا إلى ناحية اليخوت، ويقول إنه لا يعرف من، أو ما، وراء امرأة تقول إنها "طريدة". ولا يهمه أن تكون زوجة أو خليلة. ولا يتأكد له أن رجلا حاول اغتصابها، ولعلها قتلته ثم رمت جثته في الجانب الآخر لليخت، وقفزت هربا منهم حين اكتشفوا قتلها للرجل، ثم ألقوا إلى الماء بجثته بعد إثقالها بعمود حديدي أو كتلة خرسانية، وقد يفتحون مرآب اليخت الصغير لأداء هذه المهمة في العمق البعيد.

- هل صدقتَ أن الخليج نزع حمالة صدرها؟!

يجيب نواف:

- الخليج قادر على كل شيء.

يقولها ويبتسم، فيسأله المايسترو:

- كل شيء؟

- نعم، كل شيء. الحمالة والصدر وصاحبته وصاحبها إذا لزم الأمر.

- تتكلم عن كيان خرافي لا يعجزه، بالمال، شيء؟

يومئ نواف بالإيجاب، ويقول المايسترو إنه سيطمئن من جواز سفر المرأة إلى اسمها الحقيقي، وأما بقية التفاصيل فحين تقلع بهما الطائرة، وفوق السحاب يخبرها باسمه. وقبل ختم جواز السفر وبطاقة الطائرة بالمغادرة، لا يدري أي مصير ينتظرها، وإذا قبض عليها في المطار،

t.me/qurssan

فلن تستطيع الافتراء إلا على رجل اسمه "حابي".

ويضرب صدره بطرف العصا:

- أنا أيضا لا أعرف من يكون "حابي"!

يبتسم نواف:

- ولكني أعرف، الديك المرحوم!

t.me/qurssan

24

- ستكلّم الدكتورة لورا؟

- تأخر تسو، انتصف الليل ولم يصل.

- سمعتني؟

- اتصل بصاحبك يا أنيل، يفترض أن يكون هنا الآن. لا أرى أنوارا لسيارة.

- سنتواصل يا مايسترو.

- لا وقت يا أنيل، كلّم تسو.

يتذكر أنيل أباه. يحنّ إليه، ويشتاق إلى معانقته. لا إساءات من الكفيل

t.me/qurssan

الجديد، ولكن أيامه خواء، تمضي في رتابتها ولا تضيف إلا المزيد من الأموال. ليذهب القارب إلى جحيم الخليج، فهو يريد العودة إلى أبيه، ويكاد يرى وجهه الآن يسبح في السحب، ولا يبدد ملامح الأب نداء المايسترو. يقفز أنيل من السور، ويعطي ظهره للخليج وللقارب، ولا يتلقى ردّا من تسو.

ليس لدى المايسترو يقين بنجاح خطة تسفير المرأة، ولا يضمن ولاءها أو ذكاءها. ويخطر له لو أنهم استغنوا عن أحد المجذافين، وثبّتوه صاريا، وشدّوا عليه فستان المرأة المبلول شراعا، وتركوا القارب "يمخر"، ويشق عباب الخليج، وبمثل هذا الشراع لم يكن لأحد أن يعترض القارب على الضفتين.

السخرية من تخيّل رحلة لم تبدأ لقارب متعطل لا تصرف المايسترو عن التشاؤم بساعة الزُّلّة، فيحمل حقيبته ويتأبط عصاه، ويتقدم نواف وأنيل رأسا لمثلث في اتجاه الخلاء. لا يتشاطأون، ويعطون ظهورهم لمياه الخليج والأسفلت، وتبطئ الرمال خطواتهم. يتوقفون ويطلب المايسترو إلى أنيل أن يحمله على كتفيه، ويتسامق ملتمسا نور سيارة نواف، وقد انتصف الليل، وها هو الأسفلت يتشقق، ويتوارى سواده أمام خضرة زاحفة، ويمسح عن وجهه ما ظنه مطرا، ويتساءل وهو يتذوق لزوجته ودفئه: منذ متى يترذرذ الدم؟

فيرتج الفضاء بموجة من الديوك تنقر الأرض، وتطلّ تيجان الرؤوس

t.me/qurssan

من العشب، تبدو هاماتهم ندوبا تكسر بيضة الأسفلت، أوتادا لا تلبث أن تعلو، وتنمو لها أجساد. وتدعوهم صدمة الإنارة على وهنها إلى فرك أعينهم، والإفاقة من عماء الغيبوبة، ويتناسخون سراعا، وتنبت في الأيدي أسلحة، وتستعجل الأصابع إطلاق البارود، وفي الوجوه ألسنة من لهب، ولا تكفّ الصحارى عن إمدادهم بحشود من الممسوسين بالغضب والرجاء، ويتعالى الهتاف والتلويح والتهديد. يركضون من الطريق إلى الشاطئ، وينبعثون من الماء إلى الطرق، وكل ممشى إلى يخت يئنّ بالمقتحمين الصاعدين، وتشتعل السفن واليخوت الرواسي بأضواء تُلهب فضة الماء، ويتحسر أنيل على قاربه، وتتسلل إليه المياه، ولا يعرف - في جهنم الخليج - هل يهرب القارب من الحريق مفضّلا الغرق على الاحتراق؟ ويحاول الذهاب إلى القارب، ويحْفن السائل الدافئ، ويصيح فزعا:

- "دم، دم".

يفيض الخليج دما، ويستمر دويّ الرعود، ومن أعلى اليخوت ينطلق الرصاص، وتعلو الأدخنة، وتلقى أجساد أو تلوذ بالمياه المثخنة بالدماء، وتتناثر على الطريق رؤوس وأعضاء مبتورة، وفوارغ طلقات ساخنة تنفث بقايا الدخان. ومن بعيد تتصادى أبواق من عمق الصحارى والمياه والسحب والغيوم، وتزمجر جنازير مدرعات، وتتنادى إغاثات مطافئ، وتصهل أحصنة، وتفزع طيور ولا تصل إلى غاية فتسقط وتوقد حرائق أخرى، وتتقافز هوامّ وزواحف ودواب لا تعوزها الرعونة. وتتراص

t.me/qurssan

براميل نفط وبارود، لحماية اليخوت والبنايات الصرحية، فتنطحها وعول وخراف، وتثقبها عقبان، فتنفجر الحمم في الصدور العارية، ويتدافعون ويتصادمون في ذعر وأمل.

يهبّون من كل وادٍ، ينتظرون أن يعلن أحدهم نفيرا، أو ترتفع في الأفق راية.

الهرم

(15/ 1/ 2014 - 3/ 11/ 2019)

t.me/qurssan

أعمال أخرى للمؤلف:

روايات:

1 – حديث الجنود. الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة (1996).
الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب (2001).
الطبعة الثالثة، الدار المصرية اللبنانية (2008).

2 – باب السفينة. دار البستاني (2002).

3 – ثلاثية أوزير (1): أول النهار. الدار المصرية اللبنانية (2005). فازت بالمركز الأول لجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي (الدورة الأولى 2011).
الطبعة الثانية، دار مدارات (2012).

4 – ثلاثية أوزير (2): ليل أوزير. الدار المصرية اللبنانية (2008). فازت بجائزة اتحاد كتاب مصر (2009).

5 – ثلاثية أوزير (3): وشم وحيد. الدار المصرية اللبنانية (2011).

رحلات:

1 – سبع سماوات.. رحلات في الجزائر والعراق والهند والمغرب وهولندا ومصر. (2011). فاز بجائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة (2008 – 2009) من المركز العربي للأدب الجغرافي (ارتياد الآفاق).
الطبعة الثانية، دار العين للنشر (2014).

t.me/qurssan

شهادة:

1 – الثورة الآن.. يوميات من ميدان التحرير. الهيئة العامة لقصور الثقافة (2012).

الطبعة الثانية، الكتب خان للنشر (2012).

2 – قبل تشييع الجنازة.. في وداع مهنة الصحافة. ابن رشد للنشر والتوزيع (2020).

في السينما:

1 – في مديح الأفلام.. مهرجانات ومدن وشعوب تحبها السينما. مركز الأهرام للنشر (2016).

البريد الإلكتروني:

saadelqersh@hotmail.com

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المَايسْترو

«يلتحم القارب باليخت، يقترب في وداعة لا اصطدام؛ فلا يُسمع له صوت. وفي الأعلى لا ينكسر الظلام ولو بضوء شمعة. وعلى حافة هيكل الظلام جمرة تتقد، ثم تخبو ويعاد إشعالها. يحذرهم نوّاف أن يرفعوا أصواتهم، ثم يمنعهم عن الكلام تماما؛ لو عرف الأعلون بوجود أحد في الأسفل، لما ترددوا في إطلاق النار».

على قارب فقير يجرفه التيار نحو يخت يتعملق في مياه الخليج، شخصياتٌ أربع من جنسيات ومعتقدات مختلفة، تتسامر في الحب، وتتحاور حول المعتقدات، كاسرة تابو الخشية من الآخر؛ لعلها رمز للعالم. الخادم الهندوسي «أنيل»، والعامل التّبتي «تسو» المؤمن بالتقمّص، و«نوّاف» ابن البلد المهمّش، والمحامي المصري «مصطفى» ملتبس المعتقد. لكل منهم قصة، لا سيما قصة الحب الرئيسة بين مصطفى ولورا، يسردونها في دعة ظاهرة، وغضب يتعاظم ضد حيتان المال، بانتظار من يعلن نفيرا يخرج بالعباد إلى النهار.

أسماء رمزية ثلاثة تؤشر إلى الرؤية؛ لعل «المصطفى»، شخصية جبرائيّة، ينادي فيتجاوب مع صوت السيّاب «يا خليج.. يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى»، ليصل الصوت إلى «رع» في أرض «ماعت»، في ساحة العدل والحق.

سعد القرش: روائي مصري له خمس روايات: «حديث الجنود»، «باب السفينة»، و«ثلاثية أوزير»: «أول النهار»، «ليل أوزير»، «وشم وحيد». ونالت «أول النهار» المركز الأول لجائزة الطيب صالح (٢٠١١). له أيضا: «الثورة الآن.. يوميات من ميدان التحرير»، «في مديح الأفلام»، «سبع سماوات» الفائز بجائزة ابن بطوطة، «قبل تشييع الجنازة.. في وداع مهنة الصحافة».

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

t.me/qurssan